


مجلة ثقافية أدبية شهرية جامعة ■ تصدر إلكترونياً ■ العدد الثالث عشر ■ سبتمبر ٢٠٢٠م

# الأدب الأندلسي

## من الإمارة الأموية إلى عصر الطوائف

# داخل العدد



## مقالات محور العدد:



## مقالات أدبية وثقافية:



## دراسات:



# كلمة التحرير

محور هذا العدد يسلط الضوء على الآداب في حضارة الأندلس لتجلية ما اختزن منها في سجلات التاريخ، وعلى النص الإبداعي المستلهَم من تلك الذرى المتوجة بالنور. والذي شعّ ليضيء أوروبا التي كان ملوكها بعد تملّكهم على الأندلس يصدرون مراسيم تمنع الاستحمام باعتباره عادة إسلامية.

يحتوي العدد على ملف جامع أعدّته الباحثة والمدونة في تاريخ الحضارة الأندلسية حنون ألبينو حشدت فيه مقالات متعددة المناظير إلى تلك الحضارة من زوايا الأدب والتاريخ والأحداث والوصف العمراني وغير ذلك مما يطالعه القارئ في هذا الملف الذي نعرضه باسم صفحتها المتخصصة في التاريخ الأندلسي والمبذولة في فضاء فيس بوك باسم «صوت الأندلس» بمعروض رفيع المحتوى كمنجز حقيقي لبحوث تاريخية وجغرافية وأدبية جادة، تنتهج منهجيات الوصف والتحليل والنقد. ولم تغفل دور التصوير البصري في صناعة المحتوى، فشفعت هذه البحوث بما يقارب ٤٠٠٠ صورة.

تركز الباحثة حنون خريجة الأدب والفنون عبر جهدها في إدامة جذوة التاريخ الأندلسي متقدة بتثقيف مواكب للقراءة الحديثة التي اعتمدت التنميط الرقمي والجرعات القرائية السريعة. ومما لا يمكن إغفال قوله هو أن الباحثة ذات أصول أندلسية تعود إلى العائلات التي تم تهجيرها عبر البحر الأبيض المتوسط إلى شمال إفريقيا، وتحديداً دول المغرب العربي، وتم توطين الآلاف منها في تونس التي كانت تحت حكم عثمان داي الذي حكم إلى ١٦١٠م.

فانتقلت بهذه الهجرة إلى تونس مظاهر أندلسية كثيرة بدت في أساليب العمران والفلاحة والطبخ والأزياء، وغير ذلك مما يمثل المظاهر الأندلسية. ويتجاوز تعداد تلك السلالات السكانية ربع سكان تونس، ويتركزون في مناطق الشمال، وآثارهم العمرانية القديمة هي وجه أفلت من قبضة القدر ليتنفس عبر البحر.

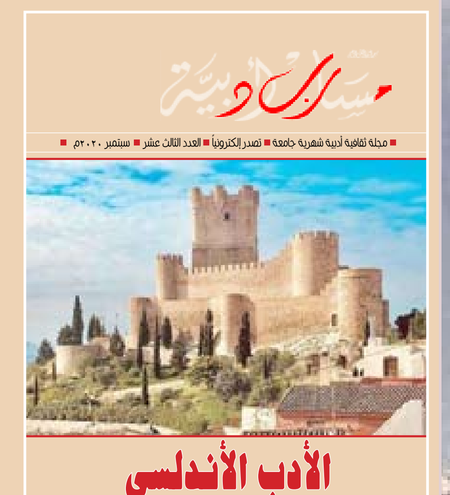
تنقل الصور في صفحة «صوت الأندلس» مشاهد كثيرة في الأندلس في شبه الجزيرة الإيبيرية الأوروبية، وفي شمال تونس وسيجد القارئ العدد حافلاً بما تنطق به هذه الصور.

تعتبر الباحثة أنها أسست الصفحة لملاحقة الإرث الذي خلفه أهل الأندلس في المدن البديلة التي استقروا بها بعد عملية التهجير. وأنها منبر لإنعاش الذاكرة التي نُومت طويلاً وفضاءً للتعريف بالقضية الاندلسية والشعب الذي ضاع حقه، أولئك الذين صنعوا حضارة الأندلس ومجدها. هذا عن المآسي في حواشي التاريخ. وعن أمجاده فترى أن وراء كل باب أندلسي أسرار وحكايات.

فريق عمل الصفحة مكون من مدونين شباب من دول مختلفة؛ الأمين القرشي آل الصالح من السودان، وفارس العدوتين من الجزائر، وجمال جمال من المغرب. وعن مقالات الملف فكلها بقلم الباحثة، إضافة إلى قصة أندلسية قصيرة (آخر زياتين غرناطة) لمروان الزديني من تونس. وقصة (ألبرتو الموريسكي) للروائية والقاصة الأردنية رولا حسينات.

وكالمعتاد فقد طرح في هذا العدد مجموعة من المقالات والدراسات، التي تحاول أن تحيط بنواحي الموضوع الذي أعلنا عنه، وأن تغوص في اشتماله لتفعيل تثقيف محمود يتجاوز الأسطح والمعلوم بالضرورة إلى حفر معرفي يرمش من بعد آخر. أو من طريق أخرى فذا شكر منثور لجماعة المساهمين في هذا العدد.

زياد



# دعوة للكتابة

نتشرف بدعوة كافة الأُدباء والكتاب والنقاد للكتابة بمجلة مسارب أدبية في العدد الرابع عشر، والذي سيصدر - إن شاء الله - في الأول من أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٢٠ م.

## محور العدد الرابع عشر:

## «ساحة الأدب الساخر»

ندعو للمشاركة بالكتابة في موضوع المحور أعلاه كما نرحب بمشاركة الأدباء بالنصوص الإبداعية، عبر الأجناس الأدبية:

**المقالات - الدراسات المُحكمة**

**الشعر الفصيح - الشعر الشعبي - النثر**
**القصص القصيرة - القصص القصيرة جداً**

## دليل التحرير بالمجلة:

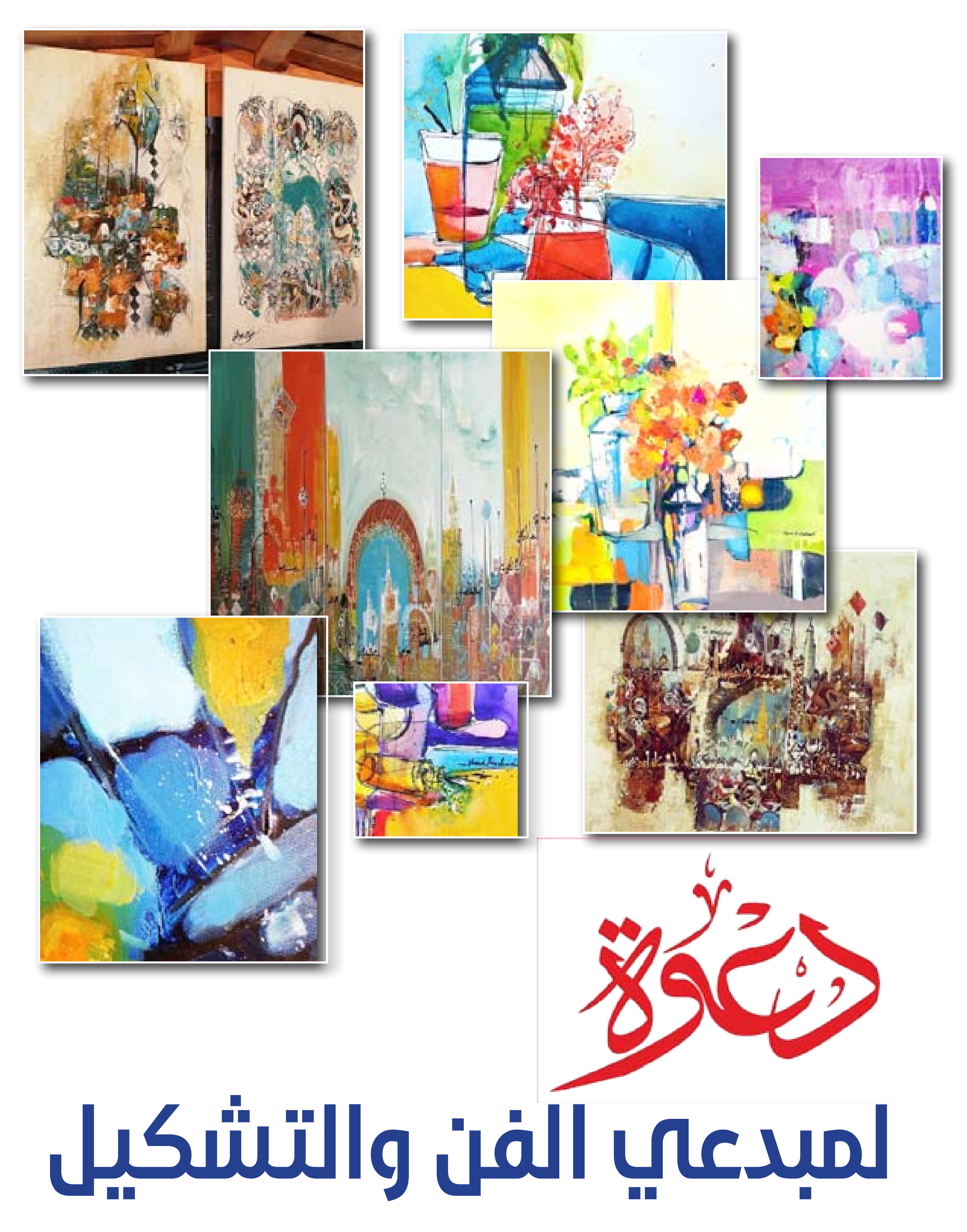
١/ تُرسل المواد كحد أقصى في ٢٠ سبتمبر/ أيلول ٢٠٢٠ م.
٢/ يجب على الكاتب إرفاق صورة شخصية مع المادة المُرسلة.
٣/ يجب ألا تتجاوز الدراسة ٣٠٠٠ كلمة، والمقالة ١٥٠٠ كلمة.
٤/ أن تكون المواد لائقة المحتوى وتراعي الأخلاق، وألا تتجاوز الخطوط الحمراء في طرحها لقضايا الأديان والدول والأعراق.
٥/ مطابقة المعايير المُتعارف عليها في الأجناس الأدبية.
٦/ الحرص على ضبط وسلامة اللغة.

**تُرسل المواد للمجلة عبر البريد الإلكتروني:**

masarebart2019@gmail.com

---

**«المواد المنشورة لا تُمثل رأي إدارة المجلة، بل تُعبر عن آراء كتابها»**



# دعوة

# لمبدعي الفن والتشكيل

ندعو الفنانين والتشكيليين ومبدعي فن الخط العربي، للمشاركة بأعمالهم الفنية لعرضها في صفحات «مجلة مسارب أدبية» ، على من يرغب في المشاركة ارسال أعماله - مصوّرة تصويراً واضحاً - عبر البريد الإلكتروني للمجلة، مع ذكر الاسم الكامل والدولة التي ينتمي إليها.

تُرسل اللوحات للمجلة عبر البريد الإلكتروني:

masarebart2019@gmail.com

## حوار مجلة مسارب أدبية

## مع الأديبة الفلسطينية




## المستشار الثقافي للرئيس الراحل ياسر عرفات

حاورها زياد محمد مبارك

عُرفت د. حنان عواد في الأوساط الثقافية العربية بسفيرة الانتفاضة وعاشقة الوطن؛ شاعرة وكاتبة ومناضلة كتبت لقضية فلسطين شعراً ونثراً وفكراً؛ عُرفت بمظهرها الذي تحرص على أن يكون دالاً على مواقفها الوطنية بتوشُّح الكوفية رمز النضال الفلسطيني. سطّرت في كتابها (ذاكرة الترف النرجسي) مسيرتها الإبداعية والنضالية داخل وخارج فلسطين ابتداءً من مدينتها ومسقط رأسها القدس. وُصفت في زيارة لها إلى صنعاء بأنها تكتب بالدم عن الوطن، وتؤكد ذلك إذ سكبت في مذكراتها قائلة: (صار الطريق معبّداً بقطيرات دمنا وبأشواك المؤامرة).

وُلدت في مدينة القدس سنة ١٩٥١، وتقيم هناك. حصلت على دبلوم التربية من دار المعلمات في رام الله سنة ١٩٧١. ثم نالت بكالوريوس في الأدب العربي، وماجستير في العلوم الإنسانية من معهد الدراسات الآسيوية والأفريقية في القدس سنة ١٩٧٥ ثم ١٩٧٧. وحصلت على دبلوم الدراسات العليا من جامعة الأزهر سنة ١٩٧٦. وماجستير في الدراسات الإنسانية من جامعة (ماكجيل) بكندا. ثم نالت الدكتوراه من جامعة (ماكجيل). وبعد التخرج عادت الى أرض الوطن لتكون عضواً مؤسساً في جامعة القدس، ومحاضرة في جامعة بيرزيت.



من آثارها: (من دمي أكتب، مواقف سياسية)، (الفارس يزف الى الوطن، قصائد نثرية)، (حوار الأسلاك الشائكة)، (أخترت الخطر، شعر)، (صدى الحنين، شعر)، (قضايا عربية في أدب غادة السمان)، (في البدء أنت فلسطين - يوميات الحصار)، (أثر النكبة في أدب سميرة عزام)، (صورة المرأة في أدب غسان كنفاني)، (الأعمال الكاملة باللغة الانجليزية)، وغيرها مما نشرته باللغة الإنجليزية. ولها تحت الطبع: (المرأة رمز وقضية - دراسات نقدية)، (ذاكرة الترف النرجسي، مذكرات)، (فارس الليلك وعيون رابعة، شعر). وقد ترجم مما نشر لها إلى عدة لغات عالمية.

رافقت الرئيس الراحل ياسر عرفات، وشغلت موقع مدير عام لمكتبه، ومستشاراً ثقافياً له. شغلت مواقع كثيرة في العمل العام: عضو المجلس الوطني الفلسطيني. ورئيس العلاقات الدولية في اتحاد الكتاب والأدباء الفلسطينيين. ورئيس فرع فلسطين للرابطة الدولية للقلم. ورئيس فرع فلسطين لمنظمة المرأة العالمية للسلام والحرية. والمستشار الثقافي لمحافظة القدس ووزارة الأعلام. ومؤسس اتحاد الكتاب الفلسطينيين في الأرض المحتلة. ومؤسس للعديد من فروع لفلسطين في المؤسسات الدولية الهامة.. بالإضافة للتدريس في جامعة القدس، وجامعة بيرزيت، وجامعة ماكجيل. وعضو مؤسس في جريدة (الشعب)، وعضو مؤسس في رابطة الصحفيين الفلسطينيين. وعضو المؤتمر القومي العربي. وعضو مؤسس في جامعة القدس، ورئيس الدائرة الثقافية. وعضو مجلس أمناء المجلس العربي في القدس، وعضو استشاري في مجلة المواكب.

التحقت بالثورة الفلسطينية مبكراً، ومثلت الرئيس الراحل ياسر عرفات في المحافل الدولية، والتقت عددا من رؤساء الدول والشخصيات الاعتبارية في العالم. وأسهمت بجولاتها حول العالم في حركة التضامن العالمي لمساندة الرئيس الراحل ياسر عرفات، وللوقوف مع الشعب الفلسطيني وحقه في قضيته الوطنية، وبرز دورها الداعم في فترة حصار الرئيس الراحل بشكل خاص حيث اعتمد عليها لإيصال صوته وبياناته وقضية شعبه إلى خارج حدود فلسطين المحتلة. فإلى حوارنا..

• القدس متقدة في وجدانك كثيراً، ينبئ حرفك عن رباط مخصوص بقداسة تحدّثين عنها وأنتِ القائلة في مذكراتك (ذاكرة الترف النرجسي) أن فلسطين عروس حسناء ألقت ضفائرها على المتوسط. فحدثينا عن القدس.

حين تميط الروح رداءها الحريري، تشرق القدس بنبض القلب وأمواج الطواف، قبلة العشق الموشى بالذاكرة والذكريات، وتبدو عروساً في ثوبها الأبيض الذي يفيض نقاءً، وخطى التجلي في ساحاتها على إيقاع الوله المنسوج من العلاقة الإلهية التي ربطتني بها، والعلاقة الإنسانية والسياسية، وملامح طفولتي وشقاواتي وطوافي في إبداع الخلق، في رحلة العمر الجميل، بمراكب المعرفة والحنين.. على أوتار تماوج شجيرات الدفء في ربوع فلسطين، في توحد العشق الموشى بإشعاع النور، وخطى التجلي.. في تخزين الأشواق في طريق الأشواك، في وعي التجذر، في حلم الفردوس المعبود.

## يتفجر قلمي في هالات خاصة، وأنا أحاول أن أرسم القدس في روحي

لقد احتضنت القدس طفولتي جنيناً، وطفلة استبشرت بعبير الحنان خطى التوجه في درب الوفاء لها، والولاء لأرضها في تألق القمر، وشابة في نقاءات النقاء في التداخل في ثنايا الوطن، وسيدة في رحلة القلم بنصها الوطني.

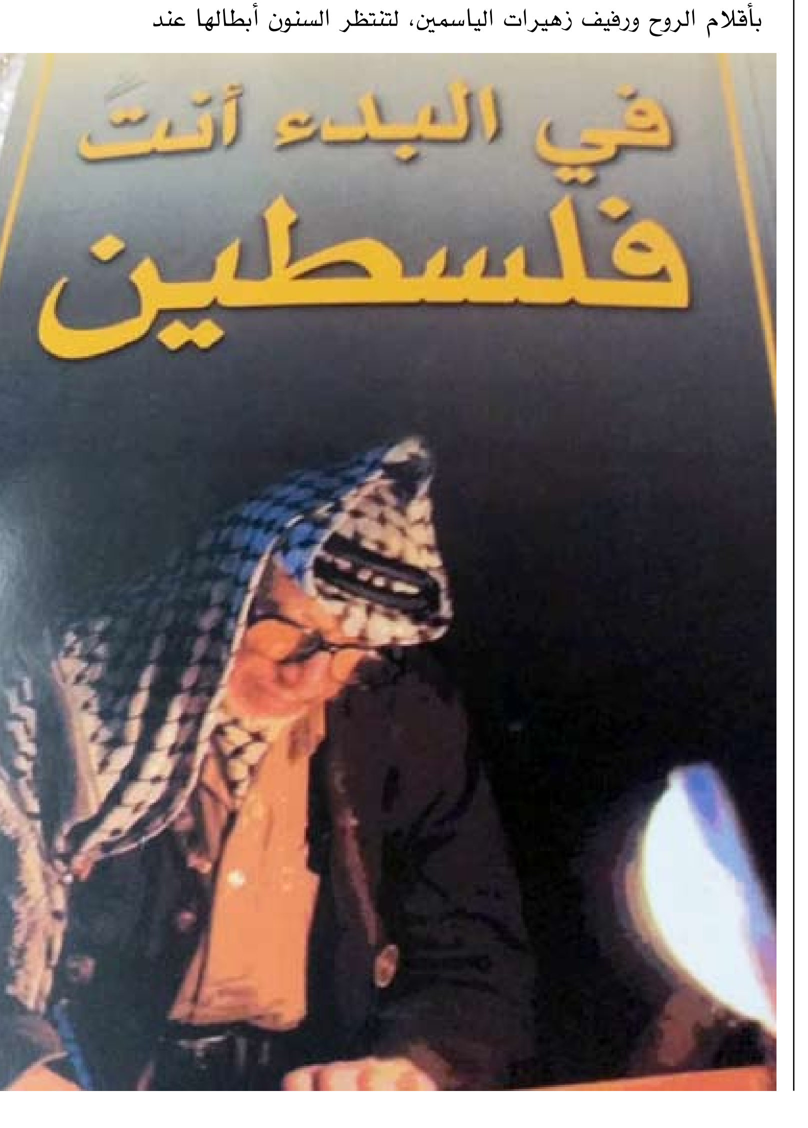
فكيف أصف ملامحها في، وكيف أرسم صورها في تجليات الفرح وفي العذاب، وفي أنهار الدم تسيل في دروب المقصلة، وفي خيوط الكوفية من مدينة النفي اليها... وفي قناديل الروح.

كان البدء طفولة تحلق بأجنحتها، في عيون ترنو إلى والديها بعبور السالك درجات الحب في استعارات المساء، تمضي زمنها المنفي في أسرة الحضور الموشى في دروب الرحلة القريبة البعيدة...

يتفجر قلمي في هالات خاصة، وأنا أحاول أن أرسم القدس في روحي من دمي، لأنقل صوراً عشتها وعاشت معي، في أزقتها وشوارعها، في مدارسها وملاعبها، في المسجد الاقصى وفي الكنائس، في مراكب الحجيج اليها، وضجيج المارة.. في طفولة بكر، وفي الشباب... في رحلة العلم والمعرفة وفي رحلة القلم... وفي تدرج الوعي في الجامعات التي انطلقت إليها من مدينتي... وفي نبض كلماتي على صفحات الصحف الملتزمة.. وفي اجتماعات وطنية في ربوعها.. ومسيرات ومظاهرات، وشهداء يخضبون الثرى في قدسية الموقف.. وأثير الضمير لسجناء الحرية وعبير صبرهم... والإنسان الصابر على أبوابها، يلثم أرضها، ويكتب نصها الأزلي.

وفي غيوم الحرب، وآفاق السلام.. في الانتفاضة المباركة، وتجربة الاعتقال... وفي لحظات عودة الفينيق.. في بناء الدولة ودك الحصون.. في لقاء القائد وفي الوداع....

هذا البهاء المضيء في مدينة السماء، على متن طائر الأشواق، في تجربة درامية ارتقت بها كلماتي عابرة إليها من كل المواقع والجهات. طافت بها بنصوص محكمة التحدي، ورسم الافق الوردي.. تسجل قصصاً كتبت بأقلام الروح ورفيف زهيرات الياسمين، لتنتظر السنون أبطالها عند



تفتح البراعم، وعناق الأرض وموت المستحيل.
القلم يرسم أفقا كونياً للقدس.. بإشارات إلهية.

يا قدس أرضي والفؤاد موجعٌ
والقلب يهفو دائم الخفقان
رمز الخلود لأمة معطاءة
رمز العطاء على مدى الأزمان
يا قدس جرحك جرحنا ونشيدنا
فتسلحي بالصبر والسلوان
إنّا جعلنا بحرنا ورمالنا
ناراً على الأعداء والطغيان...

وفي تقديم لكتابي «من دمي أكتب» قلت:
«أقف على مشارف القدس، تمتد يدي إلى الثرى الخضيب بالعظمة والكبرياء، بهذه الباقة من زفرات الذات التي انطلقت من جوهر الوقائع والحدث، لتعانق الأرض التي ولدت العظماء».
وفي قصيدة أخرى:

يا قدس أرض النار هذا موطني
يجثو على صدر النوى أبنائي..

وتستلهم الروح ارادتها وكبرياءها، ويرتقي القلم ليرسم الملامح النضالية لها في رحلة الدم والحرية كما في هذا النص:

«دثريني يا ساحات الاقصى بنداءات الله أكبر الله أكبر..
دثريني أيتها الجموع المتجمعة في لقاء الله
دثريني،
وامسحي الحزن عن جبيني
ووراي أرقي
وضيعي قلقي
واستحضري روحي
في فضاء الياسمين
إني أتوحد بك
إني أتوحد بك..

وفي مقطع آخر:

«يا انتفاضة الأقصى
يا كل تخزين الانتماء بالفكرة
وبالإرادة الكبرى»...

ولا زال القلم يتحرك في آفاقها، يرسم الجمال الأخاذ بها، ويؤرخ صمودها، في مصابيح التفرد في ساحات الوشم التاريخي، ومواجهة وقائع التكوين، ورسالة العهد والوعد.
وفي كتابي: «ذاكرة الترف النرجسي»، ترى صورة القدس في علاقتها الساحرة بي، في المراحل المختلفة، في فرحها وحزنها. لتتجلى في ديمومة الرؤيا، تسبقني الكلمات اليها أريجاً منثوراً في الزوايا الارتكازية فيها، نصاً أزلياً مترفاً، يعكس جدلية مخزونة في زوايا العشق، وفي آفاق المعرفة، وفي تعريف الذات في مجمل الخطى بنبض الحياة، وتدرجات سلالم الارتقاء.. لتظل فجر الروح المخلد الحضور.
ويحملني الحنين إلى شوق الذات في كينونتها، وفي افتتان النفس في فضاءاتها، بمخزون الانتماء والانحياز إلى ارتقاء الهوى العذري في عروش الذات اليها، لتظل خالدة الجمال، مرفعة.
وفي قصائدي ومنثوراتي اليومية، تعبر القدس عبر عبير الروح، وتتجلى في الأفق الإبداعي بنصوص مركبة الإيقاع في وله الروح لها وبها.
وفي الأبحاث والدراسات، كانت القدس مركزية الحضور...
فأي نص يكتب القدس في رسم التضحيات، وعبور المد الثوري، وعودة الفارس إليها، واختراق الراية الفلسطينية سماءها في رحلة التحرير؟!

**• لنستدعي البدايات من الخطوة ذات الوقع الأول التي رسمت خطاً مستقيماً امتد إلى الآني الذي ما زالت فيه د. حنان بذات ملامح البدايات في المواقف والصوت الهادر: أول مقال لك بجريدة القدس، أوائل انخراطك بحركة المقاومة الفلسطينية، أول لقاء لكِ بالرئيس الراحل ياسر عرفات، وأول ابتعاث لكِ بتكليف شخصي منه.**

حينما ألقي الظلال الدافئة على صور منقوشة في الذاكرة، تنفرج روحي وأعيش لحظات خارقة تمتد في نبض القلب وخطى معارك الحياة وتوهجات المد النضالي، وأعيش اللحظات وكأنها بدء بلهيب الشوق.
كانت الكلمة الملتزمة طريقي المتوج بالعلم والمعرفة، أخذت صياغتها ببراءة الرؤيا أولاً وببساطة المفاهيم، لأعبر فيما بعد بحر الثقافة والوعي وأشدو بحنين الروح والنص المقاتل أنشودة الحياة لفلسطين.



منذ الطفولة، وأنا أشعر بأن في داخلي أمواج تقفز في وتتجاوز عمري... تربيت في بيت عالي الثقافة، فكل ما كنت أسمع من والدي والرجال حوله، يعيش في روحي ويبعث تساؤلاتي..

عشت أحداثاً سياسية فارقة في المد التاريخي الوطني، شكلت في روحي نص عروبتي ونص فلسطينيتي الذي لا يقبل الكسر.

تشدني الأغنية الافتتاحية لصوت العرب «أمجاد يا عرب أمجاد»، وأنا أتابع الانباء مع والدي... وروح القومية العربية التي أطلقها الزعيم جمال عبد الناصر..

تلقيتها وأنا في خدر أمي، وعاشت بي ولم تغادر حتى هذه اللحظات.. فكنت، ورغم صغر سني، أستمع إلى جميع خطب الرئيس جمال عبد الناصر ويأخذني الحماس بصوتي الطفولي، وأتابع بعض التحاليل مع والدي رغم أنني كنت حينها أقرا مجلة «سمير».

وتشدني أغنية «الله أكبر فوق كيد المعتدي» حينما كانت تبث كل بضع دقائق وتشعل بنا روح الحماس والثورة في مقاومة الغزاة، ونضال مصر في العدوان الثلاثي.

وتعصر روحي ثورة الجزائر ونضال الشعب الجزائري «وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر»، لتراني أرددها في المدرسة، حتى وأنا أسير بمفردي كانت تنطلق مني بصفاء الروح... وكذلك السودان في الموقف الوطني ومؤتمرات القمة وروح العروبة.

كل هذه الأحداث شكلت شخصيتي النضالية، وفتحت أمامي آفاق التجلي بحب الوطن، وتعلقي بالعالم العربي بصياغة المقالات التي حملت هذه الرؤيا.

## تعصر روحي ثورة الجزائر ونضال الشعب الجزائري «وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر»

أول مقال كتبته في جريدة القدس بعد أن أتممت شهادة الدراسة الثانوية، كان مقالاً سياسياً يصور الحالة التي وصلنا اليها في ظل الاحتلال وقسوة الظروف.. وحقيقة أنني لا أذكر عنوان المقال، ولكني أتذكر بعض السطور: «صحوت ويا ليتني لم أفعل، كنت في حلم عميق، أرسم خطى المستقبل، لأرى السواد يلف مدينتي»... إلى آخر المقال.. لم يكن المقال طويلاً ولكنه يحمل دلالات كثيرة.. تابعت الكتابة في الجريدة بتحليل كتب هامة كانت تصدر في ذلك الوقت، ومنها كتاب لأستاذي بالتوجيهية الأستاذ محمد أبو شلباية وكان بعنوان: «لا سلام بدون دولة فلسطينية». قرأت الكتاب بتمعن، وأغضبني النص ولم أوار غضبي بالتحليل.. تساءلت: «كيف يتم الحديث عن دولة فلسطينية، وأين فلسطين التاريخية؟!». وفندت جميع النقاط بجرأة سياسية وإبداعية أغضبت أستاذي..

وهكذا سرت في رحلة القلم، وقد اتصل بي السيد محمود بعيش رئيس






تحرير «جريدة الشعب»، مصراً أن يفرد لي عموداً خاصاً يومياً.. ونشرت مقالاتي بعنوان «من دمي أكتب».. وبعد مدة امتدت إليها يد الرقيب المحتل فصادر مقالاتي، ثم طبعتها في كتاب حمل نفس العنوان.. وتابع الشعب الفلسطيني مقالاتي بكل اهتمام وكذلك قادتي في الثورة الفلسطينية.

من هذه التجارب التراكمية والتأسيسية لروح الفكرة الفلسطينية والنضال لأجلها، حينما انطلقت الثورة الفلسطينية، كنت على جاهزية سياسية ومعرفية... التحقت بالثورة بالتقية الاحترازية، وكثفت كلماتي لأجلها، لأن الارتباط بالثورة يعد جريمة إرهابية بنظر المحتل، تستدعي اعتقالاً وتعذيباً لسنوات طويلة.

وظلت مواقفي ومقالاتي بندقية مقاومة ضد الظلم، وكان الرئيس ياسر عرفات يأمر بتوزيعها ونشرها في مجلة «المجلس الوطني». وقد أبدى القائد «خليل الوزير، أبو جهاد» طيب الله ثراه، إعجابه الشديد بما أكتب، وأوصى رئاسة «فلسطين الثورة» بنشر مقالاتي. تابعت الكتابة بقلم حاد ملتزم.. وكذلك النشاط الثقافي والسياسي.. وكنا نرى قادة الثورة عبر الإعلام ومن الصعب جدا اللقاء بهم آنذاك.

أسسنا الاتحاد العام للكتاب والأدباء الفلسطينيين في مدينة القدس، وصرنا على تواصل دائم مع السيد الرئيس ياسر عرفات والقيادة الفلسطينية عبر الهاتف والفاكس آنذاك.. وتابعت القيادة نشاطي وكتاباتي، وكنت أحلم بساعة لقائي بقائد الثورة الفلسطينية.. كلفني الأخ أبو جهاد بعمل جولة في الخليج العربي لإبراز صوت منظمة التحرير، خاصة وقد قامت قوى أخرى بمحاولة نسب انتفاضة الشعب الفلسطيني لها، وقمت بهذا الدور بكل اهتمام.. كانت الانتفاضة صوت منظمة التحرير وصوت الشعب الفلسطيني.. وقد مثلت الأرض المحتلة في مهرجان «المربد» الذي كان ينظم كل عام في بغداد برعاية الرئيس صدام حسين طيب الله ثراه، وبعد انتهاء المهرجان تم ترتيب زيارتي للكويت ودول الخليج..

وفي الكويت التقيت فارس الأمة، واستقبلني بكل حفاوة.. قدمت برامج ثقافية متعددة غطاها الإعلام، وتجمع حولي الصحفيين من كل صوب.. إلى أن أزفت ساعة اللقاء..

كان اللقاء بأضواء الروح، واشتعال أحلام اللقاء، تعجز الكلمات عن وصفه.. استقبلني بحضور الأخ أبو الطيب قائد قوات أمن الرئاسة.. نظر إليّ ونظرت إليه، ثم خاطبته قائلة: «قالت رابعة العدوية وهي تناجي الذات الإلهية:

أحبك حبين

حب الهوى

وحباً لأنك أهل لذاك..

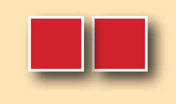
أما أنا فأحبك لثلاث:

حب الوطن

وحب الهوى

وحباً لأنك أهل لذاك...

وقدمت له خارطة فلسطين الذهبية التي كانت على عنقي. اغرورقت عيناه، وامر بإحضار خاتم ماس ألبسني إياه.. وقال لي: «أنت الآن ستمثلينني في المهام الدولية». وأمر حينها بصرف تذاكر السفر والمهام للتوجه إلى الأمم المتحدة.. رفضت استلام النقود قائلة له: «لا أريد مالاً، معي ما يكفي، أريد أن أناضل فقط».. فأجابني: «هذه ثورتك وهي مسؤولة عنك».



## في كتابي «ذاكرة الترف النرجسي» تفاصيل علاقتي بالسيد الرئيس ومهامي ونشاطي

ثم سافرت معه إلى العراق وأماكن أخرى، ومثلته في أصعب الظروف وخاصة أيام الحصار.. وأسست لفلسطين فروعاً لمؤسسات دولية هامة.. وقمت برعايته ومتابعة رسالته بعد رحيله حتى الآن.

وفي كتابي «ذاكرة الترف النرجسي» تفاصيل علاقتي بالسيد الرئيس ومهامي ونشاطي.. وقطعت عهداً على نفسي حين ودعته في المقاطعة مغادراً إلى فرنسا للعلاج، بأن أحافظ عليه وعلى تعليماته وحضوره فينا.



ولا زال حاضراً نصاً خالداً لا يغيب.

كتبت كتاب «يوميات الحصار.. في البدء أنت فلسطين» في حياته عام ٢٠٠٤ وتسلمه مني في احتفال خاص..

كما كتبت ملحمة شعرية بعنوان «من ملحمة الرحيل والعودة.. فارس الليلك يناجي رابعة».. بالإضافة إلى العديد من الأعمال الإبداعية التي تعكس بطولة الفارس والشعب الفلسطيني.

وبعد الرحيل كتبت نصاً مطولاً رثاء له بعنوان: «النص الجهوري.. ايقاع الفراق»..

ثم كتاب: «ذاكرة الترف النرجسي» الذي يروي التاريخ النضالي وحضور السيد الرئيس واشتعال روحه فينا، ورسمت عظمة التاريخ الفلسطيني بحضوره، وتمثيله بالمحافل الدولية ومهرجانات التضامن المشرفة التي قمت بها. ولا زال قلمي يفيض حباً وانتماء.

• مثلتِ فلسطين في جولات حول العالم تطبّعت بالأدبية والسياسية والوطنية والعروبية. سوف نقف معكِ في إحدى هذه الأسفار إلى الجزائر لتأسيس رابطة القلم الجزائري. حدثينا من ذاكرة تلك الأيام.

الحديث عن الرحلة إلى الجزائر، يطلق أضواءها الكاتب العبقري والصديق المميز الطيب صالح.

كانت لي زيارات عديدة للجزائر لتمثيل فلسطين... فقد تم دعوتي من قبل المرصد الوطني لحقوق الإنسان دعوة رسمية ودعوة شرف لاطلاع الجزائريين على تطورات القضية الفلسطينية. وقد تم تنظيم ندوة هامة في القصر الثقافي بحضور الشخصيات السياسية والأدبية وممثلي البعثات الدبلوماسية... وحينما أتحرك باتجاه بلد المليون شهيد والشعب المناضل، أسير بخطى خاصة وروح خاصة، وإطلالة بأمواج تتحرك في قلبي في ذاكرة العظماء.. كان ذلك عام ١٩٩٣، أي بعد إعلان أوسلو.. ويمكن تخيل ردات الفعل آنذاك وعبور الروح مأزق الممكن في ظلال المطلق التاريخي وهو فلسطين التاريخية، وابتداء بجزئية منها جعلت بلد الثائرين تتساءل، فكان لا بد من شرح الظروف وإبراز الحالة الفلسطينية حينها.. والكل يعرف أن هذا الحال قد أصابنا أيضاً، فحين جلست مع شاعرنا الكبير محمود درويش متسائلين عما نحن فيه وما كتبناه عن فلسطين التاريخية، أصابنا الصمت والوجوم ولم نكتب حينها ما يليق.. فقد خفت البريق وانحازت النفس إلى الثورة وإلى المقاومة والحق التاريخي.. وهذا أيضاً حصل مع المفكر الفلسطيني إدوارد سعيد.. تحادثنا وكان غير مرتاح.. وآثرنا الصمت، وقد كتب فيما بعد «غزة.. أريحا» بنبض غاضب.

وفي المحاضرة في القصر الثقافي قدمت ما يليق من نص مبدع وأجبت على عشرات الأسئلة التشكيكية.. ولاقت المحاضرة الإعجاب من الحضور.. شكرني الأخ العزيز عبد الرازق بارة بكلمة هامة، وهو رئيس المرصد الوطني لحقوق الإنسان.. تبعت كلمته كلمة سفير دولة فلسطين في الجزائر الأخ منذر الدجاني.. وكان اللقاء حميمياً.. وعلى إثرها قدم لي الأخ عبد الرازق بارة دعوة أخرى لأكون ضيف الشرف لافتتاح المؤتمر الدولي لحقوق الإنسان.

أما زيارتي الخاصة برابطة القلم فكانت بوميض الروح.

منذ أسست فرع فلسطين للرابطة الدولية للقلم، أخذت على عاتقي وبتكليف رسمي من الرابطة الدولية لتأسيس فروع من الدول العربية، وذلك لتقوية الحضور العربي في هذه الرابطة الدولية والتي تأسست عام ١٩٢٠.

وحيث أن إبراز المد القومي رسالة، وتثبيت اللغة العربية رسالة أخرى، بدأت بتأسيس فروع في الدول العربية المقاومة بدءاً باليمن، ثم الجزائر، وكان هنالك فرع للكتاب المصريين.. وبمعرفتي المعمقة بالرؤيا الدولية في اختيار ممثلي الفروع من الذين يقبلون ملامح الرؤيا الغربية أكثر، لذا صممت أن يكون حضور الجزائر المقاومة لتشكل الجزائر وفلسطين صوت التحدي. كان يحضر المؤتمر عن الجزائر في الكونجرس الدولي الأخ محمد ميقاني.. ولذا رأت رئاسة الرابطة تفعيل الفرع.. وقد تقرر في اجتماعات الكونجرس الدولي، أن يتم تفعيل رابطة القلم الجزائري بعقد لقاء في الجزائر بحضوري وحضور رئيس الرابطة.. وكنت قد مهدت للاجتماع قبل الموعد حيث زرت الجزائر واجتمعت مع الشاعر الميهوبي وآخرين. وكان ضيف الشرف الأديب الطيب صالح الذي افتتح المؤتمر بعذوبة كلماته وتقديره لحضوري من فلسطين من أجل هذا الهدف.. عقد الاجتماع في القصر الثقافي أيضاً، وكان رئيس اتحاد كتاب الجزائر الشاعر المعروف الصديق عز الدين الميهوبي حاضراً، وعدد من الشخصيات الأدبية والسياسية ولفيف من كتاب الجزائر.

قدم رئيس الرابطة كلمة هامة، تبعها كلمتي وأهمية حضور الجزائر في المشهد العالمي، ثم تحدث الميهوبي مرحباً بالوفود..

افتتح الجلسات بأناقة روح وأخوة وبفكر منمق الأديب الطيب صالح، مؤكداً على أهمية الهوية العربية في المحافل الدولية، مثنياً على كلمتي ورؤيتي.. وافتتح باب النقاش الهادف والذي أخذ وقتاً طويلاً.

وقد صادف في نفس الموعد، افتتاح مهرجان الشعر الدولي والذي تعقده رابطة القلم الفلسطيني في فلسطين في اليوم التالي برعاية الرئيس ياسر عرفات، وكان حضوري ملزماً لافتتاح المؤتمر في مدينة القدس بحضور ممثل السيد الرئيس.

لذلك حرصت في الجزائر أن أقدم ما أستطيع قبل المغادرة.. ولما انتهى الحوار، اقتربت من الطيب هامسة في أذنه بأن عليّ أن أذهب وأودع المؤتمر




بكلمة قصيرة.. نظر إليّ وكأنه صدم، وقال لي: «لماذا تتركينا بهذه السرعة؟».. أوقف المؤتمر دقائق، صعدت المنصة وودعت الاصدقاء، ثم عدت إلى المنصة لوداعه وعناقه.. كانت لحظات تجيش بروح الأخوة والصداقة، ولا أدري كيف هطلت دموعي بحرقة وهو أيضاً، وكان وداعاً حميمياً منقوشاً بعظمة الاحترام ولوعة الفراق..

ولم أكن أدري بأن هذا هو اللقاء الأخير مع مبدع بروح السودان أحببته كما أحب السودان، وحينما زرتها بغيابه كان لها وقع آخر...

> **لم أكن أدري بأن هذا هو اللقاء الأخير مع مبدع بروح السودان أحببته كما أحب السودان، وحينما زرتها بغيابه كان لها وقع آخر...**

زرت السودان مرتين بألق الروح، والتقيت بالفعاليات الأدبية والإعلامية.. أحببت أرضها وسماءها وحتى حرها اللاهب، والأهم إنسانها المثقف الذي تشرفت باللقاء به.. فقد التقيت بكوادر الثقافة والإعلام والسياسة هناك، وكانوا صورة حضارية مشعة للسودان.

ومهما اشتدت المؤامرات، ستبقى السودان الصورة الرائعة التي رسمتها في ذهني من عهد الطفولة إلى اكتمال الرؤيا في الاطلاع على ثقافتها والتعرف على رموزها، وزيارتها بحنين الشوق والاكبار.

• ألقيت قصيدتك (وُلدتُ فدائي) في صنعاء التي كنت حاضرةً فيها بدعوة من اتحاد الكتاب والأدباء اليمنيين. فوصفك أحد الكتاب بأنك تكتبين بالدم من أعماقك الملتهبة كما خطوط النار في الوطن المحتل. ووصفك آخر بالزهرة الفلسطينية التي نبتت في ساحة الدماء. قلت في طليعة أبياتها:

الأرض تهتف للرفاق ندائي
فقفوا معي لتحية الشهداء
سيروا على أرض النضال ورددوا
إنّي لأرضي قد وُلدت «فدائي».

إنَ كتبنا أدب المقاومة كعنوان رئيس ماذا يمكن أن نكتب في المساحة تحته؟ الكلمة والرصاصة السجال القديم المتجدّد نجده محتشداً في نصّ وبيان لأنه أدب مقاوم لعنف، لإرهاب واحتلال. فهل يبحث الأدب المقاوِم لاستواء الكفتين في أفق واحد؟

أدب المقاومة عنوان ساحر الدلالات متفجر بالنصوص الملتزمة للوطن وللإنسانية.. وقد أصبح مدرسة هامة يحتذى بها... لقد قدمت أكثر من بحث في أدب المقاومة منها ما نشر باللغتين الإنجليزية والعربية، نشر في دوريات هامة، وهي (الفكرة الفلسطينية بين المحكم والمتشابه – أدب المقاومة).. وكذلك (أدب المقاومة – محكم الفكرة الفلسطينية في إطلالة الشعراء على مدينة القدس).. و(صورة المرأة في الأدب الفلسطيني المقاوم). وهي تدرس بشكل معمق ماهية هذا الأدب وملامحه الإبداعية والموضوعية.

أتوقف الآن أمام وقائع التداخلات السياسية المتعددة التي عاشها الإنسان الفلسطيني بشكل عام، والكاتب الفلسطيني بشكل خاص، لألقي اضاءة نوعية على الأدب الفلسطيني المقاوم، حينما تتصدر الكلمات الملتزمة وقائع المقاومة.

فمنذ توارد النكبات والاحتلال، وفقدان الارض، نبض القلم الفلسطيني بصرخاته الموجهة، والتي تناطح قوى الظلم، وتتصدى لكل شكل من أشكال الاحتلال، وجاء الشعر، ليشكل الرسالة الموجزة أو المعجزة، أو البيان العسكري ذا الايقاع الخاص في المعركة، ليكون ترسيماً وترسيخاً، بأن الكلمة بدء لهدف أسمى، واستراتيجية سياسية، إنسانية وثقافية، ينقل أبعادها الأديب بكل أدواته الإبداعية، مستنداً على أن فلسطين التاريخية محكم الفكرة الفلسطينية، التي لا يشوبها الشك، مهما امتدت يد الاحتلال إليها، لأن التاريخ الفلسطيني متجذر بها، بحلول الروح فيها، ولأجلها، في سالك إشراق الحب الأبدي السرمدي.

وهذه التشكلات الفكرية المستنيرة، تجلت في مفهوم «أدب المقاومة، أدب الثورة»، كما تحدث عنه غسان كنفاني، رجاء النقاش، إحسان عباس، حسين مروة، غالي شكري، محمد دكروب وآخرون من الكتاب والمفكرين الفلسطينيين والعرب وكتاب العالم.

وقد أبدع الادب الفلسطيني الملتزم، ليصبح مدرسة إبداعية، فكرية، نضالية يحتذى بها. وامتدت المقاومة في حضورها ضمن تاريخية الحدث السياسي، واعتبارية ذاكرة الفكرة المقدسة التي أطلقت روح الأقلام الفلسطينية، لتكون قناديل مضيئة، للذود عن الفكرة وحمايتها.

وإذا كانت استراتيجية إنشاء الدولة الفلسطينية المستقلة، تسير ضمن سياسة الممكن، وممكن الممكن، فان الفكرة بقيت مطلقة، عظيمة، مترامية الأطراف والفضاءات.

كما قال الشاعر محمود دروش: «ما أعظم الفكرة وما أصغر الدولة». والأديب هو حامل الفكرة ومبدئها الأول، والمدافع عنها.

وقد اتسعت رؤيا الأدباء بفعل انتماءاتهم، وبلغة الإبداع، لتحمل فيض التعبير عن الأرض، وشكلت عباراتها وتعابيرها الخاصة، الوجود الحتمي والفني، كما نرى في إبداعات الرعيل الأول من الشعراء، عبد الكريم الكرمي، هارون هاشم رشيد، إبراهيم طوقان، عبد الرحيم محمود، فدوى طوقان، حنا أبو حنا، توفيق زياد، يوسف الخطيب وغيرهم.. وتجلت المقاومة تعبيراً ونصاً وموضوعاً في أعمال سميح القاسم حينما قال:

يا عدو الشمس لكن لن اساوم

ولآخر نبض في عروقي

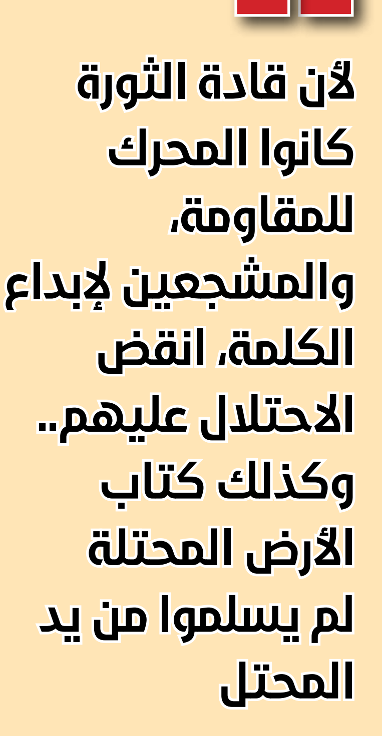
سأقاوم

سأقاوم

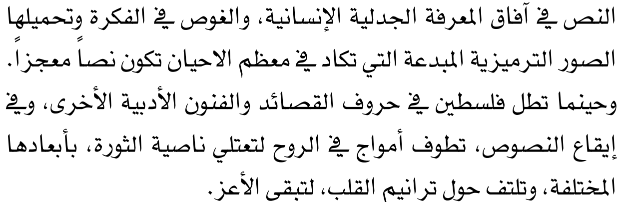
وأقاوم.

وقد ارتقى محمود بالفكر المقاوم، وأطلق عنانه من لغة الشعار، ليحمل





**لأن قادة الثورة كانوا المحرك للمقاومة، والمشجعين لإبداع الكلمة، انقض الاحتلال عليهم.. وكذلك كتاب الأرض المحتلة لم يسلموا من يد المحتل**



النص في آفاق المعرفة الجدلية الإنسانية، والغوص في الفكرة وتحميلها الصور الترميزية المبدعة التي تكاد في معظم الاحيان تكون نصاً معجزاً.

وحينما تطل فلسطين في حروف القصائد والفنون الأدبية الأخرى، وفي إيقاع النصوص، تطوف أمواج في الروح لتعتلي ناصية الثورة، بأبعادها المختلفة، وتلتف حول ترانيم القلب، لتبقى الأعز.

وإطلالة على العشق الأبدي، وتواصلات التاريخ، وهبوب العواصف، ندرك الماهية المرسومة لها في نص الكبرياء الوطني، المنظوم بالوفاء، وفي عمق القلب، واشعاعات ساحرة، تلقي بضوئها على عاشقيها في رحلة السجود، وفي ألق الصمود، وفي عتق الشوق المخزون بها، ولها، في رحلة الحرية والمجد.

وحينما تتصفح دواوين شعراء المقاومة، يبهرك هذا التكثيف الرمزي والواقعي في رحلة التنصيص، وتخصيص الإبداع ليقارب الصورة، ويقترب بها، ويتقرب اليها، معشوقة أبدية، لا يواريها الغياب، ولا يمحو حروفها العذاب.

هي معركة النص المبدع والموقف السياسي.. وفي أدب المقاومة تتداخل الوقائع السياسية، وتتماهى في التعبير عن روح الانسان والوطن ومشتملاته، أرضه، أشجاره، سمائه وقمره المطل وإنسانه المقاتل الذي يحمل أوصاف البطولة والرجولة، وهو محاط بهالات نورانية كما وصفه الشهيد غسان كنفاني. يدور في الآفاق وفي المدن والقرى باحثاً عن العروس «البندقية» الملازمة له في ترحاله ونضاله.

لا يمكن فصل الأدب عن السياسة، ولكن الفوارق تتجلى في الكيفية التي يعبر فيها المبدع عن الطروحات السياسية والمفاهيم الثائرة. ويرتقي الفن المقاوم حينما يسمو على روح الشعار لتتداخل الرؤيا بتصوير فني مبهر، والذي امتاز به محمود درويش... بدءاً من أدب المعركة والهوية في «سجل أنا عربي» وانتهاء بالأعمال الكاملة التي حققت التصوير الإعجازي، والبيان المشع والبلاغة غير العادية، حتى وأنا أقرأه ثانية وثالثة أغوص في أعمال النص، لألتقي بصور مبدعة غير مكررة تحسب له، تكتشفها في كل قراءة وفي كل إطلالة روحية وفكرية، هذا بالإضافة إلى روح الإنسان في أدب المقاومة والتي تفوقت في صورها لتصل مدى بعيداً في روح الانسان واحترام القيم الإنسانية العليا..

وكما الشعر، كانت القصة والرواية والسير والفنون الأخرى التي ارتقت بنصوصها لتحمل تاريخ معاناة الشعب الفلسطيني وتاريخه..

ومن أجل قيمة الكلمة المقاومة، امتدت يد الغاصب لرموز الكلمة، لتغتال الكاتب المناضل المبدع غسان كنفاني، وكذلك ماجد أبو شرار، كمال ناصر، كمال عدوان، يوسف النجار وآخرون..

ولأن قادة الثورة كانوا المحرك للمقاومة، والمشجعين لإبداع الكلمة، انقض الاحتلال عليهم.. وكذلك كتاب الأرض المحتلة لم يسلموا من يد المحتل، ولا أبالغ حين أقول: «ما من كاتب ملتزم إلا وواجه الاعتقال والإقامات الجبرية ومنع السفر.. ولا زلنا حتى الآن وكما قال الشاعر الكبير نزار قباني: «إن أدب المقاومة هو أشرف ظاهرة في العصر الحديث».

والحديث عن أدب المقاومة والنماذج التي تمثله لا يتسع له المجال هنا، وما قدمته ملخصاً تقديمياً فأدب المقاومة يحتاج إلى تفصيل الرحلة

الكفاحية الهامة.

• قمتِ بأسفار كثيرة ومرهقة في مرحلة صعبة كُبلت فيها القيادة الفلسطينية ممثلة بشخص الرئيس الراحل ياسر عرفات بحصار جائر، فكنت نائبة عنه لتخطّي الحصار، ومبعوثة منه برسائل وبيانات إلى رؤساء ومؤتمرات في مختلف دول العالم. حّدثينا عن تلك الأسفار وما حققته تلكم النداءات عبر القارات.

العلاقة مع العالم في ظل الثورة الفلسطينية وفي ظل الحصار أخذت مناحي عديدة وآفاق ممتدة، عبرنا بها بفلسطين الأرض والإنسان، قدمنا القضية بثوبها المخاط بالتضحيات.. قطعنا المسافات البعيدة والقريبة حاملين روح الوطن وتجلياته.

فمنذ التحاقي بالثورة الفلسطينية مثلت فلسطين على الصعيد الدولي في محاور عديدة، سياسية، أدبية، اجتماعية، ورسمية في اللقاء مع الرؤساء ورجالات الدول... بعضها كان مع السيد الرئيس، كاللقاء مع تشاوشيسكو في رومانيا، ومع نيلسون مانديلا في جنوب أفريقيا، ومع صدام حسين في العراق، ومع علي عبد الله صالح في اليمن، ومواقع أخرى عديدة.

وهنالك الأسفار التمثيلية التي قمت بتمثيل فلسطين بها على أكثر من صعيد، طفت العالم رافعة صوت فلسطين حتى في الأماكن النائية.

والأسفار في تمثيل فلسطين من خلال المنظمات التي أرأسها، وهي رابطة القلم الفلسطينية ومنظمة المرأة العالمية للسلام والحرية، وهذه فروع رسمية لفلسطين، كل منظمة تعقد اجتماعات عديدة في أماكن مختلفة من العالم...

والأسفار التكريمية في نيل الجوائز التقديرية من أماكن عديدة، حيث كنت ضيف شرف للعديد من المؤتمرات الدولية الهامة، وقد حصلت على عدة جوائز أدبية ودكتوراه فخرية وميداليات تقديرية من عدة جامعات..

ثم السفر إلى إسبانيا عدة مرات للإعداد للدكتوراه الفخرية للسيد الرئيس..

مثلت فلسطين بما يزيد عن سبعمائة مؤتمر دولي وعربي.. وازدادت كثافة التمثيل خلال الحصار.. فقد أوفدني الرئيس الراحل -طيب الله ثراه- لعدة أماكن في العالم، منها جمهورية مالي لافتتاح النصب التذكاري لمدينة القدس واللقاء مع الرئيس عمر كوناري وتسليمه رسالة من السيد الرئيس، وكذلك إلى البرتغال للمشاركة في مهرجان أفانتي التضامني مع فلسطين واللقاء مع الأحزاب اليسارية ورؤسائها، وإلى كوبا للقاء مع كاسترو، وأماكن متعددة في أمريكا اللاتينية...

وقد اشتدت كثافة العمل أثناء الحصار، وشعرت أن عليّ تكثيف الجهود في محاولات رفع الحصار والاتصال بالعالم رسمياً وشعبياً..

إضافة إلى ما كلفني به الرئيس، رتبت عدداً من اللقاءات الدولية التضامنية مع السيد الرئيس، ومنها اللقاء التضامني الذي نظمته في استراليا.. حضرت إلى الرئيس وأعلمته بخطة سفري إلى استراليا، نظر إليّ بدهشة قائلاً: «إنها بعيدة عليك والظرف صعب»، فأجبته: «لا بد». وسافرت إلى استراليا وعقدت مهرجان التضامن الحاشد، ثم صممت على العودة خلال يومين، فاستهجن سفير فلسطين ذلك قائلاً: «تأتين إلى استراليا ليومين فقط بعد قطع كل المسافات». أجبته: «لا وقت للبقاء والرئيس محاصر».

غادرت استراليا وعدت إلى المقاطعة للقاء بالرئيس، كان يوم عيد الأضحى، صدم الرئيس لحضوري بهذه السرعة، نادى رجالاته وشرح لهم الخطوة بخيلاء.

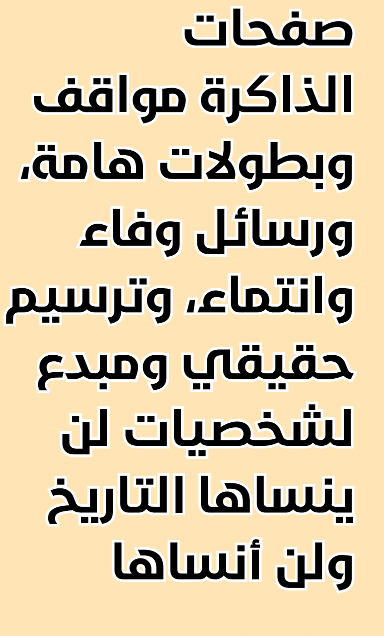
ثم تابعت عقد مهرجانات التضامن بالتعاون مع الشخصيات الأدبية بما فيها الكتاب الحاصلين على جائزة نوبل.











تختمر في صفحات الذاكرة مواقف وبطولات هامة، ورسائل وفاء وانتماء، وترسيم حقيقي ومبدع لشخصيات لن ينساها التاريخ ولن أنساها



• ذاكرة الترف النرجسي، عنوان رائق لمذكرات شاعرة وكاتبة وسياسية مناضلة. من يتصفح أوراقها يجد أنها ليست توثيقاً لحياة فقط. وإنما فيها مساحة لتأملات فلسفية لكِ في ذاتك وفي المحيط بها. ما الذي تمثله لكِ تلك الذاكرة وموضوعات أدرَاجها من رسائل.

الذاكرة تحفل بمساحات امتداد حياتية، سياسية، ثقافية وإنسانية ومحاولة استحضار أحداثها المنقوشة في الذهن وفي الروح، في محاولة تجريبية في بعث الرؤيا من جديد، والإطلالة على الذات بآفاقها المتعددة، ولا أراها تجربة سهلة.

لقد اطلعت على العديد من كتب السيرة الذاتية، فوجدت أن كل أديب يأخذ منحى خاصاً سواء كان سياسياً، أو إبداعياً أو اجتماعياً.. وشعرت بجمالية البوح في حضور روح الحدث...

ولما بدأت بالكتابة، شعرت أنني أعبر عوالم شائكة ومتداخلة الحضور، وأخذ قلمي على وقع الروح والضمير، يمتد بإسهاب، حتى أنني في بعض الاحيان لم استطع إيقافه ولا مجاراته. كان يسبقني بخطاه ويشدني إلى السير معه بنبض كل دقيقة.. فقد عبر بي إلى الطفولة والشباب والدراسة والوطن والثقافة والجوانب النضالية والإنسانية التي طوقت روحي وطافت بها في آفاق متعددة الألوان والصور... ورغم كثافتها، فاجأتني بالحضور المكثف، حينما كان ذهني ينقل تفاصيل البوح، وكأنه يتسع كالبحر وإطلالة الفجر.. فسرت معه محملة بأمانة التصوير ونقل الحدث بواقعيته، مضيفة إليه الأبعاد الفنية التي تليق بالنصوص، بدءاً من الإهداء إلى أمداء فلسطين، والسير مع فلسطين بإعجازها البدء التي حملتها معي في نبضي الدائم.. وفي رؤيا الطواف في زمن لم يأت بعد..

وحينما ابتدأت التساؤلات في الكلمة الأولى وعلاقتها بمفهوم ورؤيا الشاعر، اتبعتها بالكلمة الأخيرة التي ترسم تخيل الميلاد والتوق إلى الحياة، لتتبعها تساؤلات أخرى تستدعي الجواب والذي يظهر في الفصول التي تلي..

والذاكرة.. والترف النرجسي، هو رؤيا الذات المعززة المدللة في سياقات متعددة ومختلفة الحضور، بدءاً بالميلاد والعلاقة بالأهل، ثم توهج روح المعرفة التدرجي في أزمانه المتعددة، في المدرسة، الجامعة، الثورة ونص الحياة الشخصي والإبداعي بحضور أشخاص كثيرين احترمتهم، وأحداث عديدة سرت بها، ومواقف كثيرة كنت بطلتها محملة برسائل العشق الصوفي للوطن والانسان.

تختمر في صفحات الذاكرة مواقف وبطولات هامة، ورسائل وفاء وانتماء، وترسيم حقيقي ومبدع لشخصيات لن ينساها التاريخ ولن أنساها..

وكان محور الذاكرة هو ألق الروح في رحلة الطواف في عمق حب الأنبياء الذي ربطني بالرئيس ياسر عرفات وقيادتي الفلسطينية التي أعتز بها، وأشعر كلما أعدت قراءتها ثانية، بالقدسية والسمو الملائكي، في معنى التضحية والنضال والحب المتسامي.. ومعنى أن تكون محور ثقة القيادة، ومعنى أن تكون كاتباً في ألق الثورة، وأن تكون كلماتك داعمة لثورتك، واقفة بقوة في وجه الظلم...

معنى أن تكون كلماتك سيفاً مسلولاً وبندقية مجهزة الزناد، ومعنى أن تطل على الكلمة الملتزمة لتكون الزاد للروح الثائرة، ومعنى أن تحلق في آفاق العالم حاملاً رسالة الكبرياء.. كل هذا بالصور التعبيرية والفنية التي ترسم حضورها الزمنى بعتق الثورة والإنسانية والشخوص التي

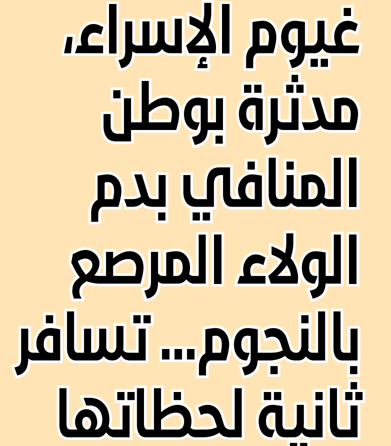
التقيتها في كل مرحلة.. وتنير سطورها ذاكرة العظام الرئيس ياسر عرفات، القائد أبو جهاد وعدد غير قليل من رجالات الثورة الفلسطينية الذين أعتز بهم..

واللقاء بالشخصيات الإبداعية والسياسية لا يمكن حصره، ولكنني بقدر ما أستطيع حاولت إعطاء الكل حقه في الرواية الواقعية.

قصص كثيرة تراها في السيرة، قناديل روحية تنطلق من نافذة العمر مشكاة في الأعلى في النص، وأحداث معذبة، خاصة أيام الحصار، والكتابة عنها كان بمداد الروح والجرح المفتوح، لنعبر تاريخنا النضالي بوعي وجداني انبثاقي من الفكرة الخالدة التي لا تغيب –فلسطين والإنسان.

وكذلك الإبحار في المواقع المتعددة، في الدول العربية ودول العالم، وفي كل موقع ذكرى وأشخاص أعتز بهم، وكلمات تطوف إليهم في زمن فلسطين إلى أبعد القارات، وعودة إلى المسافات لتمتد في آفاق يصعب حصرها.. تحديات كبرى وقرارات.. جوائز وتكريمات.. جزر بعيدة... وبحار، جبال وأنهار وغابات.. مدن ينتشر منها العشق والانتماء والوفاء.. من القدس سيدة الحضور، إلى القاهرة، إلى بغداد، إلى الكويت، إلى الجزائر، إلى المغرب العربي، إلى اليمن، إلى تونس، إلى عمان، إلى البحرين، إلى سوريا وإلى لبنان، إلى السودان في طريق العبور من الأردن.. وإلى جميع أنحاء العالم.

مهرجانات ضخمة تشعل الثورة، ولقاءات فكرية ترسخ في الوجدان، وعذوبة الألحان وصفاء الروح في رحلة التأمل.






قصص وذكريات، إطلالات نضالية وابداعية وحضور إنساني، ولحن بعبير الروح، ورؤى فلسفية ولدتها التجربة النظرية والفعلية، والرؤيا التساؤلية في معنى الكون والوجود، وتعريف الذات، وفلسفة الحضور، وكيف تكون الإجابات في الرحلة، وتحديد الكينونة الشخصية وانتشارها الزمني والعلاقة الديناميكية في المواقع والأحداث، ودراسة وقائع النفس وتجلياتها ليكون السؤال من أنا؟ وكيف جئت إلى هناك؟ لتلقى الجواب تفصيلياً في الخاتمة بعنوان «خاتمة البدء»، والتي تحمل الآفاق الفلسفية في حوار الذات، والاعتراف بعذوبة النرجس الذي كان شجرة باسقة لتحيا في سفر تكوين فلسطين.

هذا شيء مما حمل في سطوره كتابي «ذاكرة الترف النرجسي»، وهو إبداع السماء في موهبة العاشق المبدع، وهو يصوغ كلماته بشذور الشوق والاكتحال بجمال فلسطين، والجمال الأخاذ لروح الإنسان الثائر والمناضل والإنسان المبدع في اشتعال الروح في الخلق الإلهي للكلمة المبدعة التي تحمل دلالاتها في روح المتلقي لترتسم أمامه قدسية الروح العاشقة والثائرة في مراكب العبور آفاق الصعب، وفي الدفاع عن الهوية، نصاً لا يقبل التأويل...

لذا ترى هذا التداخل التكاملي في النصوص، ما بين رحلة واقعية، إلى سفر تأملي، وإلى نهج فلسفي، وإلى روح تحدي.. مرسومة بنصوص شعرية ونثرية بلغة الترميز ولغة المباشرة أحياناً..

تمثل هذه الذاكرة لي وهج الروح في نبض الحياة، وتاريخ إنساني ربطني بالكون وبنقاء الفكرة وقادة الثورة.. ليكون سجلاً خالداً خلود الروح، يلقي بمعلومات معرفية هامة، ودلالات اعتبارية من وجه تاريخنا الناصع، ورجالاتنا الفدائيين والمبدعين الذين نفتخر بهم ونسير على هديهم..

وهنالك أهمية خاصة لهذا الكتاب وما به من معلومات، تكمن في وجوب التواتر المعرفي للأجيال القادمة للاطلاع على تاريخية الثورة ورموزها.. وصورة النضال في الرحلة الكبرى، والتضحيات التي قام بها شعبنا وقيادته، وهي تستحق التسطير.

وفي الختام: ذاكرة الترف النرجسي هو أنا في الرحلة التي ابتدأت بصرخة ميلاد، ورحلة «السالك» في فضاءات الصعود إلى المطلق من خلال ترانيم الممكن.

وصياغة لحظات الحياة في قصائد عشق منظومة الايقاع.

قدسية آتية من غيوم الإسراء، مدثرة بوطن المنافي بدم الولاء المرصع بالنجوم... تسافر ثانية لحظاتها إليها، وتستعيد خلقها المتجدد، ونبضها المبعوث من جديد، ببحر الحياة الوليد في ربيع الأقحوان وخيوط الكوفية والقسم.

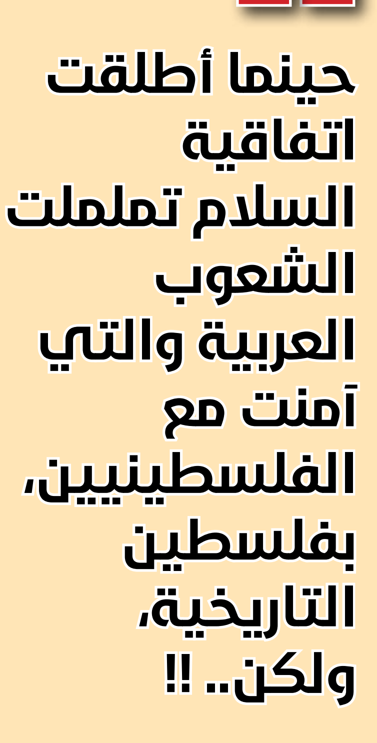
**• انحسرت قضية فلسطين من الساحة الثقافية والسياسية معاً بعد أيام كانت فيها سوح الأدباء والساسة منابر تساير التيارات التي كانت تتخّذ التوجه العروبي أيدولوجيا لها. وبعدها توافقت خطوط المواجهة الداعمة لقضية فلسطين على مخططات سلام والتفتت الأنظار لاحقاً إلى مواطن في الجسد العربي أُثخنت أيضاً؛ بمعنى أن القضية صارت بجانبها قضايا وقضايا. ومع موجة الحداثة الثقافية صار من العادي أن نسمع من يصف موضوعة فلسطين بأنها ثيمة نصيّة بعد أن كانت مضموناً أدبياً يعبر عن توجه أممي عروبي شامل. ما هو تقديرك لهذه التحوّلات؟**

منذ انطلقت الثورة الفلسطينية وتأسست منظمة التحرير الفلسطينية لتكون الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني، ارتقى الفكر الثوري وجذب الشعوب العربية المناضلة التي ساندت ثورتنا، بدءاً بالكويت التي انطلقت الثورة منها وساندت الثورة على مدى الأزمان.. وباقي الدول العربية. وكان شعارنا «الثورة الفلسطينية فلسطينية الوجه، عربية العمق، عالمية الأبعاد» وكانت مواقف الشعوب العربية والدول العربية محكماً لا يصيبها الشك نصاً وفعلاً..

الجزائر رددت وتردد «نحن مع فلسطين ظالمة أو مظلومة»، واستمر حتى هذه اللحظات، ولبنان وتونس احتضنت الثورة الفلسطينية، والعراق










والسودان التي أعلنت لاءاتها الثلاث التي لا زال العدو الصهيوني يرددها، وشكلت في وجدانه قلقاً معذباً.. هذا إلى الاجتماعات الكثيرة التي كانت السودان العربية العروبية تنظمها بروح الانتماء والموقف الصلب، وتحتضن أبناء فلسطين، ويلتقي ويرتقي أدباء السودان بها، ومعها.

وحلقت الثورة في آفاق العالم بفعل دعم الدول العربية ومواقفهم في الأمم المتحدة ومجلس الأمن، وجلسات مجالس حقوق الانسان.

وأهم المؤتمرات المنصوصة التاريخ عقدت في الدول العربية.. وكلما تعرضت فلسطين لأية محنة، كانت الشعوب العربية تهب هبة رجل واحد.

وكانت الكلمة الملتزمة هي الطريق الأعلى التي تغني الوجدان العربي، وانطلق «أدب المقاومة» بنصوصه التثويرية ليكون أشرف ظاهرة كما قال الشاعر نزار قباني.

وسايرت الكلمة الملتزمة طريق النضال الفلسطيني ووقع خطى المعارك، وجاءت النصوص العربية المقاومة والدراسات الهامة حالة تعبوية، حتى أن الشاعر الكبير محمود درويش قال: «ارحمونا من هذا الحب القاسي»، والذي يعني به أنه، ونظراً لحبهم لفلسطين، شجعوا كثيراً من النصوص والتي كانت تخلو من المستوى الإبداعي، ولكنها تذكر المقاومة وفلسطين لتكون مزكاة...

وحينما أطلقت اتفاقية السلام تململت الشعوب العربية والتي آمنت مع الفلسطينيين، بفلسطين التاريخية، ولكن، ونظراً لاعتبارية احترامها لفلسطين وللرئيس الشهيد ياسر عرفات، أعلنت: «إننا نقف مع ما يقرره الفلسطينيون»..

واستمر الدعم ولم يتوقف، إلى أن كثف الاستعمار مؤامراته في محاولة تحويل العالم العربي وإدخاله في سياسة السلام لحماية دولة الاحتلال. فكانت ثورات الربيع العربي الكارثي، المرسومة بريشة الولايات المتحدة، تحت شعار الحرية والديمقراطية، وأخرج للعلن شخصيات قيادية مشبوهة، وتشكلت قوى عسكرية تدميرية، كانت نتائجها تدمير وتقسيم العراق، ومحاولة تقسيم سوريا وليبيا ولا زال المخطط التدميري يسير بقوة برعاية الرئيس ترامب الذي أراد تدمير العروبة والقضية الفلسطينية بإهداء مدينة القدس لتكون هدية للمحتل، وإهداء هضبة الجولان أيضاً، وغيرها من محاولات تغييب النص العروبي والقومي.

لذا انشغلت الدول العربية بمشاكلها القاسية في رحلة ألم، وكانت الأولوية للظرف الخاص، خاصة بعد رحلات اللجوء والتشرد.. ولكن رغم ذلك، لم نعدم صوتها، وإن كان ليس بذات القوة.. هذا من جانب، فحينما كانت ثورتنا أفقاً نضالياً شامخاً وشاملاً، كان الجميع معنا، وحينما دخلنا في اتفاق السلام والذي لم يحقق السلام، بل زاد سرقة الأرض وسياسة التمييز العنصري والقتل والتدمير.. خف الصوت المساند..

وبقيت الضغوط العربية على القيادة الفلسطينية بتقديم خطوات أخرى من أجل السلام..

وكما قام الأدباء بعد هزيمة السابع والستين في كتابات جلد الذات والوجوم، والروح التي عمها السواد، سار الوضع بذات الاتجاه من نقد ونقد الذات.

تكاثفت المؤامرة على شعبنا، وازدادت التضحيات وانفجر الألم.. ثم حدث

الانقسام الذي حمل القضية الفلسطينية إلى ساحات الظلام.

ومن أجل كل هذا، جاءت الكلمات العربية نصاً كما صورته، وليس كما كانت سابق، نصاً وفكراً وارادة تحرير.. ولكن لا زال هنالك أقلام حرة وملتزمة تمنح من روح الإبداع لفلسطين.

إن روح الأدباء وشعوبنا لم تنس فلسطين، بل أنها تعيش في العمق، ولكنها تحتاج إلى موقف تثويري وطني ليشعل نارها من جديد.. ولا أعتقد أنها تتوقف رغم هرولة الحكام.

• من اللافت إلى قصيدة (في القدس) لشاعر القدس والزيتون تميم البرغوثي أنه قد كتبها بعد أن ردّته قوات الاحتلال عن زيارة مدينة القدس فرجع إلى رام الله متذيّلاً بالحسرة على عدم رؤيتها؛ فكانت القصيدة وليدة الموقف، يصف القدس كأنه فيها. هل عبّرت الصور الشعرية المتخيّلة في القصيدة عن القدس التي نشأت وتعلّقت به؟

لم يمنع الشاعر الشاب تميم البرغوثي من دخول القدس فقط، وإنما منع من عبورها الكتاب جميعاً، فبعد أن كانت القدس مركزية الثورة كما اسلفت سابقاً، صارت حواجزها سداً منيعاً أمام عبور أهلها وعبور شعرائها وأدبائها، وحتى الذين يقدمون الولاء لله بزيارة المسجد الأقصى. وقد استطاع الشاعر تميم وصفها بتفاصيلها بأسلوب مبدع.

ولذا تألقت القدس في روح الشعراء وامتد ألقها من عمق المشاعر، بفيض الروح في وجدانهم، من عرفها عن قرب وعاش بها، واستحضر الذاكرة في إبداعية جمالها الأخاذ، ومن لم يعش بها، واستشرف حضورها الذهني، وطاف بها بكلماته وأشواقه بإيقاع التجلي، لتكون عروس الكبرياء الوطني والحلم الراسخ في الفؤاد. ومن رسمها في حلم العودة، وسالت دموعه أنهاراً في البحث عنها، وارادة تخليصها من أنياب المحتل، في حضور إيقاعي، برسم صورها، وتجسيد ملامحها، كما برزت في أعمال عدد كبير من شعرائنا المبدعين، في إبداعية الخلق الإلهي والقدسي، لتظل عصية على الانكسار والغياب، ولتشكل صورة متفردة للمدينة، ضمن محاور إبداع صورة الوطن الأشمل – فلسطين التاريخية، في ملامحها الوجودية الجمالية والنضالية لتكون قلب الوطن النابض.

وقد ارتقت القدس اسماً وتاريخاً وواقعاً، وبرزت في أعمال الشعراء بأسمائها المتعددة، وملامحها المتجددة، وحازت على لغة الحضور المتوج بنبض اسمها، وعنواناً لدواوين ارتبطت بها، وملامح خاصة زينت وجه التاريخ، بنور قناديلها، وشموخ أسوارها، وإبداعات مثقفيها ومناضليها..

وقد تحدثت عن هذا الموضوع بإسهاب في دراستي «صورة القدس في عيون الشعراء».. وسأقتبس لأهم ما جاء فيها لأنها تعطي إضاءات على السؤال المطروح.

فبدءاً مما كتبه شعراء الرعيل الأول وشعراء المقاومة والشعراء العرب كأمل دنقل ونزار قباني وآخرون، واستحضاراً لإبداعات توفيق زياد، سميح القاسم، أحمد دحبور، وآخرون. وانتقاءً للصور التعبيرية الخاصة التي رسمها الشاعر الكبير محمود درويش بإبداع فني وصور تعبيرية مميزة، تعيش فيها رحلة اثيرية واقعية بتجليات الروح.

وأتوقف الآن أمام ما كتبه الشاعر الكبير «أدونيس» عن القدس في كتابه



**لم يمنع الشاعر الشاب تميم البرغوثي من دخول القدس فقط، وإنما منع من عبورها أيضاً**



«كونشيرتو القدس»، بلغة خاصة ومضمون خاص، تشعر أنك تدخل عالماً آخر، ورؤيا جديدة في رسم القدس، وعلاقاتها التاريخية والتوحيدية، والتوجه إلى السماء، بعلاقاتها في المدينة، ليرى القدس حرة من خيوط الصراع. «متى ينتهي تاريخك يا جارية السماء».

كانت الرحلة في النصوص الرائعة، والتعمق بها، وقراءة ما بين السطور، تحمل أدوات حضورها في آفاق تتشابه في النص وفي الرمز وفي المعنى، وتختلف أو تتقارب في مبنى القصيد.

ونحن نقرأ النصوص، مربوطة في الزمان والمكان، وما عبرت من أحداث، ترتقي الهوية الوطنية.. ولكن، ونحن نعيش آفاق واقع آخر، نستشعر الفجوة ما بين لغة القصائد التي تحمل نقاء الفكرة، ولغة المقاومة، وما بين واقع مر. لنرى مصطلحات سياسية تعبر نصوصنا، وأصبحت القدس تقاسيم، فحينما نتحدث عن القدس، نستشرف حضورها فينا نصاً متكاملاً، لا شرقية ولا غربية، وحينما رسمنا أسوارها، مآذنها، كنائسها، كانت أيقونة الوجود.. والآن تغير شكل الاسوار، واقتحمت الكنائس والمساجد، وتغير شكل المدينة. فكيف سيكون النص؟ وكيف يصير النص وبأي إيقاع؟.

وحتما إننا كشعراء مقصرون في هذه المرحلة.. لأن الشعر رسالة الحرية، ولا بد للشعراء من رسم حالة، وخلق تغيير.

«والدولة التي لا يؤثر فيها نص شاعرها عليها أن تراجع نفسها».

فماذا فعلنا في هذه المرحلة؟ وكيف واجهنا السياسات التي تفرض علينا؟.

حتما هناك نص غائب في وصف المدينة، نص شمولي وعربي يرتقي بالحالة الفلسطينية في القدس، لما تحمل من آفاق على جانب كبير من الأهمية، لكي ينقش المبدع تاريخية القصة النضالية التكاملية والفنية، بروح المبدع والفنان، لأن الشاعر ليس منظراً سياسياً ولا مؤرخاً، كما أشار أنجلز، بل هو مبدع، ناقل لواقع موضوعي، مرتق إلى مستوى التفاعل والارتقاء الفني ليليق بالفكرة.

ومن هنا تتصدر الفكرة المشهد الإبداعي، بكونها إضاءة وعي الواقع، وهي النبوءة والامتدادات في فضاءات ومساحات المستقبل، واستشراف التطبيق السياسي والاجتماعي لها، بفعل استعادة تشكيلية خلاقة، بمدى تنفيذي للعدالة.

وماذا نكتب الآن، حينما يكون الوطن معلقاً على مشانق الجزار؟.

وكيف نصيغ الحلم للقدس، والعودة إلى فلسطين، أمام كل هذه المؤامرات المحاكة ضدنا؟.

وكيف نواجه خطة ترامب في تقديم القدس هبة للمحتل؟.

وأي عشق يلتف في أعناقنا وينبض في قلوبنا، ونحن نسمع صرخة القدس من بعيد، ولا نحرك ساكناً؟.

أي حق يسير إلينا، ونحن نغفو على عتبات القرار السياسي المنقول، ونتوارى خلف الشعار ونسدل الستار؟.

وما هو النص المعجز الذي يليق بمدينة القدس وقد صمتت المآذن، ومررت حجارة الشطرنج؟.

وكيف سنقاوم المخطط، والخط البياني يرفع إلى قمة تسويق المخطط ببريق الوعد؟.

وماذا يمكن أن يكتب في زمن القراءة الشائكة، وتداخل الأفكار واشتباك القيم؟.

تساؤلات كبرى في ملحمة الوجود الفلسطيني، وفي النص الإبداعي المقاوم، وكيفية تشكل حضوره في الولوج الاحتلالي لشرايين المدينة.

لا بد من كتابة إعجازية، ونص معجز ولغة ثائرة وإيقاع، وموقف إبداعي متسام يعلن الرفض بصوت جهوري، دون خوف ولا وجل، وإلا سنذوق مرارة الوداع، وحني الهامة للريح، وتباريح للنص المفقود.

«آه فلسطين

يا اسم التراب

ويا اسم السماء

ستنتصرين

ستنتصرين».

> **ماذا يمكن أن يكتب في زمن القراءة الشائكة، وتداخل الأفكار واشتباك القيم؟**



محمود درويش

• قبل عامين أطلقت اللجنة الوطنية للقدس عاصمة دائمة للثقافة العربية، في متحف ياسر عرفات، كتاب (مقدسيون صنعوا تاريخاً) لمؤلفيه عزيز محمود العصا، ود. عماد عفيف الخطيب. وثقا فيه لعشر شخصيات حملت على عاتقها واجب الدفاع عن القدس. وهذا يقودنا إلى ذكر شخصية الشيخ رائد صلاح الملقّب بشيخ الأقصى والذي أشتهر بمواقفه في الدفاع عن المسجد الأقصى وبكشفه عن قيام المحتل بالحفريات تحت المسجد. من هي الشخصيات المقدسية المؤثرة الأكثر حضوراً في مشهد القدس الآن.

«مقدسيون صنعوا تاريخا»، كتاب هام يطل على عدد من الشخصيات المقدسية التي حملت على عاتقها واجب الدفاع عن القدس.

والحديث عن مدينة القدس وشخصياتها الوطنية، يوقفنا أمام حقائق هامة وتفسيرية للواقع القيادي للمدينة في المرحلة الراهنة.

فالقدس في زمن الانتفاضة، كانت هي العاصمة الحقيقية للمدينة، بفعالياتها الهامة ونشاطها الموجه والموحد في فلسطين جميعها، وقيادتها المشتركة من رؤساء الأحزاب والحركات السياسية. حيث قمنا بفعاليات أدبية وسياسية هامة، وكان اتصالنا الدائم مع السيد الرئيس ياسر عرفات.

وقد عقدنا مهرجانات ثقافية وسياسية هامة شارك بها الكل الفلسطيني من جميع المواقع الفلسطينية، من فلسطين التاريخية، من غزة ومن الضفة. وكانت الفعاليات تضم جماهير حاشدة. ومن أهم المهرجانات، «مهرجان القدس» الذي نظمه السيد صالح برانسي رئيس «حركة الأرض»، وبالتعاون مع حركة أبناء البلد، اتحاد الكتاب والعديد من النقابات، ومجلة «المواكب» التي تصدر في الناصرة، والعديد من المؤسسات الإبداعية والثقافية، منها والمكتب الإعلامي الفلسطيني الذي يرأسه إبراهيم قراعين، والذي قام بدور إعلامي مميز، وكذلك رابطة الصحفيين الفلسطينيين، برئاسة الأخ رضوان أبو عياش، والأخ الدكتور أنيس القاق – رئيس إدارة المسرح الوطني.

## أنا كنت أقود الساحة في مدينة القدس، بتعليمات السيد الرئيس، وكان معي طاقم مميز من الشخصيات الاعتبارية

وكذلك المهرجان التضامني مع العراق وهو بعنوان «عام على حرب الخليج»، والذي نظمته شخصياً، باسم الرئيس ياسر عرفات، شاركت به جميع النقابات وجميع الأحزاب والحركات السياسية ممثلة برؤسائها، وأعتبر حدثاً سياسياً هاماً غطته وسائل الاعلام العربية والغربية، ثم اتصل بنا السيد الرئيس مثمناً عقد هذا المؤتمر في ظل الاحتلال وفي ظروف استثنائية..

وهذا يقودنا إلى الشخصيات القيادية في القدس. كان القائد الأعلى المتواصل معنا بشكل يومي هو الرئيس ياسر عرفات..

وظل الشهيد ياسر عرفات مطلاً على مدينة القدس طوال حياته، داعماً لها بقوة، مستثناة الحضور لديه، فلم يتوقف عن دعمها ومساعدة قطاعاتها جميعها.

وكذلك كان معنا بشكل دائم الأخ القائد «أبو جهاد»، الذي قاد الساحة فيما أسميناه «الغربي»، وكان متابعاً باهتمام كل التحركات، وقد وجهها لقضية مهمة لها بعد هام في المد النضالي، وهي تأسيس النقابات بمختلف اتجاهاتها، اتحاد الكتاب، رابطة الصحفيين، اتحاد العمال، المرأة، وحتى أنه طلب إنشاء نقابات مهنية، هادفاً إلى تكثيف الحضور السياسي في الاجتماعات الهامة. وقد نجحنا بجدارة في هذا المجال، وبذلك برزت القيادات من خلال النقابات والأحزاب، وبرزت في كل نقابة شخصية سياسية تنظيمية معتمدة، ولما تأسست «جمعية الدراسات العربية» و«بيت الشرق»، والذي كلف به الأخ المرحوم فيصل الحسيني، صار بيت الشرق هو المرجعية السياسية لمدينة القدس.. وصار الأخ فيصل الحسيني هو الشخصية المحورية ايضاً. يعقد الاجتماعات واللقاء بالهيئات الدبلوماسية والشعبية، ويستقبل الوفود الدولية. وقام بدور هام ومؤثر، فقامت سلطات الاحتلال بإغلاق بيت الشرق، كما أغلقت عدداً من المؤسسات الهامة في المدينة. ولا زال بيت الشرق مغلقاً حتى الآن.. تعاون مع الأخ فيصل في تلك المرحلة الدكتور سري نسيبة، والأخ جبريل الرجوب بعد انتهاء فترة اعتقاله، والمحامي زياد أبو زياد، والاخ أبو زكي، جميل ناصر، رضوان أبو عياش، إبراهيم قراعين، وشخصيات عشائرية شكلت حضورها النوعي.

وكانت الشخصيات القيادية تجتمع في بيت الشرق بشكل دوري، لمناقشة أوضاع المدينة..

وأنا شخصياً، كنت أقود الساحة في مدينة القدس، بتعليمات السيد الرئيس، وكان معي طاقم مميز من الشخصيات الاعتبارية.

والشيخ صلاح شخصية مناضلة وجهت جهودها لدعوة المصلين إلى المسجد الاقصى وتحدي الاحتلال، اعتقلته قوات الاحتلال مرات عديدة، وفرضت عليه الإقامة الجبرية ومنع السفر، ولا زال يقاوم.

والآن يقود الساحة المحافظ، وهو تابع للرئيس مباشرة، ووزير شؤون القدس، وهو يتبع لرئاسة الوزراء.

وقد تشكلت المحافظات في المدن الفلسطينية بعد تحريرها، وأول من تسلم وظيفة محافظ في القدس، كان الأخ جميل ناصر عثمان، والذي قاد المحافظة والأجهزة الأمنية، إلى أن توفي، وهو شخصية تنظيمية، وممثل لحركة فتح في مدينة القدس، ساهم في بناء النقابات والمنظمات، وكان يشارك في الفعاليات السياسية والثقافية.

مثلنا الرئيس معاً في العديد من المؤتمرات الدولية الهامة.. وقاد الاجهزة الامنية والتنظيمية بالتعاون مع قيادة الساحة..

ولما وافته المنية، تابع بعده الاخ عدنان الحسيني لعدة سنوات ايضاً، ثم شعرت القيادة بأن القدس تحتاج إلى شخصية تنظيمية على دراية





بالساحة، فتم تعيين الاخ «عدنان غيث»، والذي تسلم مهامه ومسؤولياته في ظرف صعب، طاردته سلطات الاحتلال، واعتقلته عدة مرات، ومنعته من التحرك.

لذا مرجعية الجماهير والمؤسسات الرسمية والجماهيرية هي المحافظة، أما القضايا المالية والاقتصادية، فيقوم بها وزير شؤون القدس.

ولا زالت الشخصيات الثقافية والسياسية تقوم بدورها في مدينة القدس في إطار الممكن، خاصة وقد استولت حكومة الاحتلال على المدينة بعد صفقة القرن.. وهي الآن تمر بأصعب مراحلها.

• تعرّضتِ لمحاولات التكميم والاعتقال من طرف المحتل ولم تلن لكِ قناة في معركة الوجود. دعينا نلتقط مواقف وحكايات مخزّنة في ذاكرة تلك المعارك.

في التجربة الصعبة، الاعتقال والملاحقة. ماذا أقول في مؤامرات الصمت وارتداء الموت وقارورة ماء النار وانفجار في انفجار؟

منذ تشكل شخصيتي الأدبية والسياسية، وبروز ملامحها الثائرة، ومنذ انطلق قلمي في رسم صور التعذيب، تعرضت لملاحقة الاحتلال والاعتقالات المستمرة ومنع السفر، والاعتقال المنزلي.

هي تجربة تحمل صوراً قد لا ترى في أساطير الأولين.. هي رحلة الالتزام والوفاء للأرض والإنسان.. وهي رحلة الفكرة والهوية. هي رحلة الخطى في فجر القضية، والانطلاق بها إلى العالم من وراء الاسلاك الشائكة.. هي الكلمة المعادل الموضوعي للبندقية.. وهي الهوى العذري المعتق بالعذاب مفروشاً على حصاد الأزمنة... وهي أنا في صياغة النص، ومواجهة الموت، واستصدار أحكام الرجوع، وتكتيم الصمت، ورسم الموت على شفاه المناضلين.

ليكون النداء:

هل نحن بشر؟

أم نحن إضاءات قدرية ممنوعة البقاء؟

هل لنا حق في الحياة

أم أن حقنا مرسوم في توابيت الموت

بلا أكفان..

الجزار يقف شامخاً،

مفاخراً برداء ليس أبيض،

وقارورة العسل الأسود، وصهاريج للحرق

يحمل بيديه أشلاء الطفولة

ويمضي إلى آخر نفق في الطريق...

تلك حكاياتي معجونة بالدم، وتلك أيامي على حوافي الموت وتكتيم الصوت وكانت بدءاً، وظلت بدءاً.

في كل حراك جماهيري، ومظاهرة، كانت هنالك ملاحقات قاسية تسفر عن اعتقال ليوم أو يومين وتعديات أخرى.

وفي كل كلمة نص يشطبه المحتل ليواري روح الثورة وعتق الكلمة.. ولما بدأت كتابة مقالاتي، كثفت الصور والترميز حتى لا يتمكن الاحتلال من فهمها، لأتفاجأ فيما بعد أنه بدا يقرؤها ويفك رموزها، وبدا الشطب بفقرة، ثم ازداد لفقرات أخرى إلى أن وصلنا لحذف المقال كاملاً.. تابعت بقوة ولم استسلم، سربت مقالاتي لمجلة «فلسطين الثورة» وهي مجلة منظمة التحرير التي كانت تصدر في قبرص... ثم أرسلت إلى عدة صحف ودوريات في الوطن العربي.

في السفر إلى الخارج عبر الجسر، كان هنالك تشدد كبير في أول الاحتلال، لدرجة أننا كنا لا نستطيع حمل أوراق معنا، وحتى رقم الهاتف كان يصادر.

وأذكر أنني أعددت كتاباً هاماً للنشر، وهو خلاصة حواراتي التي نشرتها في جريدة «الرأي» بعمان... وبعد تعب وإعداد، حينما عبرت الجسر انقض الجندي على المخطوطة وصادرها ولم أستطع استحضارها ثانية.

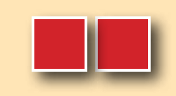
وكذلك في المطار، كنت عائدة من إسبانيا، في حقيبة يدي فصول من مذكراتي السياسية، وأخذ الأمن بالتفتيش المرير وإبقائي لساعات طويلة، وأخذوا الحقيبة، لكي يسلموها لي في الوصول، ولما فتحتها، لم أجد النص.. أصابني الحزن الشديد، لأنني كنت قد قطعت مساحة إبداعية هامة، وحينما عدت لأكتب ثانية، لم يكن بقوة النص الأول... وهذا تكرر معي في مواقع عديدة..

وفي الانتفاضة المباركة، كنت في الشارع الرئيس من المدينة، وفجأة، تلثم الشباب، وأغلقوا شارع المدينة، وابتدأ النضال بإشعال العجلات ورمي الحجارة.. كنت حينها أمام محل الموسيقى الذي كان يبث أناشيد وطنية، وكانت القصائد والألحان لأخي المهندس الفنان رياض عواد... كان نص الأغنية حماسياً جداً، وكان الشباب يتحركون على إثره، وفجأة اقتحم الجنود المحل، وصادروا الكاسيت، وتابعوا أخي، حضروا إلى البيت واعتقلوه، ووضعوه في زنزانة ولاقى أمر العذاب.

وفي شارع صلاح الدين، اشتدت الملاحقة وتكاثف الجنود، وأخذوا يعتقلون الشباب، ركضت، ولحقني عدد من الجنود، وبسرعة رأيت أمامي حلاق رجال ودخلت عنده وجلست على كرسي الحلاقة، وأخذ في محاولة تمشيط للتمويه، وبعد دقائق دخل الضابط، ووجدني على الكرسي، فاستبعد أن أكون أنا المطلوبة... وبعد أن غادر ضحكنا بهستيريا.

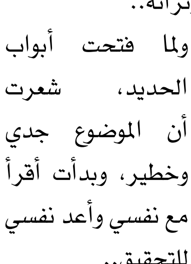
وكانت تجربة الاعتقال الطويل حينما كنت عائدة من القاهرة، حيث كنت طالبة في جامعة الأزهر، وخلال الدراسة، التقيت بعدد كبير من أعلام كتاب مصر، بما فيهم، نجيب محفوظ، توفيق الحكيم، صلاح عبد الصبور، أمل دنقل، وعدد آخر. وأجريت معهم حوارات هامة نشرت في صحيفة «الرأي الأردنية» والتي كان يرأس تحريرها السيد سليمان عرار..

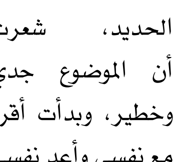
**هي تجربة تحمل صوراً قد لا ترى في أساطير الأولين.. هي رحلة الالتزام والوفاء للأرض والإنسان..**





أخذ الحوارات وبدا بنشرها، ولاقت حضوراً واستحساناً منقطع النظير.. وكنت أعد مخطوطة أمل دنقل، طلب مني رئيس التحرير البقاء لإكمال التحرير، ولكنني اعتذرت بأنني سأزور أهلي لمدة يومين ثم أعود ثانية..
أوصلني السائق إلى الجسر الحزين، قدمت هويتي وأوراقي، وانتظرت. مرت ساعات طويلة ولم يناديني أحد.. وفجأة، وإذا بعدد كبير من الجنود يلتف حولي والبنادق مصوبة باتجاهي.. ابتسمت في داخلي وقلت: «ماذا جرى! هل أنا أبو عمار؟».
تسلم الضابط جواز سفري متفرساً في وجهي قائلاً: «تقبضين مليون دينار لتلقي اسرائيل في البحر!».
صعقت من هذا الكلام، وقلت له باستهزاء: «لم أكن أدري أنني بهذه القوة، هل أنا الشاطر حسن، أم هانيبال، أم الاسكندر المقدوني؟».
نظر إلي غاضباً واقتادني إلى غرفة لاسلكي وقال: «انتظري».
ولما أقبل المساء، جاءت سيارة عسكرية لتنقلني إلى السدن في اريحا، والذي اصبح فيما بعد مقر السلطة الوطنية بعد التحرير.. وجلست ساعات طويلة مريرة، إلى أن غطى الليل الكون، وجاءت سيارة عسكرية مصفحة، وضعوا القيد في يدي، واقتادوني إلى مركز الاعتقال في مدينة القدس «المسكوبية». كان الفصل شتاء، والبرد شديد، وأنا أحلق مع أشواقي إلى الأهل.. وضع الغطاء الأسود على عيني، وفتحت أبواب حديدية، خلع الغطاء عن عيني لأراني أمام قيادة عسكرية أخرى.
أخذ الضابط كتبي وأوراقي وملابسي، وأعاد بالنص: «تريدين إلقاء إسرائيل في البحر». ثم أمر سيدة لاقتيادي إلى الزنزانة..





ولما فتحت أبواب الحديد، شعرت أن الموضوع جدي وخطير، وبدأت أقرأ مع نفسي وأعد نفسي للتحقيق..
كانت أياماً مريرة، وتحقيق مستمر، وتمديد الحكم لعشر مرات...
وتفاصيل الاعتقال مذكورة في «كتاب ذاكرة الترف النرجسي».
وبعد مدة طويلة خرجت، ودفعت غرامة مالية كبيرة ومنعت من السفر، وفقدت دراستي في جامعة الازهر..
وبعد رفع المنع سافرت إلى جامعة اكسفورد لمتابعة برنامج الدكتوراه.
ومنذ الاعتقال الأول، لم تتوقف الملاحقة ولا منع السفر... وتابعت الاعتقالات والعقوبات الفردية والجمعية، ولما عقدت المهرجانات الدولية الشعرية في مدينة القدس، انقض الجنود على المسرح وأوقفوا المهرجان، ولكننا تابعناه بطريقة أخرى.



**حتى الآن لم تتوقف ملاحقتي ومنعي من السفر، ولكنني دائماً بروح العائد ينطلق صوتي من خلف الجدران**



وحتى الآن لم تتوقف ملاحقتي ومنعي من السفر، ولكنني دائماً بروح العائد ينطلق صوتي من خلف الجدران.
الاعتقال تجربة مريرة، معذبة، تصور كيف ترى نفسك في مكان لا تستطيع حمل القلم، ولا الحديث مع الأهل، ولا التحرك بحرية وأنت تواجه كل يوم محققاً متوحشاً ينقض عليك...
أذكر في تلك الاثناء، أنه كان لدي قوة لا أستطيع وصفها، لم يتمكن المحققون إلى جرّي لأي كلمة يمكن أن يستفيدوا منها في اتهامي، بل كنت عصية على الكسر والانكسار، ولما فرغت أوراق تحقيقهم، ولم يصلوا إلى شيء، أخذوا يسألونني عن الجامعة ومن قابلت فيها بكل خبث.
ولما أصدر القاضي القرار، طرت فرحاً، وركضت لعناق والدي، الذي وضع لي أكثر من محام.
وحينما كنت أغادر السجن، اقترب مني المدعي العام قائلا: «أتمنى أن أقطع لسانك، والأيام ما بيننا»، فأجبته: «آمل أن لا تستطيع»... والحقيقة انني خلال التحقيق كانت إجاباتي غير عادية وبلغة راقية المستوى، حتى أنهم لم يستطيعوا فهمها، وأوقفني خلال التحقيق ويدي مرفوعة إلى الأعلى، وخاطبني سبعة محققين، كان يتبع أحدهم الاخر وبسرعة، حتى لا يكون مجال للتهرب. قال المحقق الرئيسي واسمه أبو العبد: «تحدثي بالعبرية، لأنك بالعربية تتحدثين ك «ابو عمار»، فهل علمك الخطابة؟، فأجبت، لا يمكن أن أنطق إلا بلغتي، ثم التفت إلى الجميع قائلة: «أنا التي



علمت أبو عمار الخطابة»... دهش المحققون على جرأتي، وانقض علي أبو العبد بالضرب المبرح.

هذه ملامح من الذكرى التي طالت في تاريخنا، ونحن نناضل من أجل العزة والكرامة.. ولا يمكن تصور الثقة والكبرياء التي شعرت بها، وأنا أصمد أمام التعذيب، وكأنها طاقة إلهية وأمواج تنطلق من روح الإيمان، ومن عبادة الوطن، ومن روح الكلمة الثائرة.

• كيف نصف علائق الأدب والسياسة في ظل المتغيّر الطريف والطارئ الذي يشكّل بينهما حالات متفاوتة تتراوح بين ائتلاف واختلاف واتفاق وتضاد؟ يتداخلان بحكم أن الأدب نابض في كل ما يختص بالإنسان. وبحكم أن السياسة تحاول أن تسوس الكتابة بالعموم لتروّض القلم في مضمار الكلمة التي تريد. وأنتِ الأديبة السياسية كيف تصفين هذا الاشتباك؟

العلاقة بين الأدب والسياسة علاقة تكاملية وليست علاقة تناقضية، فالأديب المناضل يحمل الفكر الوطني والنضالي كفكرة أساس، تختزن في الروح، لتنطلق الكلمات بندقية الفعل، ولتكون قنديل الروح والرسالة التي يود الشاعر والكاتب ايصالها... فنص المعركة يأخذ الأفق المباشر لترى النداء الصارخ بإيقاع الكلمات يلعب دورا تثويرياً.. وفي امتداد القضية في الأعماق تولد الصور الابداعية الرائعة بمضامين إنسانية وثورية...

فحينما قال أبو سلمى:

غداً سنعود وآلاف تصغي

إلى وقع الخطى عند الإياب

ونحن الثائرون بكل أرض

سنصهر باللظى نير الرقاب..

وهذا أدب المعركة، وفي قصائد أخرى كثيرة، أدخل الصور التعبيرية غير المباشرة بالصور الانسانية والجمالية لفلسطين في ديوان «من فلسطين ريشتي»..

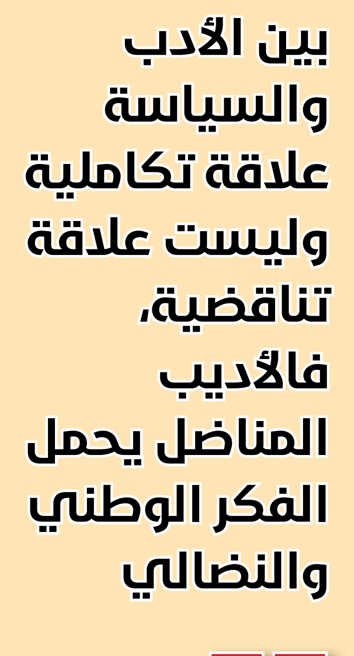
وما كتبه هارون هاشم رشيد أيضاً..

وما كتبه الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود:

سأحمل روحي على راحتي

وألقي بها في مهاوي الردى

وقد حملها واستشهد في المعركة.. وأدب المقاومة الفلسطيني هو أدب التجربة الحقيقية على أرض فلسطين وفي المنفى.. فقد واجه الكاتب الفلسطيني الاعتقال والتشريد والاقامة الجبرية ومنع السفر، وكلها هموم وآلام برزت في النصوص.



العلاقة بين الأدب والسياسة علاقة تكاملية وليست علاقة تناقضية، فالأديب المناضل يحمل الفكر الوطني والنضالي

وحينما قال توفيق زياد:

أناديكم

أشد على أياديكم

وغيرها من قصائد المقاومة بروح الفكرة ونبض الفؤاد...

وفي قصائد درويش ارتقت النصوص بأبعادها المختلفة ورسمت الصور حالة مقاومة بفن راق اعتمده العالم..

وبقي أدب المقاومة الصورة الحضارية للإبداع الفلسطيني وصفحات خالدة في سجل الثورة ورسالة الإبداع..

فحينما يقول درويش في المنفى:

وأنت يا أماه

ووالدي وإخوتي والأهل والرفاق

لعلكم أحياء؟

لعلكم أموت؟

لعلكم مثلي بلا عنوان..

ما قيمة الإنسان

بلا وطن

بلا علم

ودونما عنوان

وبالطبع فلسطين هي العنوان.. وفي مديح الظل العالي، ارتقت الصور التعبيرية المقاومة. وفي كل حدث مفصلي يثور الشعراء ويظلوا في الدفاع عن الفكرة المطلق أمام سياسة الممكن.. وإنني اؤمن أن الكلمة المقاومة لا يمكن حجبها ولا اعتقالها، لأنها ستخترق الأشواك والجدران الموصدة لتصل الى القارئ.

الحديث عن الأدب بنبض روح الانسان، وتجليات المواقف التي يعكسها، واللغة الرائعة التي يرسم بها المشهد، توقفنا طويلا امام تعريف وتفسير وتوضيح لماهية الادب في بديهية التكوين الخلقي للإنسان المبدع، وروح التوقيف المعرفي والفلسفي، ووشائج التكوين الإبداعي في التشكل النوعي الماهوي لأفكار راسخة، وأفكار تطل من ضفاف أخرى، وملامح تكوين متعددة ترتقي بالكلمة على مستوى الفن ومستوى الثورة.. ليكون إطلالة الروح والضمير، واشتعال النفس والاحتراق الداخلي الذي يولد الكلمة نصاً يفجر المواقف، ويقود إلى طمأنينة الروح بالبشرى في مستقبل مورق بالأمل. ونحن نكتب ليس من أجل الفن، ولكننا نكتب كلمات مقاتلة» أدب ثورة وأدب مقاومة» بتجليات إبداعية مكتملة الأداء.

والسياسة، وهي تشابك المصلحة، وإرساء الممكن في عجلات التكوين للعلاقات الدبلوماسية وآفاقها المتعددة، من راس الهرم السياسي والتعاليم، وإلى تدرجات المرافئ السياسية في المهام والوظائف في ظل أنظمة تصوغ أحكامها بما يتفق مع مناسك الحضور السياسي والعلاقات الدينية والمجتمعية.. والسياسة في حال الثورات، تأخذ مفهوما أكثر تقدماً، تصاغ خلالها المبادئ العالمية، والفهم النضالي للديمقراطية، وما ينفرد تحت مظلتها من رؤى وتعاليم. والسؤال الهام: «كيف لأصحاب الكلمة الحرة أن يسيروا في دروب الإبداع في واقع سياسي دكتاتوري مثلاً، أو ثوري؟.

وكيف يستطيعون فرض حضورهم الإبداعي في ظل دولة الظلم؟.

وكيف يظلون أحراراً؟.

وأؤكد ما قلته: إن الدولة التي لا ترتقي مع مبدعيها، عليها أن تراجع نفسها، والدولة التي تقمع مبدعيها، لا يكون احتسابها دولة.. لأن الأديب هو الطاقة العليا في البنيان السيادي، والطاقة القادرة على الانتشار ببواطن القيم العليا التي تحملها الدولة..

وهنالك الكثير من الحكام يحاولون صياغة المبدعين ليكونوا تعبيراً تمجيدياً عنهم، ويوضعون ضمن حلقة استثنائية مغلقة تبعدهم عم التعبير عن أي نقد، بل صياغة الإطراء حريراً لهم.. ومع الأسف كثير من أصحاب القلم، ساروا على هذا الدرب تماشياً مع مصالحهم، وحققوا حضوراً وظيفياً.. وأنا وبكل صراحة، لا أحترم هذا السياق التقزيمي للكاتب، ولا أعتقد بأن أي كاتب له كرامة واعتزاز بقلمه يمكن أن يفعل هذا.. لأن في المحور التركيبي للكلمة هو فيض الروح وحضور الفكرة بحروف نقاء نفسي.

كما أنني أعتقد، وبقوة، بان الكلمة المبدعة الملتزمة والحرة لا يمكن اعتقالها، مهما حاولت قوى الظلم، لأنها ستخترق الجدران وتسير وتنطلق الى آفاق العالم.

وتجربتي وتجربة العديد من الكتاب الفلسطينيين تحمل هذا المفهوم..



**كيف يستطيعون فرض حضورهم الإبداعي في ظل دولة الظلم؟. وكيفٍ يظلون أحراراً؟**

ابتدأ الاحتلال برقابة النص، وحذف كلمات منه وهي العبارات المقاومة، ثم تم حذف النص كاملاً.

ثم تم الاعتقال للكلمة بطريق اعتقال المبدعين ووضع الشروط التعجيزية، فقد بدا الاحتلال بمصادرة مقالاتي في الصحف تحت الاحتلال، فأرسلتها بطريقة ما لتنشر في الخارج، وتم ذلك، ثم نشرتها في كتاب..

ولم يتوقف الاحتلال عند هذا الحد، بل قادني إلى السجن، وأخذ بالتحقيق أكثر من مرة غضباً على النصوص التي أكتبها، ثم منعت من السفر، واستمرت الملاحقات... ورغم كل ذلك لم ينحن قلمي.

هذا في رحلة الثورة والثائرين، وهي رحلة مجد.

أما الكتابة في ظل سلطة قمعية محلية حاكمة، سيكون الموضوع أصعب، لأن المبدع سيواجه التعذيب، وسيكون صعباً جداً، لأنه ابن وطنه، ومسؤولة المباشر، ليكون ظلم ذوي القربى أشد مرارة. وستفرض عليه إملاءات كثيرة..

والقلم الحر يرفض الإملاءات، ولا ينصاع للمغريات، وسيتحمل العذاب المر، ولن يقبل جوائز التكريم، وستشرق كلماته مثل الشمس..

وإطلالة على التجربة السياسية الفلسطينية، نرى أن السياسة هي المحور الاساس في تحركاتنا، وفي تجربتنا النضالية. وإذا كان الشخص أديباً، لا يمكن أن يأتي نصه بعيداً عن هذه المقاربة.

والسياسة بمتداخلاتها وانتماءاتها تثري تجربة المبدع، وتعمق رؤياه، سواء كانت التجربة واقعية أو تصورية.. كثير من الكتاب كتبوا عن فلسطين، واستشعروا حضورها دون أن يعيشوا فيها..

والسياسة الحاضرة فنياً في لغة الادب، تجمل روح الإبداع وتعمقه، وترسم معالم الصيرورة الشعبية التي سيسير به الشعب المناضل.. فحين قلت في قصيدة كلمات الشهداء الاخيرة:

أقسم بثورتنا التي كللتها
بعزيمة وبمدفع وأماني
أفديك ما فوق الفداء بثورة
تلقى الثريا عندها بركاني..

وهذا نص تثويري «أدب معركة» ...أي خطبة بإبداع فني وهو مهم خلال معارك التحدي والتصدي... والمهم ان يخرج المبدع عن لغة الشعار - وأن كان يقبلها المتلقي بسهولة - لأنها تضعف الجانب الفني وهو العنصر الاساس في الإبداع.

حين بدأت الكتابة، شعرت أن لي طريق طويل لتعميق التجربة، وكانت لدي مبادئ أساس ورؤيا، عمقتها بالعلم والمعرفة والمشاركة العملية في رحلة الشروع في قارب التحرير..

وعمقت كتاباتي الثائرة في ظل ثورة عملاقة لم نشعر يوماً برقابة أو مصادرة نصوص..

وهنا أود أن أشير إلى نقطة هامة جداً، وهي مفهوم حرية التعبير الذي يتغنى به العالم، مدرسة فكرية ومشروطة، ومادة عالمية، ولكنها ليس مطلقة الشيوع والانتشار إذا جاوزت المستوى الموضوعي في النقد.

النقد مدرسة فكرية هامة، وإذا استخدمت بالشكل الموضوعي، يمكن أن تحافظ على قيمتها الأدبية لتصبح مرجعية، أما إذا سار النقد بروح التمييز والمجاملة لبعض الأشخاص وشتم أشخاص آخرين، ومحاباة الحاكم، يخرج النقد عن بيانه، ويصبح نصاً غائباً.

والنقد الذي يخرج عن نص الأخلاق ولغته، يأخذ منحى العبور إلى دوائر التشويه والتشهير المتعمد، وهذا مرفوض حتى قانونياً.
وإذا أخذنا ما كتبه المثقف المبدع إدوارد سعيد في قضايا فكرية وسياسية هامة، كان لها صدى عالمي، وكتبت بلغة راقية غير عادية، ندرك قيمة النقد الفكري وأهميته في الدفاع عن الفكرة.
والكلمة بالنقد العلمي والموضوعي هي ذات الأديب ولا يمكن سلخها عنه مهما حاولوا..
إن كتاباتي هي إبداع في نص الوطن، ونص الوطن هو السياسية، وروح الإنسان، وقناديل الارض، يضاف إلى ذلك نضالي العملي..
وأخيراً: إن رسالة المبدع مقدسة، وهي عبادة انتمائية، وشجاعة روح لا تخشى قوة ظالم. إنها قوة قلم معادل ليس للبندقية فقط، بل لكل الأسلحة.

• أدباء لهم مكانة خاصة عند د. حنان عواد.

كل كلمة قرأتها لأديب مميز جعلت له حضور خاص عندي.. ما اكثر المبدعين في وطني..
ارتبطت بالكلمة منذ نعومة أظفاري، وحلقت الكلمات معي في مركب الحياة، وامتدت حتى هذه اللحظات.
ابتدأت علاقتي بالكتاب، في الصورة التخييلية، فلما قرأت للرعيل الاول، كان هنالك إضاءات تثويرية نوعية حفرت في أعماقي وتشكلت روح المبدع فيّ.. ولما ارتقى الوعي عندي والتقيت العديد من أصحاب الكلمة والموقف، شدني حضور الكاتب وإبداع كلماته، لتسري في نصوص بعتق روحي أخاذ.
ولا شك أن هنالك مبدعون أثروا قلمي وذاكرتي وتأثرت بهم وتعلمت منهم الكثير.
في البدايات كانت كتابات طه حسين، نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم، علامات فارقة في المد الإبداعي أغنت ثقافتي..
وفي لقائي مع الشاعر صلاح عبد الصبور وكتاباته وإنسانيته، رسمت لدي نصاً خاصاً..
والشاعر العراقي عبد الوهاب البياتي، طالعت أعماله بكل اهتمام، وهو صديق حميمي أيضاً..
وكذلك الشاعر نزار قباني، والأديب الطيب صالح وآخرون..
ويمكن القول أنه في كل دولة عربية ارتبطت بكاتب أو أكثر بها، وشكل علامات فارقة في التكوين الإبداعي والفني.
وفي فلسطين، في دراسة أدب المقاومة والاطلاع على إبداع الخالدين، والذين عايشتهم، ترى أفقاً متسعاً في رحلة التأثير، فأعمال الشهيد غسان كنفاني كانت مدرسة إبداعية نضالية..
وكلمات فدوى طوقان كانت إشعاعاً أنثوياً.. وقصائد الشعراء المناضلين كانت نبراساً.. وهم أسماء لامعة ارتقوا في كلماتهم.
يربطني أفق خاص بكل شاعر، ويحملني إلى فضاءات مشعة وأنا أنتقي النصوص والكلمات. وكلهم لهم عندي مكانة عالية.
أما أكثر المبدعين الذين تأثرت بهم، وأكبرت حلولهم في، هو الشاعر الكبير محمود درويش.. فقد كان لي مدرسة خاصة، ومرجعية إبداعية لا تضاهى ونصاً معجزاً. بدأت أقرأه منذ بدء كلماته، وسرت معه في تطورات ابداعاته، والتقيته وجمعتنا لقاءات فكرية وابداعية كثيرة.

قراءته ثانية وثالثة، وكلما قرأته، أبحرت ثانية بنصوصه، لتجدني كأنني أقرأه لأول مرة.. بصوره الرائعة ونصه الذي لا يضاهى وإنسانيته المكتملة الحضور.. هذا الشاعر تأثرت به كثيراً، وشعرت أنني أحمل أمانة الكلمة من خلاله.. وكيفية صيانة روح الإبداع في كل كلمة أكتبها وفي كل نص يمثلني.

لذا تجد في كتاباتي اقتباسات كثيرة منه تسعدني كثيراً، وتثري أي نص أكتبه.

تأثرت كثيراً أيضاً، بالكاتب الشهيد غسان كنفاني، والذي شكل لي مدرسة نضالية مقاومة ونصوصاً إبداعية محكمة الفن والفكر المقاوم.. وقد درسته بعمق، وطافت به كلماتي، وظل صورة إبداعية حقيقية أحتفي بها كلما فاض القلم بالفكر المقاوم والصور الإنسانية التي أبدع في رسمها، وخاصة صورة الفدائي والبندقية والاستشعار الداخلي لروح الانسان الفلسطيني وروح المرأة.

وعشت به نصاً وإنساناً ورؤيا ولا زلت حتى هذه اللحظات. وقد قدمت دراسات عديدة عنه.

والأديب الذي تأثرت به أيضاً الروائي «الطيب صالح»، بإبداعه المميز وحضوره الإبداعي والإنساني، يضاف إلى ذلك الصداقة الحميمية التي تربطنا.

ومن الشعراء الذين أكبرتهم وتأثرت برؤياهم، وأكبرت قصائدهم، الشاعر المصري الصديق «أمل دنقل»، الذي عرفته عن قرب وبنيت بيننا صداقة مميزة، ودارت بيننا حوارات وسجالات عديدة.

له قصائد نفاذة إلى الروح ببعدها السياسي، الوطني والفني.

ومن الجزائر، تأثرت بالكاتب الصديق «الطاهر وطار»، برواياته الهامة وحضوره الفكري والإنساني.. وقد ربطتني به صداقة خاصة وزرته أكثر من مرة في مؤسسته الثقافية «الجاحظية».. وكان دائماً ذا موقف مشرف.

وقد تأثرت أيضاً بالكاتبة المبدعة «غادة السمان»، وكانت صديقة غالية، اعتبرتني ابنتها الروحية.. وشجعتني كثيراً. وكانت كتاباتها نصوصاً وأعمالاً مميزة درستها باهتمام ونشرت كتابي «قضايا عربية في أدب غادة السمان».

ومن كتاب العالم، تأثرت ب، ت. س. اليوت أولاً، ثم تابعت مطالعة الأدب الغربي لأنحاز لكتاب المقاومة أمثال الكاتب التركي ناظم حكمت، والكاتب البرتغالي ساراماجو، وكتاب جنوب أفريقيا وأمريكا اللاتينية «بابلو نيرودا»، والكاتب وإلى سوينكا،وآخرين من مبدعي الكلمة.

وأخيراً، يصعب جداً تحديد الإبداع والمبدعين، وتحديد الأثر والتأثر، لأن لكل منهم مدخل روحي ونص خاص.. لذا أعتز بكل ما قرأت، وكل من عرفت، وكل كلمة رسخت في ذهني بتفوق، وكل نص جميل اقتبسته، وكل كتاب قرأته، وبكل قصيدة تغنيت بها.

• **نستدعي موقفاً سردته ونشر في أحدى الصحف، حيث ناداك الصغار في شوارع سيريلانكا باسم (أبو عمار) لأجل كوفيته الشهيرة التي لا تفارقك. علاقتكِ بالرئيس الراحل كانت ذات خصوصية لافتة وتأثر تحكين عنه من منطلق الأسرة الواحدة كما تصفين طاقم مكتبه. ما الذي يمثله الرئيس أبو عمار لكِ؟**



الكوفية الفلسطينية رمز هام من رموز نضالنا الوطني، وخاصة قد امتشقها زعيم الامة وحملها على هامته بكل كبرياء



الكوفية الفلسطينية رمز هام من رموز نضالنا الوطني، وخاصة قد امتشقها زعيم الامة وحملها على هامته بكل كبرياء.

وقد شكلت الكوفية في نفسي حضوراً خاصاً، وارتديتها في المظاهرات وفي كل فعل مقاوم، وسرت بها في شوارع القدس وهي ممنوعة، حتى وإني في أحد الأيام، كنت أقود سيارتي، أوقفتني المجندة وحاولت خلعها عن رقبتي، ولكنني تمسكت بها بقوة، وحينما لم تستطع خلعها، اقتادتني إلى مقر الشرطة وخالفتني بمبلغ من المال، علني أتعظ وأتوقف عن ارتدائها، ولكنني لم أفعل... لأنها تشكل أجمل ملامحي، وطريق الصعب الذي اخترته...

وقد فرضتها في حضوري في أي محفل، وقد اعتاد عليها الناس، حتى إذا سرت ولم تكن تعانقني تساءل القوم واحتجوا.. واستمر ذلك حتى هذه اللحظات.

ومن الطرائف والحكم التي سارت معي، كنت مسافرة على الجسر في شهر تموز، وكانت الحرارة عالية، خلعتها ووضعتها في حقيبة صغيرة كنت أحملها، ولما استقبلني عمال الجسر لأخذ الحقائب، نظروا إلي بدهشة، قائلين: ماذا جرى؟ أين الكوفية؟ هل غيرت اتجاهك السياسي؟ تعجبت من الكلام، ولكنه أسعدني، فتحت الحقيبة ووضعتها ثانية، وأخذوا بالتصفيق رغم أن الجنود الاسرائيليين موجودون.. كنت أعلق على عنقي سلسلة خاصة، بها صورة والدي، وصورة الرئيس عرفات، فكانت الصورة



ملازمة للكوفية..

وفي أحد الرحلات عبر مطار الاحتلال، وعند النقطة الأولى للتفتيش، لاحظوا السلسلة والكوفية، فاتصل الجندي بقيادته قائلاً بالعبرية: «لقد أوقفنا شخصية من منظمة التحرير» - وبالطبع كنت أفهم العبرية، ولكن لا أشعرهم بذلك - وبسرعة حضرت السيارة العسكرية تتبعها سيارتان مصفحتان، واقتادوني إلى سجن المطار، وأخذوا بتفتيش الحقائب، وأمر بخلع الكوفية والسلسلة، وكان هذا الموقف صعباً جداً، حينما فكرت أنه يمكن أن أفعل ذلك، صمت لثواني، ثم قلت للضابط: «هل هناك قانون يمنع ارتداء ذاكرة لشخص عزيز أو هدية قدمت منه»، استغرب السؤال، ثم تابعت: «إذا كان هنالك نص لقانون فأتمنى أن تقرأه لي حتى أنفذ»، ووقف واجماً للحظات ونظر إلي صامتاً، وتابع التفتيش بدقة، وذهب الوقت وأقلعت الطائرة. وبالطبع لم أتمكن من السفر، وكنت سعيدة أن كوفيتي والسلسلة ظلتا تعانقاني..

حكايات كثيرة تعبر ومررنا بها، وفي نفس السياق، كنت على الجسر أيضاً، أرتدي الكوفية وأعلق السلسلة، وأعبر التفتيش، وإذا بشابة فلسطينية تركض إلى بكل دهشة وإعجاب، اقتربت مني وعرفتني بنفسها بأنها تعمل في وزارة الخارجية الفلسطينية، وقالت لي: «الله! ما هذه الشجاعة؟ كيف تعبرين الجسر والبنادق المشرعة وأنت ترتدين الكوفية؟».

وعودة إلى أطفال سيريلانكا.. كان الطقس جميلاً في المساء، وكنت قد أنهيت الجلسة الاولى من المؤتمر، وأردت أن استكشف بعض المواقع، سرت بهدوء وأنا أدندن أغنية، والظلام يغلف المكان، وفجأة سمعت صراخ أطفال عفوي وتصفيقاً وهم يقولون: «عرفات.. عرفات»، أدهشني ذلك، وعبرت إليهم وتحدثت معهم، وقلت لهم: «أنا لست عرفات ولكنني ابنته»، ولا أستطيع تصوير سرورهم، ثم أنهوا الحديث قائلين: «أرجوك.. أرجوك أن تعانقيه نيابة عنا».. وعدتهم وودعتهم بكل الحب.

**كان طيب الله ثراه، حينما يصل اليه أي مطلب لمدينة القدس وأهلها لا يتأخر مطلقاً بل كان يوقع الأوراق بحبره الخاص**

وفي قصة أخرى أحداثها حميمية مشابهة.. حينما كنت في « كو ستا ر يكا » أمثل فلسطين في الكونجرس الدولي للمرأة. في المساء جاءتني السيدة أولجا بينشي رئيسة فرع كوستاريكا، تعلمني أن مجموعة من البرلمانيين يودون اللقاء بي، وافقت بكل سرور..

حضر الوفد، وكان يتكون من خمسة أشخاص.. جلست إليهم ورحبت بهم، ثم وقف رئيس الوفد مرحباً بي قائلاً: «جئنا لنحملك رسالة خاصة منا إلى الرئيس عرفات الإنسان، والذي لا بد أن ينتصر». ثم قال سأروي لك حكاية لقائي بعرفات: «حضرنا إلى فلسطين وفداً برلمانياً لمناصرة الرئيس أثناء الحصار.. وخلال الرحلة، طار الذهن بعيداً والقلب يخفق خوفاً من هذا اللقاء، لأن اللقاء بالرؤساء ليس أمراً سهلاً.. وظل الفكر شارداً إلى أن وصلنا المقاطعة، وجاء الحرس الرئاسي مرحباً، وإذا بالرئيس عرفات يفتح باب السيارة ويستقبلنا بنفسه بكل حب.. وصعد معنا إلى المقر، وأمر بإعداد الطعام، وأخذ يقدم لنا الطعام بيده، شعرنا بالدلال والحضور الإنساني الخاص، وذهلنا وتساءلنا كيف لرئيس محاصر أن يكون بهذه الروح الإنسانية العالية؟!». وطلبوا مني أن أعانقه بالنيابة، وأن أنقل له مدى احترامهم وإعجابهم، وطبعاً فعلت.

وفي مؤتمر في جنوب أفريقيا كنت أمثل فلسطين بترتيبات السيد الرئيس وسفارة فلسطين، وقدمت برنامجاً ثقافياً هاماً، والتقيت بالرئيس مانديلا والفعاليات الثقافية والسياسية.

وفي اليوم التالي أعلمني السفير الفلسطيني سلمان الهرفي بأن هنالك اجتماع هام في المساء ستحضرينه.

وفي المساء أوصلني سعادة السفير إلى قاعة صغيرة مغلقة، وغادر.. نظرت في القاعة وإذا بها عدد من الرجال الأفارقة يبلغ الثلاثين. استقبلوني بكل الحب والاحترام، وقام رئيس الوفد بكل حب وشجاعة وقال لي: «بلغي أبو عمار بأننا معه بكل ما نملك، وأننا جاهزون للقتال معه، ونحن ننتظر إشارة منه»، كم أسعدني ذلك، وحين وقفت لأخاطبهم، شعرت بانني مع قادة عظام ورجالات تعجز الكلمات عن وصفهم.. ثم تابعوا: «لن تغفو أعيننا والرئيس ياسر عرفات محاصر». ودعتهم وشكرتهم، ولما عدت إلى فلسطين كان سعيدا جداً، جمع القيادة العسكرية وأبلغهم بذلك..

وفي أحد الأيام، ونحن نستعد لمغادرة المقاطعة، كنت مع الرئيس، صعدنا السيارة، وابتدأ الموكب بالتحرك، والتفت الرئيس، فاذا امرأة مسنة تقف قرب مكتب المساعدات الاجتماعية، وفجأة! أوقف الرئيس الموكب، رغم اعتراض الحرس، ونزل وقبل جبينها وصرف لها ثلاثة آلاف دولار، وتابعنا المسيرة.

وكان طيب الله ثراه، حينما يصل اليه أي مطلب لمدينة القدس وأهلها لا يتأخر مطلقاً، بل كان يوقع الأوراق بحبره الخاص.

ربطتني به كل القيم العليا، وكل الأبوة وكل الفكر والإنسانية التي لم تغادرها حياتي، ربطني به أيضاً، الإلهام الإبداعي، فمن روحه استلهمت الكلمة المقاتلة، ومن تشجيعه حلقت روحي في الآفاق، ومن قلبه النابض بحب شعبه نبض قلبي.

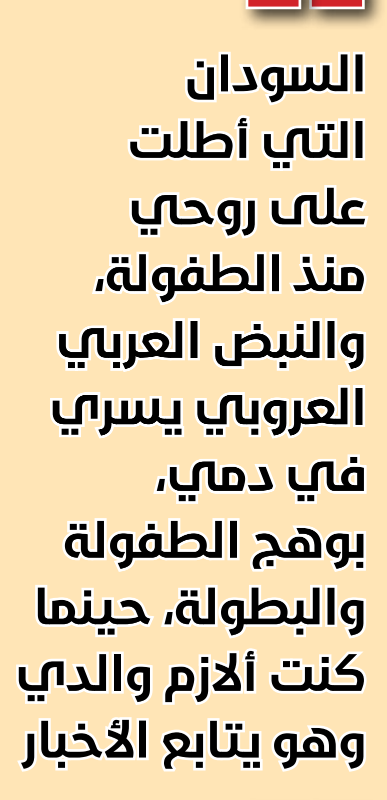
في أول رحلة معه، كنا متجهين من رومانيا إلى تونس، وكنت أجلس مقابلاً له، مطأطئة رأسي بخجل، نظر إلي مبتسماً، وطلب من الإخوة إحضار القهوة لي ولجميع الطاقم، نظرت إلى وجهه يفيض حباً وثقة، فكتبت هذه الأبيات:

جدد عهود المجد خير مجدد
ودع المواجع في يراع أسود
وانشر أريج النصر في درب العلا
أنت الفؤاد وأنت أعظم سيد









السودان التي أطلت على روحي منذ الطفولة، والنبض العربي العروبي يسري في دمي، بوهج الطفولة والبطولة، حينما كنت ألازم والدي وهو يتابع الأخبار

قلبي ينادي والنضال طريقنا
والراية الشماء ترفع في يدي
يا من عرفت بقربه صوت الفدا
ورأيت أحلاماً تردد في غدي
ناديت نور الفجر أرجو قربه
قد كان أبعد من مدار الفرقد
فأطل وجهك في الظلام ينيره
ويعيد مجد الخالدين ويفتدي
عمدت أطفالاً تصفق للردى
عمدت اطفال الحجارة فاشهد..

سعد بالأبيات، قرأها ووضع الورقة في جيبه..

وصلنا تونس وقمت بمهامي وعدت إلى فلسطين، وفي لقائي التالي معه في تونس، سألني: «هل أتممت القصيدة؟»، وكنت قد أتممتها، أخذ النص، ونادى على الأخ «أبو حميد» قائد القوات العسكرية، وطلب منه أن تقرا هذه القصيدة أمام القوات..

وفي نفس الزيارة، أعد اتحاد الحقوقيين ندوة للسيد الرئيس لاطلاع الكوادر على آخر التطورات السياسية..

قدم الرئيس المحاضرة، ووقفنا لتحيته بعد انتهاء المحاضرة، وأخذ يسلم على الحضور، ولما وصل إلي شدني من يدي لأرى نفسي قربه في سيارة الموكب..

صفق الجميع بإعجاب.

فكيف تستطيع الكلمات تصوير عظمة هذا القائد.

هذا هو الرئيس ياسر عرفات القائد الإنسان، الذي نقش له في قلوب الناس مكانة خاصة. ولا زال صوته يظهر عند كل مفصل سياسي، ولا زلت على عهد الكلمة والوفاء.

• ختاماً؛ تصدر هذه المجلة من الخرطوم فدعينا نبحث عنها في ذاكرتك مع شكر يطالك ومحبة لشخصك الكريم على هذه المساحة.



الدولة التي أعشق، والشعب الذي أرتبط به بعقد فريد. لا مجاملة حين ينبض القلب، وتطوف أمواج العشق به، لتكون علامات دالة في الوعي القومي العربي، والتي لا يمكن مواراتها، لأنها ستقفز في العيون وفي الكلمات وفي الملامح وفي الوعي المستحضر لآفاق دولة عروبية مناضلة، وقفت ضد الظلم، ثابتة الموقف من فلسطين والعروبة، سيدة الحراك الوطني والتعبوي، مركزية اللقاءات السياسية والفكرية..

فكيف لا أعشق، وأنا أنحاز لصوت العروبة والكرامة والكبرياء؟

وكيف لا أفتخر بها، وهي في صفاء الروح عندي بيتي الثاني، ومصدر الكلمة الملتزمة بأدباءها الذين نعتز بهم؟

هي السودان التي أطلت على روحي منذ الطفولة، والنبض العربي العروبي يسري في دمي، بوهج الطفولة والبطولة، حينما كنت ألازم والدي وهو يتابع الأخبار، وحينما يعقد الاجتماعات في بيتنا، وحينما كان صوت العرب يأتي بالأخبار مدداً..

تابعتها في مؤتمرات القمة، حينما طرح اللاءات الثلاث، وكانت قفزة نوعية هامة في تلك المرحلة، والتي بقيت آثارها حتى الآن.

وحين كبرت بوعي الوطن والسياسية وروح القومية، أطلت علي ثانية، وان لم تغب، لتعبر شرايين الروح، لأدرك معنى أن تكون عروبياً صادقاً، ومعنى أن تحمل السودان مسؤولية الشخصية الوطنية.

لقد تعرفت على السودان بلغة السياسة من الاخبار والإعلام..

وتعرفت على السودان الكلمة والموقف، من رجالاتها ومبدعيها..

وتعرفت على إنسانها الحر، في زيارتي لها، وفي العديد من الشخصيات الذين التقيتهم في الجامعات، وفي الاجتماعات الدولية..

حينما كنت أحضر للدكتوراه في جامعة «اكسفورد» كانت معي في الكلية سيدة جميلة، خلوقة اسمها فاطمة شداد.. ربطتني بها صداقة حميمية، ومن خلالها تعرفت على الجالية السودانية، وشدني الكيفية التي يتعاملون بها مع بعض في الغربة، من تكافل وتعاون... لا زلت أحمل لها في روحي كل المحبة..

وكان للكلمة دور كبير في رسم صورة السودان في ذهني، فما كتبه الطيب صالح، كان علامة فارقة ورؤيا تحفيزية لمتابعة النصوص والتعرف من خلالها على هذا الشعب النبيل..

ولما زرتها، تعمق الوعي اكثر، وحظيت باستقبال رسمي وشعبي، زرت الرئاسة، وعدداً من الوزراء، وكذلك الفعاليات المتعددة من اتحاد الكتاب، رابطة الصحفيين، اتحاد المرأة وغيرها.. وقد غطت الصحف الوطنية هذه الزيارة، والتي كانت بتعليمات الرئيس عرفات، وبتنسيق سفير فلسطين لدى دولة السودان..

وقد زرتها ثانية بشكل رسمي وبتعليمات السيد الرئيس، من اجل توقيع اتفاقية تعاون ما بين وكالة الأنباء الفلسطينية ووكالة الأنباء السودانية..

وكان لقاءً مشرفاً..

وبعدها، زرت السودان مشاركة في المؤتمر القومي العربي الذي استضافته السودان.. وكان في الخرطوم.. كان لقاءً هاماً ومثمراً.. وعلى هامش المؤتمر، زرت مواقع كثيرة وشخصيات عديدة..

عشت فرحها، وأدركت حجم المؤامرات عليها... وكان لقائي بالطيب صالح في الجزائر كما تحدثت سابقاً.. هذا اللقاء الذي يعيش في أعماقي لكاتب حملت له كل تقدير وحب.

وظللت أتابع ما يجري، والقلب مجروح، أتابع الأصوات والكلمات.. أخاف على السودان ولا أخاف، لأنني اؤمن بأنها ستتغلب على الصعب، وستعيد البوصلة إلى مكانها الأمثل، مهما اشتدت التحولات، لأن الاصالة تفرض نفسها في النهاية...

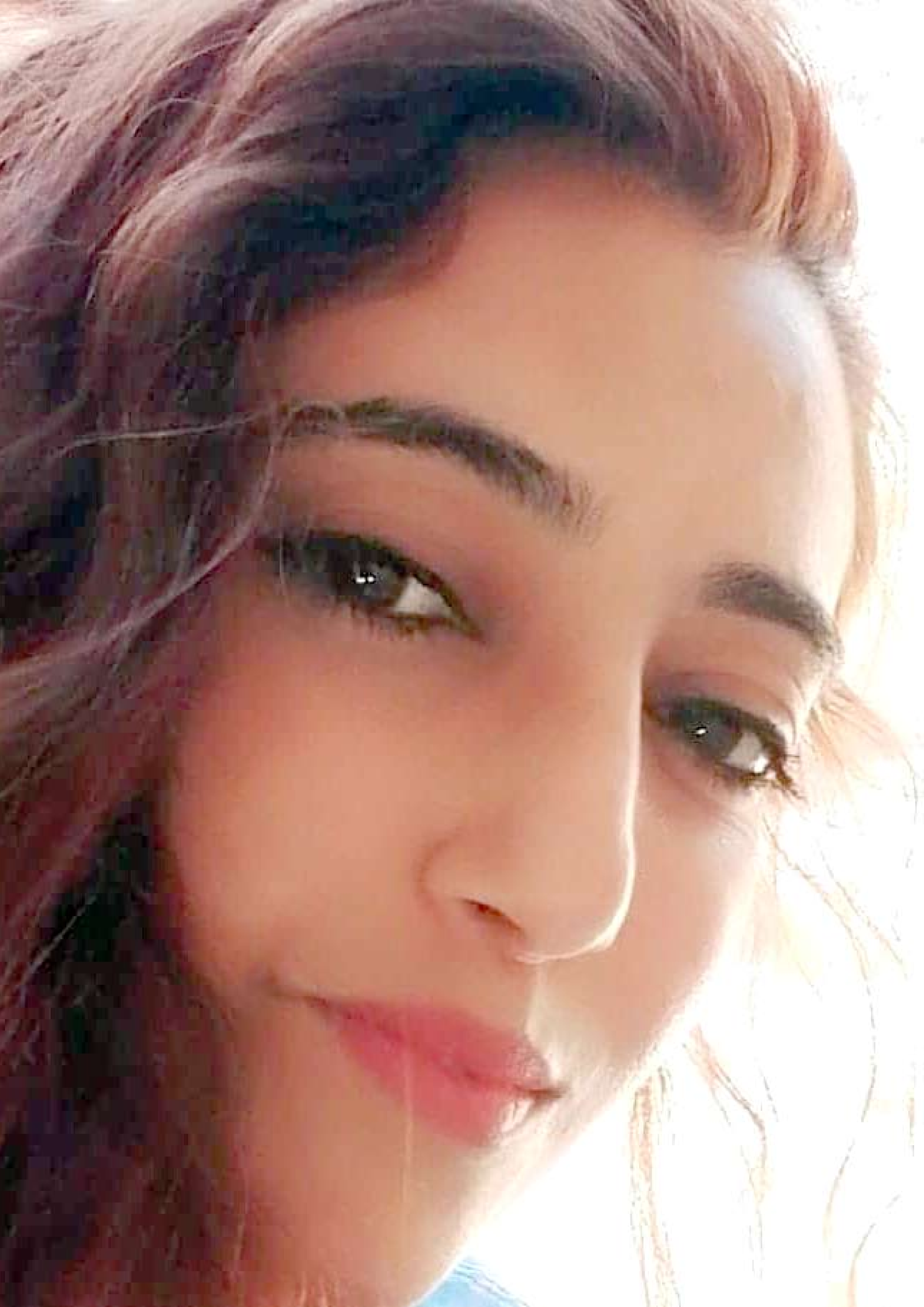
تحية كل التحية للسودان حكومة وشعباً..

وتحية لأحرارها في كل مكان..

وتحية لاتحاد الكتاب ولجميع المبدعين السودانيين في كل المواقع...

من رحاب القدس والمسجد الأقصى.


1



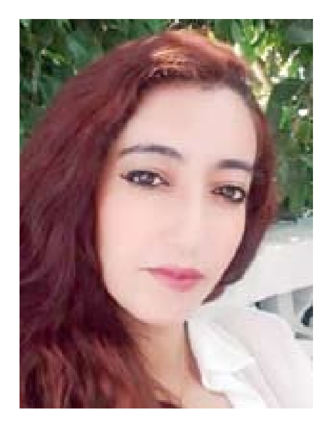
# ملف

# صوت الاندلس



إعداد :حنون ألبينو - تونس

# بنو امية والاندلس ..
# «صُنّاع الحضارة»



حنون ألبينو - تونس

أسس الأمويون حضارة إسلامية قوية في كل شبر من الأندلس فكانت فترة حكمهم من أطول وأهم الفترات التي استقر فيها المسلمون في الأندلس ليؤسسوا أعظم حضارة عرفتها أوروبا والعالم الإسلامي في تلك الفترة. فكان صاحب الفضل الأول وحامل راية الدولة الأموية والذي وضع أركانها الأمير «عبد الرحمن الداخل».

فبعد ترسيخ أركان الدولة واستتباب الأمر للأمير، نقل الامويون إلى الأندلس الحضارة المشرقية في الأدب والفن والعمارة الإسلامية، وآثر الأمويون أن يكون الطابع الغالب على الأندلس بأكملها فكانت الأندلس أختاً للشام في المشرق فتشابهت البيوت والحقول ومعيشة الناس اللذين كانوا هم أصلاً مشرقيين في أغلبهم حتى أنهم أطلقوا على مدن الأندلس نفس التسميات لمدنهم بالشام فسموا «اشبيلية» بحمص الشام، لتشابه معمارها و تضاريسها بحمص في الشام ولنزول أهل حمص بها لأنها قريبة من البيئة الأولى التي ألِفوها في ديارهم واعتادوا عليها، وغيرها من المدن الأندلسية المشابهة لبيئتهم الأم في المشرق، حتى أن عبد الرحمن الداخل نفسه، جعل بيئته بالأندلس كما كانت بالشام، وبنى الرصافة الأندلسية التي كانت مشابهة لرصافة جده هشام بالمشرق، وجلب النخل الذي اعتاد رؤيته في أرض الشام، أسوةً.. حتى لا يشعر بالغربة ولا يقتله الحنين.

ومن روائع ما خلفه الأمويون في الأندلس مسجد قرطبة الجامع، والقصور الملكية والتي كان لعبد الرحمن الداخل جهود حضارية متميزة في بنائها، فقد جمّل مدينة قرطبة وأحاطها بأسوار عالية وشيّد بها المباني الفخمة والحمامات على شاكلة الحمامات في دمشق والمدن الإسلامية والمدارس والمنتديات والمكتبات باعتبار أن قرطبة هي عاصمة الإمارة الأموية بالأندلس.

غلب الطراز الأموي المشرقي على الفن الأندلسي والذي كان من أبرز السمات التي بانت فيه وشكّلته في هيأته الاخيرة، وقد برع كل أهل الأندلس في مجالات عدة فكانوا من أصحاب الحرف والصنائع فتفننوا في شتى الفنون خاصة فن النحت على الخشب والزخرفة والنسيج والتحف المعدنية والنحاسية التي نقلوا صناعتها من دمشق، وبهذا اصبحت كل مدن الأندلس وخاصة مدينة قرطبة منارة للعلم والحضارة وقبلة لكل مثقف وطالب علم أو عالم ولكل حرفي وصاحب صنعة فضجّت قرطبة بنخبة المحترفين وذوي الخبرة وبهذا أضحت الرقعة الجغرافية الصغيرة لشبه الجزيرة الإيبيرية (الأندلس) شعاع نور في ظلمة كل أوروبا وموضع حسد من كل العالم لما وصلت إليه من رقي وحضارة ونهضة في الوقت الذي كان جل العالم الغربي غارقاً في قذارته وجهله وتخلفه عن الأندلس بقرون.

ففي الوقت الذي كانت فيه أوروبا غارقة في ظلمتها ووحشتها كانت قرطبة تنار بالمصابيح ليلاً لمسافة ١٦ كم، وكانت الحدائق منتشرة في كل أرجائها حتى أضحت الأندلس حديقة غناء عملاقة لتلقّب بالفردوس وجنة الله على الأرض. ولم يخل أي قصر أو بيت أندلسي من حديقة فوّاحة، وقد حذا بذلك أهل الأندلس أمراء وخلفاء بني أمية الذين أحاطوا مدن الأندلس وقصورهم بالحدائق الغنّاء فكانت قبلة للناظرين، راحة للنفس وبهجة للقلوب المتعبة.

وما تركه الامويين من آثار تنطق بالعظمة في كل مدينة أندلسية وخاصة عاصمة الإمارة قرطبة، تبقى إلى يومنا هذا وحتى بعد قرون أخرى تشهد على عظمة الحضارة التي وصلت إليها الأندلس في عهد الامويين من بناء وعلم وفنون في شتى المجالات فأبدعوا لتصبح الأندلس جوهرة العالم وشعلة النور التي أضاءت كل من حولها ولتسبغ عليهم بعضاً من عظمتها وثقافتها وعلمها ليصبح العالم الغربي مديناً لنهضته إلى الأندلس وعلماء الاندلس.



# التاريخ الإسلامي الوجيز لشبه الجزيرة الإيبيرية «الاندلس»

حنون

مرّت الأندلس بعدة مراحل وعهود منذ الفتح الإسلامي لها سنة ٩٢هج/ ٧١١م، بجيوش الفتح التي قادها القائد العظيم «طارق بن زياد» بتدبير وتخطيط لسنوات من وإلى أفريقيا مع «موسى بن نصير» وكل هذه الفتوحات الإسلامية كانت تحت راية الخلافة الأموية بالمشرق.

شهدت شبه الجزيرة بعد الفتح الإسلامي المبين «عصر الولاة» والذي امتدّ من ٩٧ هـ/ ٧١٦م، سنة مقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير، إلى ١٣٨ هـ/ ٧٥٥م، سنة مجيء عبد الرحمن الداخل، وهي مرحلة استغرقت حوالي أربعين عاماً تولّى فيها حكم الأندلس عشرون والياً.. ترتيبهم على التوالي كما يلي مع العلم أن بعضهم قد تولى الولاية مرتين:

٧١٤ – ٧١٦: عبد العزيز بن موسى بن نصير.

٧١٦: أيوب بن حبيب اللخمي.

٧١٦ – ٧١٩: الحر بن عبد الرحمن الثقفي.

٧١٩ – ٧٢١: السمح بن مالك الخولاني.

٧٢١: عبد الرحمن الغافقي.

٧٢١ – ٧٢٦: عنبسة بن سحيم الكلبي.

٧٢٦: عذرة بن عبد الله الفهري.

٧٢٦ – ٧٢٨: يحيى بن سلامة الكلبي.

٧٢٨: حذيفة بن الأحوص القيسي.

٧٢٨ – ٧٢٩: عثمان بن أبي نسعة الخثعمي.

٧٢٩ – ٧٣٠: الهيثم بن عبيد الكناني.

٧٣٠: محمد بن عبد الله الأشجعي.

٧٣٠ – ٧٣٢: عبد الرحمن الغافقي.

٧٣٢ – ٧٣٤: عبد الملك بن قطن الفهري.

٧٣٤ – ٧٤١: عقبة بن الحجاج السلولي.

٧٤١ – ٧٤٢: عبد الملك بن قطن الفهري.

٧٤٢: بلج بن بشر القشيري.

٧٤٢ – ٧٤٣: ثعلبة بن سلامة العاملي.

٧٤٣ – ٧٤٥: أبو الخطار الكلبي.

٧٤٥ – ٧٤٦: ثوابة بن سلامة الجذامي.

٧٤٦ – ٧٥٦: يوسف بن عبد الرحمن الفهري، وهو الذي تعتبر فترة ولايته من أطول الفترات وقد شهدت ولايته هذه سقوط الخلافة الأموية بالمشرق.

أما الفترة الثالثة التي شهدتنا شبه الجزيرة والتي تعتبر من أزهى وأرقى فتراتها على الإطلاق، ألا وهي فترة الإمارة الأموية بالأندلس، التي تأسست على يدي الناجي الأموي من بني العباس بعد سقوط خلافة الأمويين بالمشرق الأمير «عبد الرحمن» الملقّب «بالداخل». وترتيب أمراء وخلفاء بني أمية بالأندلس هو كالآتي:

- عبد الرحمن بن معاوية (الأول/ الداخل) من ١٣٨هـ، حتى ١٧٢هـ.
- هشام بن عبد الرحمن (الأول) من ١٧٢هـ، حتى ١٨٠هـ.
- الحكم بن هشام (الأول/ الربضي) من ١٨٠هـ، حتى ٢٠٦هـ.
- عبد الرحمن بن الحكم (الثاني/ الأوسط) من ٢٠٦هـ، حتى ٢٣٨هـ.
- محمد بن عبد الرحمن (محمد الأول) من ٢٣٨هـ، حتى ٢٧٣هـ.
- المنذر بن محمد من ٢٧٣هـ، حتى ٢٧٥هـ.
- عبد الله بن محمد من ٢٧٥هـ، حتى ٣٠٠هـ.
- عبد الرحمن بن محمد (الثالث/ الناصر) من ٣٠٠هـ، حتى ٣١٦هـ.

كأمير ثم خليفة من عام ٣١٦هـ، وهو أول خليفة أموي بالأندلس.

مع العلم أن الإمارة الأموية استمرت في الأندلس ١٦٢ عامًا من عام ١٣٨ هجريًا حتى إعلان قيام الخلافة الأموية في الأندلس عام ٣١٦ هجريًا.

٩- الحكم المستنصر بالله ابن الناصر وهو ثاني خليفة أموي وتاسع أمرائهم، تولّى الحكم من سنة (٣٥٠هـ/ ٩٦١م) إلى سنة (٣٦٦هـ/ ٩٧٦م ) خليفة لأبيه عبد الرحمن الناصر.

١٠- هشام المؤيد بالله ابن الحكم المستنصر وثالث خلفائهم بالأندلس، إلا أنه لم ينل من الخلافة سوى اسمها فقد كان ابن ١٢ ربيعاً عندما توفي أبوه وتولّى هو الخلافة من بعده، لكن استأثر الحاجب المنصور بالسلطة وأسس دولة داخل الدولة وهنا تبدأ مرحلة أخرى في تاريخ الأندلس وهي مرحلة الحجابة العامرية أو الدولة العامرية.

- الدولة العامرية:

نشأت هذه الدولة الصاعدة داخل دولة أخرى هي الدولة الأموية أو لنقل الخلافة الأموية، وكانت فترة الحجابة أو الدولة العامرية من أقوى وأزهى الفترات التي عاشتها الأندلس تحت ظل الحاجب المنصور رحمه الله وقد دامت فترة حكمه ٣٧١هـ – ٣٩٢هـ (٩٨١ – ١٠٠٢م) و قد لُقّب بعديد من الألقاب الشرفية منها: الملك المنصور، الملك الكريم، الحاجب المنصور.. إلا أنه لم يُلقّب بالخليفة أبداً وكان ذلك سياسة حكيمة منه حتى لا يقلب حب الشعب إلى ضده، بعده حكم ابنه الحاجب المظفر، عبد الملك وقد سار على نهج أبيه في سياسته الداخلية والخارجية أيضاً ضد النصارى، بعده أتى عبد الرحمن شنجول وهو الابن الثاني للمنصور من أم نصرانية لم يكن مع الأسف يملك حكمة أبيه ولا سار على نهج أخيه من قبله فكرهه الناس جراء سوء معاملته وسكره الدائم وعبثه وضغطه على هشام المؤيد بأن يكون هو ولي العهد من بعده فثار وجهاء قرطبة خاصة من بني أمية لأنهم شعروا أن الخلافة ستخرج من بيتهم «البيت الأموي» وتذهب للبيت العامري، وبضعف وغرور شنجول وعدم كفاءته السياسية سقط الحكم العامري في سنة ٣٩٩هج. بعد، وبهذا بدأت مرحلة جديدة في تاريخ الأندلس التي تعتبر الأكثر سواداً في كل تاريخها وهي الفتنة الكبرى وبداية عهد ملوك الطوائف.

- الفتنة الكبرى وبداية عهد ملوك الطوائف:

فيه انقسمت الأندلس إلى ما يقارب ٢٢ دولة تناحرت فيما بينها وتحالفت مع نصارى الشمال ضد إخوانهم المسلمين بل ودفعوا الجزية صاغرين، وكانت هذه الفترة من تاريخ الأندلس، المرحلة الأشد سواداً وسوءاً فيه



سادت الفرقة وتشرذمت الأمة بعد وحدة وتاريخ حافل بالجهاد والعزة والعظمة.

استنجد أهل الأندلس بأمير المغرب لينقذهم من ذل الطوائف ومناوشات نصارى الشمال فاستجاب أمير المرابطين يوسف بن تاشفين واجتاز البحر من العدوة المغربية إلى الأندلس ليسقط حكم الطوائف وبالتالي أصبحت الأندلس تحت سيطرة وحكم الدولة المرابطية..

لكنها سُنّة الله في أرضه، ضعفت الدولة المرابطية وتراجعت مكانتها في المغرب والأندلس ولم تعد مهابة حتى من قبل النصارى وبهذا مهّد ضعفها إلى ظهور قوة جديدة صاعدة من القلب المغربي وهي قوة الموحدين وسقطت مُرّاكش العاصمة المُرابطيّة بيد عبد المؤمن بن علي زعيم الحركة المُوحديّة الثوريّة في ١٨ شوّال ٥٤١هـ المُوافق فيه ٢٤ آذار (مارس) ١١٤٧م، وقُتل آخر أمرائها إبراهيم بن تاشفين وبهذا بدأ عهد الدولة الموحدية التي فرضت سيطرتها على الأندلس إضافة إلى المغرب.

بعد هذه الفترة شهدت القوة الموحدية ضعفاً لا سيما بعد موقعة العقاب التي أتت كأنها عقاب فعلاً من الله فسقطت هاته الدولة، كما حدث مع سابقاتها وهذا كان أهم الأسباب التي ساهمت في تدهور الوجود الإسلامي بشبه الجزيرة وبداية اكتساح نصارى الشمال للأراضي المسلمة.. ومع تزامن سقوط المدن الأندلسية تباعاً وفي فترات وجيزة الواحدة تلو الاخرى، ظهرت مملكة جديدة في الاندلس هي مملكة غرناطة أو إمارة غرناطة، التي سميت فيما بعد بالأندلس الصغرى لأنها جمعت تحت رايتها كل مسلمي الأندلس الذين شُردوا من مدنهم بعد الاحتلال القشتالي لها.

غرناطة إمارة إسلامية تأسّست على يد ابن الأحمر سنة ٦٣٥هج/ ١٢٣٧م بعد معركة العقاب والهزيمة التي قصمت ظهر المسلمين التي على إثرها سقطت دولة الموحدين... صمدت مملكة غرناطة في ظل الظروف العصيبة التي يمر بها الإسلام ما يقارب ٢٥٠ سنة، شهدت خلالها ازدهاراً في ميادين كثيرة، اقتصادياً، تجارياً وفي الفلاحة وكذلك الأدب والعلوم وبرز فيها العديد منهم وازدحمت جدران الحمراء بالأشعار أهمها أشعار ابن زمرك الملقب بشاعر الحمراء والآيات والشعارات أبرزها شعار بني الأحمر «ولا غالب إلا الله» الذي زيّن كل ركن في الحمراء وارتفع عالياً يرفرف فوق أسوارها...

وككل الدول والممالك السابقة بدأت غرناطة تُحاصَر من قِبَل ملوك النصارى لا سيما بعد التحالف الذي حدث بين مملكة قشتالة واراغون بزواج فرناندو وإيزابيلا واتخذت الحرب منحىً آخر فعُرفت بحروب الاسترداد وسعى الاتحاد النصراني إلى إبادة وإزالة الوجود الإسلامي عن شبه الجزيرة وكان لهم هذا وفي ٢ من يناير سنة ١٤٩٢م بعد إبرام معاهدة الذل والهوان بين آخر ملوك غرناطة أبو عبد الله الصغير وملكي قشتالة النصرانية... سقطت الأندلس الصغرى آخر معاقل المسلمين وآخر راية نبضت بكلمة الله على تلك الارض برغم تدخّل الدولة المرينية في وقت سابق لمحاولة إنقاذ ما تبقى من أراضي المسلمين .. لكن لا راد لقضاء الله، سقطت غرناطة وكل الأندلس وفشلت حتى الثورات اللاحقة في أن تسترد ولو جزءاً منها وتحتفظ بها... ولا غالب إلا الله..

بعد هذا السقوط المدوي ظهرت محاكم التفتيش لتنكّل وتذل مسلمي الاندلس وتنصّرهم قسراً وتجرّدهم حتى من عاداتهم ودينهم بل من هويتهم العربية المسلمة... ساموهم سوء العذاب وتفننوا في ذلك واستنبطوا أفكاراً حتى على بال الشياطين ما كانت لتخطر أبداً.. وفي نهاية الأمر جاءت الطامة الكبرى، قرار ترحيل المسلمين عن شبه الجزيرة وكانت الهجرات الموريسكية التي شُرِّد على إثرها آلاف المسلمين من أرضهم ليعيشوا غربة عن الوطن وغربة حتى عن أنفسهم وكان ذلك بقرار من ملك إسبانيا فليب الثالث وآخر هجرة موريسكية سنة ١٦٠٩م.. وبهذا انتهى الحكم الإسلامي في الأندلس وأُبيد أغلب من تمسّك بهذا الدين في تلك الأرض.. إلا أنهم عمّروا أراضي أخرى في بلدان أخرى ببصمات حنين ولهفة لذاك الزمن الجميل، تاركين للأجيال القادمة ولأحفادهم تاريخ مجد ونضال وصمود يفتخر به وإرثاً حضارياً وثقافياً عظيماً ما زال صامداً كالمنارة في وجه كل التغييرات مرشداً وهادياً لتاريخ أمة إسلامية عظيمة تعتبر من أعظم الحضارات التي مرّت بشبه الجزيرة، حضارة قامت على أنقاضها ما يسمى اليوم بأوروبا المتقدّمة.

وهنا نتبيّن أن الحكم الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية مرّ بثمانية عهود وفترات كبرى تغيّرت خلالها الدول الحاكمة في المنطقة وكل واحدة منها كان لها دوراً فعالاً في استمرار الوجود الاسلامي بالأندلس ولا ينبغي لنا التغافل عنها وهي كالآتي:

- مرحلة الفتح الإسلامي.
- عصر الولاة.
- الإمارة الأموية.. وهذه المرحلة نفسها مرّت بعدة فترات فشهدت كما سبق وذكرنا إعلان الخلافة الأموية في عهد عبد الرحمن الناصر.
- الحجابة العامرية «حجابة المنصور وأبنائه» وقيام الدولة العامرية تحت راية خلافة بني أمية.
- الفتنة الكبرى وظهور ممالك الطوائف.
- الدولة المرابطية.
- دولة الموحدين.
- مملكة أو إمارة غرناطة التي كانت النبضة الإسلامية الأخيرة في الاندلس ومع سقوطها سقطت راية الاسلام في المنطقة وكان الشتات للأمة الأندلسية.

«ولا غالب إلا الله».

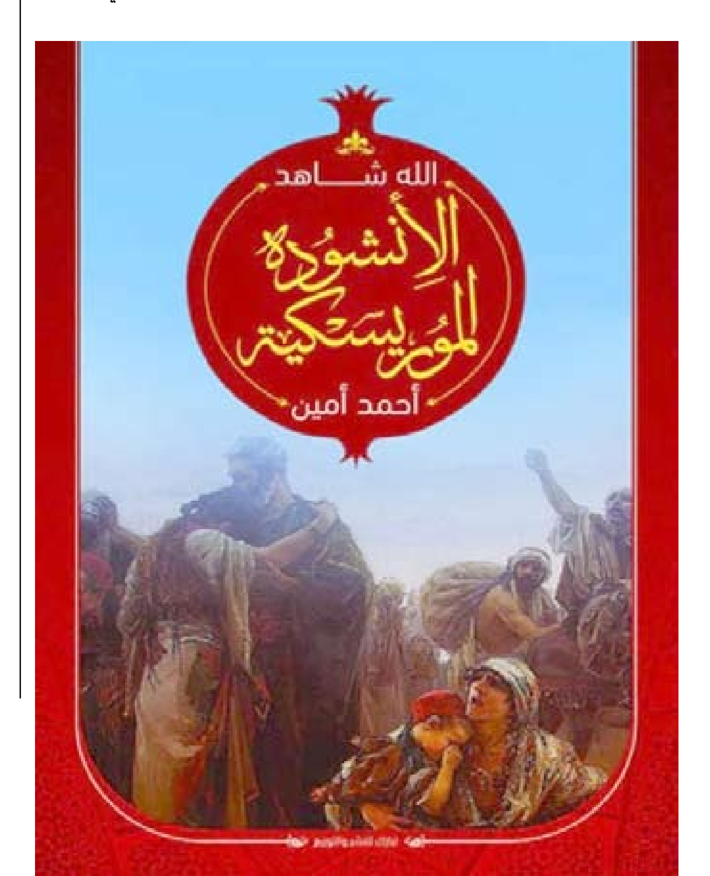


# حقيقة اكتشاف اللوحات الرصاصية في غرناطة

كنت وأنا أقرأ رواية «الانشودة الموريسكية» لأحمد أمين، أثار فضولي ذكرها لاكتشاف حدث في غرناطة وأتهم في تزويره الموريسكيون، اكتشاف فزعت له الفاتيكان والعالم المسيحي يتحدث عن لوحات رصاصية، فتسألت ما سر هذه اللوحات وهل هي حقيقة أم كانت من وحي خيال الكاتب لا غير؟، فقمت بالبحث الذي أسفر عن أن هذا الاكتشاف كان حقيقة بحتة وهو...

حدث وأن تمّ بالصدفة وأثناء عمليات ترميم وبناء بأن عُثر في ضاحية (ساكرومونتي)، بوادي (فالبارايسو) في مدينة غرناطة في ١٥٩٥م، على اكتشافات أثارت في تلك الفترة بلبلة وألقت الرعب في قلب بابا الفاتيكان بروما ومحاكم تفتيش إسبانيا، وتمثّل هذا الاكتشاف في لوحات رصاصية كُتبت باللغة العربية واللاتينية تتحدث عن دين الإسلام ونبيه محمد عليه السلام وقد تُرجمت في تلك الفترة من قبَل موريسكيين وبأن ترجمتها أكدّت بأن على البشر اتباع دين محمد عليه السلام حتى يحوزوا الجنة لأنه دين حق وهدى وهو ما أخاف كهنة أوروبا والفاتيكان، وهو ما أكدّ الاكتشاف السابق لسنة ١٥٨٨م إثر هدم برج (توربيانا) الذي كان في السابق مئذنة الجامع الكبير، وقد استحوذ الفاتيكان على الاكتشاف وتم التكتُّم على الأمر ثم وبعدها بفترة أصدر الفاتيكان بأنه وبعد التحقيق والتثبُّت ودراسة هذه اللوحات اتضح أنها مزوّرة واتهم كالعادة بأن الموريسكيين هم من زوّروا وابتدعوا أمر هذه اللوحات الرصاصية، لإضفاء الشرعية على وجودهم في شبه الجزيرة الإيبيرية، خصوصاً وأن اللوحات كانت قد كُتبت بالعربية وتتحدث عن القديس (سيسيليو) الرجل العربي الذي دخل في المسيحية بعد علاجه على يد المسيح عليه السلام، والذي وصل لشبه الجزيرة كمبشّر للمسيحية صحبة تلميذ المسيح يعقوب بن زبدي (سانت يعقوب) وسيسليو كان أول أُسقف لكنيسة غرناطة.

وقد لاقى هو ورفاقه ألواناً من العذاب على يد الأمبراطور الروماني نيرون




الذي استولى على شبه الجزيرة في تلك الفترة.

ذكر سيسليو في الرق أنه عثر مع أحد المسيحين على مخطوطة قديمة بها نبوءات تتعلّق بآخر الزمان، فقام بترجمتها إلى لغة أهل شبه الجزيرة المسيحيين في ذلك الوقت وكانت اللغة العربية، وهذه بعض النبوءات الواردة في الرق.

١ – علامة النحس الذي ينزل على النصارى يكون إذا أخذ المشرقي مدينة البحر.

٢ – من القبلة يخرج الحاكم العدل ولا يعود.

٣ – يأتي في الوجود بعد روح الله يسوع، نور من الله اسمه الماحي المنوّر وبالمعجم (البارقليطاس) خاتم المرسلين – تأييداً – وخاتم الدين ونور الانبياء، لا نور لهم ولا لأحد من العالمين، فالذين آمنوا به من بعد يسعدون حق السعادة وينوّرون حق التنوير المبين من الله ومن كفر به لا حظ له في الجنة ولكن أكثر الناس كافرون.

هذا الاكتشاف الغامض الذي تكتّمت عليه الفاتيكان بعد أن استولت عليه سنة ١٦٤٢م حين هدّد البابا (اوربان) الثامن الملك (فليب الرابع) بالحرمان الكنسي في حال امتناعه عن تسليم اللوحات ولم تسمح لأحد برؤيته أو التعمُّق في دراسته أكثر حتى الباحثين المختصين أنفسهم في هذا المجال. وفي هذا الصدد يقول الدكتور جمال عبد الرحمن (متخصص الموريسكيات): «المثير للدهشة هو أن الكتب الرصاصية ما تزال بمنأى عن أيدي الباحثين حتى الآن، وفي الرباط جمعني مؤتمر علمي بالدكتور [باريوس اغلييرا وهو أكثر من تحدثوا عن الموضوع، بل أفرد له كتاباً خاصاً، فوجّهنا إليه سؤالاً صريحاً عنها فقال: إنهم لم يسمحوا له بلمسها. هذا شأن المتخصّص في الكتب الرصاصية فما بالنا بغيره».

وما جاء من ترجمات للوحات الرصاصية فيما يخص نبي آخر الزمان ويجب على كل الناس اتباعه والإيمان به، هو ما أخاف العالم النصراني والفاتيكان على حد السواء لذلك أحاطوا هذا الاكتشاف بالغموض والسرية ومنعوه عن أيدي الباحثين، التي فنّدت فيما بعد صحته وقالت بأن الاكتشاف مزوّر.

• الكتاب الأبكم:

كان ضمن اللوحات الرصاصية وقد كُتب بلغة وحروف لم يرَ مثلها قط، فقط كان عليه بعض الكلمات العربية البسيطة والتي كانت كالتالي:

«حقيقة الانجيل» وفي أسفلها «الكتاب الأبكم» وأسفلها بضع كلمات بالعربية أيضاً:

«قالت الصالحة مريم عليها السلام: إذا قُرئ هذا الكتاب يكون الناس على دين واحد، وهو مكتوب في حقيقة الإنجيل».

لم يستطع أحد فكّ رموز الكتابة عليه أو إدراك حقيقة تلك الحروف، وقد أُتيح حينها لأحد الموريسكيين وهو (شهاب الحجري) الاطلاع على تلك اللوحات والقيام بترجمتها بتكليف من قساوسة غرناطة لإجادته العربية، ونقل كثيراً مما فيها في كتابه (رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب)، وهو الكتاب العربي الوحيد الذي تناول قصة اللوحات الرصاصية، وقد ذكر الشهاب الحجري رؤيته للكتاب الأبكم وعجزه عن معرفة الحروف التي كُتب بها. كما نقل الحجري في كتابه الكثير من الرسومات والنقوشات التي وجدها في اللوحات.

# ماذا ترك المسلمون في الأندلس؟

عمّر المسلمون أرض الأندلس لثمانية قرون، خلالها نهضوا بالفنون والعلوم، أهمها فنون العمارة الإسلامية بطابعها الأندلسي الراقي والذي تميّز عن باقي فنون العمارة والهندسة في بقية العالم.. وآثارها الباقية إلى يومنا هذا خير شاهد على العلو والسمو الذي وصلت اليه تلك الحضارة... فهنا في قرطبة عاصمة الخلافة الأموية، يقف فيها شامخاً أعظم معالمها ألا وهو (المسجد الجامع) والذي كان في عزه قبلة الطلاب والعلماء واليوم صار قبلة الزوار والفضوليين، ناهيك عن قصور بني أمية المتناثرة هنا وهناك.

وهذا يقودنا إلى ذكر آثار مدينة الزهراء الناصرية التي كانت أعجوبة زمانها ذاك واليوم تبرز من تحت التراب بأعمدتها ونقوشها لتحكي تاريخاً ومجداً لا ولن يُنسى بل وحق له أن يُروى، كل شبر في أرض الأندلس له حكايته الخاصة وأسراره الدفينة. فإن ذكرنا الزهراء نذكر بالضرورة نظيرتها الزاهرة العامرية، تلك التي تحكي قصة طموح لا نظير لها وهمة شاب ناطح السحاب وصنع المستحيل، قصة فتى أتى من جنوب الأندلس ليصبح أعظم ملك حكم هذه الأراضي.

وليست قرطبة وحدها من تستأثر بمثل هذه الروائع فهناك الرمانة الاخيرة (غرناطة) وحمراءها العلياء الشامخة، الشاهدة على آخر النبضات الإسلامية في شبه الجزيرة الإيبيرية وحي (البيازين) أشهر أحيائها وأكثرها عبقاً تاريخياً.. أنهارها التي تحيط بها والتي شهدت من الانتصارات والهزائم ما شهدت.

يقولون للماء ذاكرة لا تنسى، أترى ما زال نهرا (حدرة) و(شانيل) يتذكران جثث الأبطال التي ترقد في ذاك القاع المظلم، أما زالوا يتذكرون تلك المذابح التي جرت على مرأى منهما، وتلك الجيوش التي عبرت من ضفة نصر إلى ضفة اخرى أو همسات عاشقين يناجيان رحمة السماء بهما وبأرضهم؟..

الأندلس وما تركه المسلمون هناك.. تركوا جزءاً كبيراً من علومهم وثقافتهم وحضارتهم في ميادين شتى فبأيدهم العارية، غرسوا وزرعوا وتفننوا في تعمير البساتين والحقول، وأبدعوا في العناية بالحدائق والجنان، حتى أصبحت الأندلس بجهودهم جنة الله على الأرض.. أجل صارت أندلسنا فردوساً أرضياً لفرط جمالها وروعة جنانها وحسن بنائها ورقة أهلها ورقيهم...

ترك المسلمون في الأندلس، عطائهم وقلوبهم المعلّقة في أرض النشأة، أرض أجدادهم، تركوا أفئدة محترقة بلوعة البعد والقهر، والظلم، تركوا إرثاً ما زال يحكي ويروي القصص برغم حزنه وعزلته... تركوا اسم الله منقوشاً وبأننا يوماً سنعود «ولا غالب إلا الله».



# الحركة الادبية والشعرية في الأندلس من الإمارة الأموية إلى عهد ملوك الطوائف

مثّلت الاندلس نقطة التقاء حضاري وثقافي بين مختلف الأديان وتنوع الثقافات التي كانت سبباً في ازدهارها وارتقائها إلى مصاف الحضارات التي خلدها التاريخ لما وصلت إليه من ازدهار في مجالات شتى فلئن عُرفت الاندلس بجمال عمارتها الإسلامية وفنونها الزخرفية التي تشهد على أيادي الإبداع التي شيّدتها إلى اليوم كقصور بني أمية في قرطبة ومفخرة عمارتها المسجد الجامع والقلاع والحصون المنتشرة في كامل ربوع الاندلس على عظيم تلك الحضارة، أضف إلى ذلك حمراء بني نصر في غرناطة التي تزخر بأنواع الفنون من جمال في العمارة إلى إبداع في الهندسة إلى النقوش التي زخرت بها جدرانها وسقوفها التي تضمّنت أشهر الأبيات الشعرية لابن زمرك شاعر الحمراء وتلميذ ابن الخطيب بالإضافة إلى الآيات القرآنية والشعارات وأشهرها شعار بني نصر «ولا غالب إلا الله» الذي ازدحمت به الحمراء والقصور النصرية في غرناطة.

وكل هذا الارتقاء والازدهار كان مع بداية عصر الإمارة الأموية بالأندلس تحديداً مع المؤسس للدولة (عبد الرحمن الداخل) والذي كان ذواقاً للفن والأدب شاعراً بالفطرة حلو اللسان عذب الكلام كيف لا وهو من تربّى وترعرع في المشرق موطن الأدب والفن والجمال تلك الأرض التي لم ينسها أبداً حتى وهو بين أحضان الأندلس فبثّها حنيناً وشوقاً ترجمه في أشعاره نذكر منها:

أيها الراكب المُيمّمُ أرضي

أقرِي من بعضي السلام لبعضي

إن جسمي كما علمت بأرضٍ

وفؤادي ومالكيه بأرضِ

قُدر البين بيننا فافترقنا

وطوى البين عن جفوني غمضي

قد قضى الله بالفراق علينا

فعسى باجتماعنا سوف يقضي.

ومنذ بداية الداخل شهدت الاندلس تطوراً سريعاً مع أمراء بني أمية بعد أن استتب الأمر لهم خاصة في عهد عبد الرحمن الثاني حفيد الداخل الذي كان مثل جده محباً للأدب والفنون فاستقبل في بلاطه (أبو الحسن علي بن نافع)، (٧٨٩-٨٥٧م). والذي اشتهر باسم (زرياب) لفصاحته وعذوبة صوته وسواد بشرته وهو يُعدُّ صاحب الفضل في ابتكار فن التوشيح والموشحات التي ذاع صيتها ليبلغ الآفاق ويتردّد جمال صداها إلى اليوم كما زاد في أوتار العود فجعلها خمسة وأدخل في الموسيقى مقامات كثيرة لم تكن معروفة قبله في الأندلس.

كما لم يقتصر الوجود الزريابي في أرض الأندلس على فنون الموسيقى وألوانها فقط بل نقل أيضاً معه بعضاً من أوجه الحضارة المشرقية فعلّم أهل الأندلس طريقة اللباس الراقي بأن جعل لباساً خاصاً لفصل الصيف وآخر للشتاء وألوان شتائية وأخرى صيفية وابتكر قصّات للشعر وعلّم أهل الأندلس آداب المائدة وفنونها وكل ذلك ساهم في ارتقاء الأندلس وأهلها درجات أخرى في سلم الحضارة جعلتها موضع حسد فيما بعد من أوروبا بأكملها الأمر الذي أخذوه منها في عصر نهضتهم بعد سقوطها.

ومع توالي أمراء بني أمية بالأندلس كانت المنافسة تشتد على جعل الأمير اللاحق عصره أكثر نهضة ممن سبقه فكانوا يعنون أشد العناية بالعمارة والأدب والعلوم وقد تجلّى ذلك في العصر الذهبي للأندلس، أيام عهد (عبد الرحمن) الناصر، أول خليفة أموي بشبه الجزيرة والتي بلغت فيه أوج عظمتها وازدهارها فتزاحم الأدباء والشعراء والعلماء على مدينة الزهراء التي غصّت بهم وكان من بينهم والأكثر قرباً من الخليفة الاموي الإمام الخطيب والفقيه (المنذر بن سعيد البلوطي) الذي كانت لخطبته التي ارتجلها أمام سفارة قيصر بيزنطة إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر عام ٣٣٦هـ، أثرها في ظهوره على الساحة الأندلسية كفقيه وخطيب مفوّه، وله في ميدان الشعر باع إذ نجد له أبيات يمدح فيها الناصر قائلاً:

ترى الناس أفواجاً يؤمُّونَ بابَه

وكلهمُ ما بين راجٍ وآملِ

ستملكُها ما بين شَرقٍ ومغرب

إلى درب قسطنطينَ أو أرض بابل.

ونلاحظ أيضاً أن حال الراعي من الرعية فكان الناصر أيضاً شاعراً ويذكر له التاريخ هاته الابيات:

همَمُ الملوكِ إذا أرادوا ذكرها

من بعدهم فبألسن البنيانِ

أو ما ترى الهرمين قد بقيا

وكم مُلْك محاهُ حوادث الأزمانِ.

ولا يفوتنا ذكر شاعر أندلسي أشتهر بجمال وقوة نظمه للشعر حتى لُقّب بمتنبئ الغرب لأنه كان من أشعر شعراء المغرب الإسلامي على الإطلاق وهو معاصر لمتنبئ المشرق شهد أيام الناصر وشاعرنا هو (ابن هانئ الأندلسي)، أو أبو القاسم محمد بن هانئ بن سعدون الأزدي الأندلسي (٣٢٦ – ٣٦٣هـ، ٩٣٧ – ٩٧٣م) من أعلام شعراء المغرب العربي والأندلس، وكان موالياً لملوك الدولة الفاطمية مادحاً لهم. ومن أشعاره التي يصف فيها لنا الشاعر أسطول المعز لدين الله الفاطمي؛ أقوى أسطول بحري طاف البحر فى زمانه الأبيات الأدبية الجميلة:

أما والجواري المنشآت التي سرت

لقد ظاهرتها عدة وعديد

قباب كما تزجي القباب على المها

ولكن من ضمّت عليه أسود

ولله – مما لا يرون – كتائباً

مسمومة تحدو بها وجنود

أطاع لها أن الملائك خلفها

كما وقفت خلف الصفوف ردود

وأن الرياح الذاريات كتائبٌ
وأن النجوم الطالعات سعودُ
وما راع ملك الروم إلا اطلاعها
تنشر أعلام لها وبنود
عليها غمام مكفهر صبيره
له بارقات جمة ورعود...
وبذلك أنجبت الأندلس شعراء من البلاغة وقوة النظم وعذب الكلام وجمال التشابيه ما نافست بهم شعراء المشرق فكانت الأندلس بذلك قبلة العلماء والأدباء والشعراء وغيرهم. لاعتناء ملوكها بهم وإجزال العطاء لهم وإكرامهم ولشغفهم بالكتب وجمعها حتى تجمّعت في مكتبة قرطبة وحدها أيام الحكم المستنصر بالله ٤٠٠ ألف مجلد. وتواصل ذلك العطاء الإبداعي زمن الحاجب المنصور الذي غصّ بلاطه بمدينته الزاهرة بالشعراء أمثال (ابن أبى الحُباب) الذي دخل عليه يوماً في بعض قصوره بمنية العامرية والورد قد تفتّحت أوراقه وزاد جمال القصر وبهجته والشمس ساطعة تعكس أنوارها المياه الجارية بالقصر فكان المنظر بحق بديعاً، فقال في ذلك:
لا يوم كاليوم في أيامك الأولِ
بالعامرية ذات الماء والظُللِ
هواؤها في جميع الدهر معتدلٌ
طيباً وإن حلّ فصلٌ غير معتدلِ
ما إن يبالي الذي يحتل ساحتها
بالسعد أن لا تحلّ الشمسُ بالحملِ
وأيضاً نجد صاعد اللغوي الذي لم تخل مجالس المنصور تقريباً من حضوره يمدح الحاجب المنصور قائلاً:
يا أيها الملكُ المنصورُ من يمنٍ
والمُبتني نسباً غير الذي انتسبا
بغزوة في قلوب الشرك رائعةً
بين المنايا تُناغى السُّمر والقُضُبَا
أما ترى العين تجري فوق مرمرها
هوىً فتجري على أخفاقها الطربا
أجريتها فطمى الزاهي بجريتها
كما طموت فسدت العُجم والعربا
تخال فيها جنود الماء رافلةً
مستلئمات تريك الدرع واليلبا
تحفُّها من فنون الأيك زاهرة
قد أورقت فضةً إذ أورقت ذهبا.
والمنصور نفسه كان شاعراً فحلاً مفاخراً ينظم الشعر ويناظر كل من يؤم مجلسه، فمن شعره يفتخر:
ألم ترنى بعتُ الإقامة بالسُّرى
ولين الحشايا بالخيول الضوامر؟
تبدّلْتُ بعد الزعفرانِ وطيبه صدا
الدّرع من مستحكمات المسامرِ
أروني فتىً يحمي حماي وموقفي
إذا اشتجر الأقران بين العساكر
أنا الحاجب المنصور من آل عامرٍ
بسيفي أقدُّ الهام تحت المغافر.
ومن شعره أيضاً، يفتخر:
رميت بنفسي هول كل عظيمة
وخاطرتُ والحر الكريمُ يخاطرُ
وما صاحبي إلا جنان مشيعٌ
وأسمر خطى وأبيض باترُ
وحتى في عصر ملوك الطوائف والفتن والتناحر على السلطة وحب السيطرة نجد إنتاجاً غزيراً من الشعر وبروز لعدد من الشعراء الذين ذاع صيتهم إلى خارج حدود الاندلس وأشهرهم (أحمد بن زيدون) (٣٩٤هـ/ ١٠٠٣م - ٤٦٣ هـ/ ١٠٧١م) الذي برع في الشعر كما برع في فنون النثر، حتى صار من أبرز شعراء الأندلس المبدعين وأجملهم شعرًا وأدقّهم وصفًا وأصفاهم خيالاً، كما تميّزت كتاباته النثرية بالجودة والبلاغة، وتعدُّ رسائله من عيون الأدب العربي.. هام حباً في ابنة الخليفة الاموي (ولادة بنت المستكفي) فكان هذا الحب سبباً في تفجُّر قريحة شاعرنا الشعرية لتجود علينا بالعذب منها في وصف حلاوة الحب في القرب وألم الهجر والبعد، ونجد له عدة قصائد يتغزل فيها بولادة منها:
ودِّعَ الصبرَ محبٌّ ودّعَكْ ذائعٌ من سرِّه ما استودعكْ
يا أخا البدر سناءً وسنىً رحمَ اللّه زمانًا أرجَعَكْ
إن يطُلْ بعدَكَ ليلي فلقدْ كنتُ أشكو قصرَ الليلِ معكْ
ناهيك عن قصيدته النونية التي تفوّقت على نظيراتها وحازت شهرة تردّد صداها إلى اليوم:
أَضْحَى التّنَائي بَدِيْلاً مِنْ تَدانِيْنا
وَنَابَ عَنْ طِيْبِ لُقْيَانَا تَجَافِيْنَا
ألا وقد حانَ صُبح البَيْنِ صَبّحنا
حِينٌ فقام بنا للحين ناعينا
مَن مُبلغ المُلبسينا بانتزاحهم
حُزنًا مع الدهر لا يَبلى ويُبلينا
أن الزمان الذي ما زال يُضحكنا
أنسًا بقربهم قد عاد يُبكينا
غِيظَ العدى من تساقينا الهوى
فدعوا بأن نَغُصّ فقال الدهر آمينا.
وإلى جانب شعر الغزل الذي كثُر في ذلك العهد نجد شعراء الزهد أمثال: (أبو محمد عبد اللّه بن فرج اليحصبي) المعروف (بابن العسال) (ت ١٠٩٥م/ ٤٨٧هج)، وهو شاعر من طليطلة اشتهر بالزهد والكرامات وإجابة الدعوات. وقد تشبّه بأبي إسحق الألبيري وعلى طريقته جرى، وكانا معاً فرسي رهان في ذلك الزمان صلاحاً وعبادة . وليس كثيراً ما وصلنا من شعره الزهدي ولكن ربما كان من أقوى نماذجه قوله:
انظر الدنيا فان أبصرتها شيئاً يدوم
فاغد منها في أمان إن يساعدك النعيم
وإذا أبصرتها منك على كره تهيم
فاسل عنها واطرحها وارتحل حيث تقيم
كما ذاع في تلك الفترة صيت إمام الظاهرية (ابن حزم الاندلسي) وهو الفقيه والفيلسوف والأديب والشاعر الفصيح والبليغ في وصفه ومعانيه إذ نجد له قصيداً كتبها عندما أحرقت كتبه لاتهامه بما تحويه من علوم ومبادئ فلسفية تفسد عقيدة أهل الاندلس:

إن تحرقوا القرطاسَ لا تحرقوا الذي
تضمّنَه القرطاسُ بل هو في صدري
يسيرُ معي حيث استقلّت ركائبي
وينزل إن أنزلْ ويُدفَنُ في قبري
دعونيَ من إحراق رقٍّ وكاغدٍ
وقولوا بعلمٍ كي يرى الناس من يدري!
كذاك النصارى يحرقون إذا
علتْ أكُفّهُمُ القرآنَ في مُدُنِ الثغرِ.
وكان ممّا أنشده رحمه الله في هذا المعنى أيضاً متحسراً على ضياع علمه في أرض رأى أنها ليست أهلاً للعلم والعلماء ومفاخراً أيضاً بمقدار ما اكتسبه من تلك العلوم حتى قال مخاطباً قاضي الجماعة بقرطبة عبد الرحمن بن بشر كما أورده المقري في نفح الطيب:
أنا الشّمس في جوّ العلوم منيرة
ولكنّ عيبي أنّ مطلعيَ الغرب
ولو أنّني من جانب الشّرق طالعٌ
لَجَدّ على ما ضاع من ذِكْرِيَ النّهب
ولي نَحوُ أكناف العراق صبابة
ولا غرو أن يستوحش الكَلِف الصبّ
فإن يُنْزِل الرحمن رحْلي بينهم
فحينئذ يبدو التأسّف والكرب
فكم قائل أغفلته، وهو حاضر
وأطلب ما عنه تجيء به الكُتُب
هنالك يُدرَى أنّ للبُعد قصّةً
وأنّ كساد العلم آفته القرب
ولكنْ لي في يوسف خير أسوة
وليس على من بالنبيّ ائتسى ذنب
يقول – وقال الحقّ – الصّدق إنّني
(حفيظ عليم) ما على صادقٍ عتب
ومن بين ملوك الطوائف اشتهر ملك إشبيلية (المعتمد ابن عباد) بفيض شعره وحلاوة ألفاظه وجمال استعاراته وتشابهه فكان أن قال في زوجته اعتماد الرميكية:
حب اعتماد في الجوانح ساكن
لا القلب ضاق به ولا هو راحل
يا ظبية سلبت فؤاد محمد
أو لم يروعك الهزبر الباسل
من شك أني هائم بك مغرم
فعلى هواك له علي دلائل
لون كسته صفرة ومدامع
هطلت سحائبها وجسم ناحل.
لكن الزمان جار على ملكنا الشاعر بعد سقوط مملكته إشبيلية في أيدي المرابطين ونفيه وحبسه في أغمات بالمغرب فتغير قلبه المحب للحياة كطائر حر إلى قلب مكلوم مفجوع على أرضه وملكه وأولاده وحاله فتغيّر لسان حاله لتنطق أشعاره وتعبّر عن أحزانه وبؤسه فنجد له قصيداً أثناء أسره في حصن أغمات يتأسف على ما مضى من حياته إذ يقول فيها:
غريب بأرض المغربين أسير
سيبكي عليه منبر وسرير
وتندبه البيض الصوارم والقنا
وينهل دمع بينهن غزير
سيبكيه في زاهيه والزاهر الندى
وطلابه.. والعرف ثم نكير
إذا قيل في أغمات قد مات جوده
فما يرتجى للجود بعد نشور.
كما رثى في قصائده ابنيه المأمون والراضي اللذين قتلا:
يا غيمُ: عيني أقوى منك تهتانا
أبكي لحزني، وما حُمّلْتَ أحزانا
ونارُ برْقك خبو إثْرَ وقْدتها
ونارُ قلبي تبقي الدهْرَ بُركانا
نارٌ وماءٌ صميمُ القلب أصلهُما
متى حوى القلبُ نيرانا وطوفانا
ضدّان ألّف صرفُ الدهر بينهما
لقد تلوّن فيّ الدهرُ ألوانا
بكيْتُ فتْحاً فإذ ما رُمْتُ سلوّته
ثوى يزيدُ فزادَ القلبَ نيرانا
يا فلْذتيْ كبدي يأبى تقطّعُها
من وجدها بكما ما عشتُ سُلوانا
حتى انه رثى نفسه قائلاً:
قبر الغريب سقاك الرائح الغادي حقًا
ظفرت بأشلاء ابن عباد
وقد نقشت هاته الابيات على قبره في مدينة مراكش بعد أن نقل جثمانه هو وزوجته اعتماد وابنه ليقام له ضريح يليق بأعظم ملوك الطوائف.
وكان للمعتمد صديق شاعر يدعى ابن حميدس كان من المقربين منه تجمعهما علاقة صداقة واخلاص لم تنقطع حتى بعد انفصالهما ونفي المعتمد. وقد حفظ لنا التاريخ عدة ابيات كانت مثالاً على عمق الصداقة التي لم تبلى حتى في البعد يقول فيها ابن حميدس إكراماً لصاحبه ووفاءً له:
أباد حياتي الموت إن كنت ساليا
وأنت مقيم في قيودك عانيا
وأن لم أبار المزن قطراً بأدمعي
عليك فلا سقيت منها الغواديا
كما تُظهر لنا قصائد أخرى لشاعرنا أن له رؤية وبُعد نظر وحكمة إذ أدرك ابن حمديس أن الزمن لا يظل على نفس حاله وأن التغيّر سمة الكون وخير دليل ما حدث لصاحبه ابن العباد فمن الملك إلى الأسر، وفي ذلك كتب يقول:
ألا كم تُسمعَ الزمن العتابا
تخاطبه ولا يدري الخطابا
أتطمع أن يرد عليك إلفا
ويُبقي ما حييت لك الشبابا
لم تر صرفه يبلي جديداً
ويترك كاهل الدنيا يبابا.
الأندلس وما أدراك ما الأندلس جنة الله على أرضه، أنهار وأشجار

وبساتين فسيحة واخضرار، جمال طبيعي ساحر ألهم الشعراء فبرع في وصف الطبيعة وجمالها الشاعر (أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن خفاجة)، (٤٥٠ هـ/ ١٠٥٨م). وعاش في أيام ملوك الطوائف إبان دولة المرابطين، وهنا تفرّد ابن خفاجة بالوصف والتصرف فيه، ولا سيما وصف الأنهار والأزهار، والبساتين والرياض والرياحين، فكان أوحد الناس فيها حتى لقّبه أهل الأندلس بالجنان، أي البساتين، ولقبه الشقندي بصنوبري الأندلس وكان بذلك شاعر الطبيعة بلا منازع. وفي ذلك نجد له العديد من الأشعار لعل أشهرها:

يا أهل الأندلس لله دركم
ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد إلا في دياركم
ولو تخيّرت هذي كنت أختار
إن للجنة في الأندلس
مجتلى حسن وريا نفس
فسنا صبحتها من شنب
ودجى ظلمتها من لعس
فإذا ما هبت ريح صبا
صحت وا شوقي إلى الأندلس

لكن مع سقوط المدن الأندلسية الواحدة تلو الأخرى في عهد الطوائف، خاصة مع سقوط أولى الدرر الأندلسية ألا وهي مدينة طليطلة سنة ١٠٨٥م، ظهرت المرثيات، أو شعر الرثاء في الاندلس الذي يصف حال المسلمين المتدهور فيها، وضياع ملكهم ومدنهم، وما يهدد وجودهم فيها من مخاطر محذراً وناصحاً بالهجرة إلى بلدان أخرى وفي هذا قال ابن العسال:

شدّوا رواحلَكم يا أهلَ أندلس
فما المقامُ بها إلاّ من الغَلَط
الثّوب ينسلُّ من أطرافه وأرى
ثوبَ الجزيرة منسولاً من الوسط
مَنْ جَاوَرَ الشّرّ لاَ يَأْمَنْ بَوَائقَهُ
كَيْفَ الْحَيَاةُ مَعَ الْحَيّات فِي سَفَط

وفي نفس الغرض نجد أيضاً قصيدة رثائية لابن شهيد الأندلسي في رثاء قرطبة يقول فيها:

ما في الطلول من الأحبة مخبرُ
فمن الذي عن حالها نستخبرُ
لا تسألن سوى الفراق فإنه ينبيك
عنهم أنجدوا أم أغوروا
جار الزمان عليهم فتفرقوا
في كل ناحية وباد الأكثرُ
جرت الخطوب على محل ديارهم
وعليهم فتغيّرت وتغيروا
فدع الزمان يصوغ في عرصاتهم
نوراً تكاد له القلوب تنوّرُ
فلمثل قرطبة يقل بكاء من يبكي
بعين دمعها متفجّرُ
دار أقال الله عثرة أهلها
يبكي بعين دمعها متفجّرُ
في كل ناحية فريق منهم
متفطّرٌ لفراقها متحيّرُ

ولم يقتصر الشعر في الأندلس على فحول الشعراء من الرجال فقط بل تجاوزه ليطرق باب النساء الأندلسيات ويثير قريحتهن فزاحمن بذلك الرجال في هذا الميدان وفاقوهم جرأة فكان هناك العديد من شاعرات الغزل جاهرن بحبهن وتغزّلن بالرجال في قصائدهن ومن هؤلاء نذكر:

الشاعرة (حفصة بنت الحاج الركونية)، التي كانت على علاقة عشق مع الشاعر أبي جعفر بن سعيد، وقد تناقلت لها المصادر الأدبية كثيراً من شعرها الغزلي الرقيق فيه، فمن ذلك قولها:

ثنائي على تلك الثنايا لأنني أقول
على علم وأنطق عن خبر
وأنصفها لا أكذب الله إنني
رشفت بها ريقاً ألذ من الخمر

كما كتبت له ذات مرة تخبره:

أزورك أم تزور فإن قلبي إلى ما ملتم أبداً يميلُ
فثغري موردٌ عذبٌ زلال وفرع ذؤابتي ظلٌ ظليلُ
وقد أملت أن تظمأ وتضحى إذا وافى إليك بي المقيلُ
فعجِّل بالجواب فما جميل أناتك عن بثينة يا جميلُ.

ومن بينهن أيضاً الشاعرة نزهون القلاعية الغرناطية والتي كانت تُعرف بجرأتها الشعرية ومقارعتها للشعراء الرجال في مجالس الأدب ومجالستهم ويتحفنا التاريخ بذكر موقف لها، في أحد مجالس أبي بكر بن سعيد الوزير إذ تصدّى الشاعر أبو بكر المخزومي الأعمى، وكان شاعراً مقذعاً في هجائه، لنزهون وقال هاجياً:

على وجه نزهون من الحسن مسحة
وإن كان قد أمسى من الضوء عاريا
قواصد نزهون توارك غيرها
ومن قصد البحر استقل السواقيا

فردت عليه نزهون:

قل للوضيع مقالاً يُتلى إلى حين يُحشر
خُلقتَ أعمى ولكن تهيم في كل أعور
جازيت شعراً بشعر فقل لعمري من أشعر
إن كنتُ في الخلق أُنثى فإن شعري مذكر.

ولا يفوتنا بالذكر هنا أشهرهن ثقافة وفصاحة وجمالاً وأدباً درة عصرها (ولادة بنت المستكفي) حبيبة شاعرنا أحمد بن زيدون كما ذكرنا سابقاً، وفيه هامت هي الأخرى حباً وجاهرت بذلك في أشعارها حتى تناقلت خبرهما كل الاندلس وفيه قالت:

ترّقب إذا جُنّ الظـــلام زيارتي
فإني رأيت الـــليل أكتم للسر
وبي منك ما لو كان للبدر ما بدا
وبالليل ما أدجى وبالنجم لم يسر

وقالت:

انا والله أصلح للمـــعالي وأمــشي مشيتي وأتيه تيها
أُمكّنُ عاشقي من صحن خدي وأمنح قبلتي من يشتهيها

و قولها أيضاً تعاتبه:

لَو كنت تنصفُ في الهوى ما بيننا





لم تهوَ جاريتي ولم تتخيّرِ
وَتركتَ غصناً مثمراً بجماله
وجنحتَ للغصنِ الذي لم يثمر
ولقد علمت بأنّني بدر السما
لَكن دُهيت لشقوتي بالمشتري.

شهدت الأندلس منذ عصر الإمارة إلى نهاية عهد ملوك الطوائف نهضة علمية وأدبية ساهمت في إثراء المدونة العربية في الأدب والشعر وغيره من الفنون والعلوم ولئن ذكرنا في هذا المقال ما ذكرنا فإنه للتذكير بنفحات أندلسية شعرية ولا ننسى أن الأندلس على امتداد تلك الفترة من الحكم الأموي أنجبت عدة أدباء ومؤرخين فبزغ بذلك نجم الأندلس في النثر وعلوم اللغة والتاريخ وكتب السير والتراجم والفلك والرياضيات والفلسفة وعلوم الطب والصيدلة وكان لها نخبتها المثقفة التي تفخر بها حضارتنا الاسلامية، إذ لمع في فن الكتابة الأدبية اسم (ابن عبد ربه) وكتابه الشهير «العقد الفريد» الذي كان بمثابة موسوعة ثقافية تبيّن أحوال الحضارة الإسلامية في عصره وتناول فيه السياسة وفنون الحرب والنوادر وفضائل العرب والخطب والحديث واللغة والتاريخ والشعر وطبائع البشر وألوان الملابس والطعام.

وبرز أيضًا (ابن شهيد) صاحب «رسالة التوابع والزوابع» ذات الإطار الخيالي الخصب والتي تدرّس في المعاهد إلى اليوم، وفي علوم اللغة والنحو، بعد أن دخل جودي بن عثمان الموروري بكتب الكسائي، اهتم الأندلسيون بعلم النحو كما كان لانتقال (أبي علي القالي) من العراق للأندلس دوره في ذيوع علوم اللغة وأشعار الشرق في الأندلس وقد ألفّ الأندلسيون كتبًا في علوم اللغة، بل وخاضوا في مواضيع لم



يسبقهم إليها أحد ككتاب «تصاريف الأفعال» (لابن القوطية) وهو أول كتاب يتناول الأفعال الثلاثية والرباعية.

ولا يفوتنا بالذكر (ابن حيان القرطبي) الذي لقب بشيخ مؤرخي الأندلس وحامل لواء التاريخ في الأندلس، أفصح الناس بالتكلم فيه، وأحسنهم تنسيقاً له، أسهب فيه بالذكر والتفصيل ولم يترك شاردة أو واردة إلا ذكرها من أخبار الملوك وأحوال أهل الأندلس. وكانت كتبه بمثابة مرجع ومصدر مهم لاستقصاء التاريخ الأندلسي من منبعه لمن جاء بعده من المؤرخين والمهتمين بالشأن الأندلسي. ومن كتبه (المقتبس في تاريخ الأندلس)، ويقع في عشرة مجلدات. وله (المبين) في تاريخ الأندلس أيضاً، أكبر من المقتبس، وكتاب في (تراجم الصحابة) وُجِد منه الجزء الثالث...

ومهما تحدثنا لم ولن نفي أدباء الأندلس وعلمائها حقهم ولا حق الأندلس نفسها أرض الجود والأدب والحضارة والرقي ولنا إن شاء الله جولة أندلسية أخرى في الأدب الأندلسي.

# الأندلس..
# «قصة حضارة نُسيت وشعب ضاع حقه»

ليست الأندلس مجرد قطعة جغرافية سُلبت من المسلمين وانحسرت أو اُقتطعت من خريطة العالم الإسلامي وحسب، بل هي أكثر من ذلك بكثير هي التي كانت شعاع علم أنار بمعرفته العقول الجاهلة والبصائر التي ما كانت لتتبصّر لولاها، هي المنارة والحضارة التي علّمت العالم معنى الرقي والتسامح والحرية والقوة والازدهار والعدل، مبادئ ومفاهيم قلما تجتمع في دولة واحدة معاً، فإن سادت الحرية في مجتمع ما اليوم ستدعمها بالضرورة الفوضى والظلم والتعدي على حقوق الغير بحجة الحرية وغير ذلك الكثير.

لكن الأندلس وفي عصورها الوسطى كانت أرقى منّا نحن اليوم وطبّقت كل تلك المفاهيم والمبادئ مجتمعة دون أن تتداخل معاً فكانت العدالة سائدة والقوانين تُطبّق دون استثناء أو مراعاة لقرابة، في عصور الأندلس الوسطى قطع دابر الأمية فالكل يقرأ ويكتب والكل كرامته محفوظة فلا تجد متسولاً واحداً أو فقيراً بالأندلس، أليست تلك أسمى وأرقى أنواع الحضارات، هل قرأت عن حضارة على مر التاريخ كانت برقي الأندلس وطِبق العدالة الحق بكل تفاصيلها؟

لذلك وفي تلك الاجواء الملهمة والمشجعة برز العلماء والمفكرون والأدباء.... أولئك الذين كرّمهم الغرب أيام محاكم التفتيش الإسبانية بحرق زبدة أفكارهم وعصارة سنوات من البحث والتدوين والتعب بأن أحرق كتبهم ومؤلفاتهم لتصير كومة رماد تذروه الرياح على مر السنين. وكرمهم طبعاً مرة أخرى، وكرمهم هذا مناف لحدود العقل حد الوقاحة بأن نسبوا اكتشافات علماء الأندلس والمسلمين إلى علمائهم الغربيين وكأننا بهم لم يكتشفوا ولم يدونوا ولم تكن كتبهم صاحبة السبق في الاكتشافات والنهوض بالعلوم في شتى الميادين...

الأندلس فكرة وحضارة وعلماءً ظلمهم التاريخ وشعباً جار عليه الزمن وتشرّد بعدما كان صاحب الأرض واُستعبدوا بعدما كانوا ملوك وأمراء أعزاء...

الأندلس برقعتها الجغرافية الزاخرة بمعالم المسلمين ونقوشهم العربية وبكل مخطوط ينتمي لحضارتنا ويزخر بها أرشيفهم، هي حق لنا وملك لكل عربي ومسلم سواء كان في شرق الأرض أو جنوبها، شمالها أو غربها هي قضية أمة والتاريخ شاهد بالأمس كانت الاندلس واليوم فلسطين تقتطع قطعة بعد أخرى وسوريا تُداس والعراق يئن... حتى مساجدنا رمز ديننا سُلبت منّا لتصير كنائس فيها نواقيس وصلبان يجوبها مجوس ورهبان... فإلى أين يا أمة الإسلام تروحين وإلى متى سيدوم سباتك العميق هذا؟.. أفلا تستفيقين!!!

ولا غالب إلا الله.



# «هنا الأندلس»..

# هنا استعمر المسلمون هذه الأرض

حنون ألبينو – تونس

يرنُّ ذاك الاسم في تجاويف رأسك ليسرك صداه في كل جزء داخلك... هذي غرناطة وهذي الحمراء في عليائها شامخة، هذي بساتين الياقوت الاحمر تنضج على مهل تحت السماء المشمسة، هذي حقول الزيتون الذي غُرِس بحب كشتيلة صغيرة وجُمعت حباته بعدها حبة حبة والنسوة يترنمن بفخر «زيتون بلادي أطيب زيتون».. هذي غرناطة وها هنا الحب والعشق.

هنا التاريخ يروي نبض قلوب عشقت وحبات عرق روت تلك البساتين الخضراء من زيتون ورمان وبرتقال وتلك الحقول الممتدة الضاربة جذورها عميقاً في تلك الأرض الطيبة كتجذُّر أهلها، كحياتهم التي وهبت لتعمِّرها ولتبنيها لبنة فوق أُخرى، شجرة جنب شجرة... من قال أن العرب المسلمين احتلوا الاندلس؟ هل سمعت يوماً باحتلال يدخل أرضاً هي أقرب للخراب جرداء، جدباء يعاني أهلها الظلم والفاقة لتصبح تحت رايتهم خضراء فوّاحة، عامرة تزيّن الحدائق كل شبر فيها لتشهد نهضة لا مثيل لها في التاريخ وليشهد أهلها العدل والسلام والحرية في دينهم وعرضهم وأموالهم، سلام لم ينعموا به أبداً حتى في حكم بني جلدتهم من دينهم.

من قال أن العرب المسلمين استعمروا الأندلس؟ فهو هنا لم يخطئ المصطلح، نعم هم استعمروا ومصطلح استعمر بمعنى عمّر الارض التي دخلها، فنحن استعمرنا وعمّرنا ونهضنا بها وازدهرت بنا وعمرت لتصبح ما هي عليه. ولفظ الفردوس لم يُطلق عبثاً فبهم وبجهودهم صارت فردوساً وجنة... لأنهم هم.. هم ما كانوا عليه من قيم وخلق ومبادئ راقية مشبّعة بقيم الإسلام، لأنهم هم المسلمون.. ولأنها هي الأندلس... هنا غرناطة.. هنا الأندلس... ولا غالب إلا الله... فهل احتل المسلمون الأندلس أم استعمروها؟!

# الأندلس وعهد الطوائف

تبلغ مساحة الأندلس ٦٠٠ الف كلم٢، تلك الرقعة الجغرافية الصغيرة انقسمت على نفسها إلى (٢٢ دويلة) كلمة صغيرة جداً لا تصفها حتى، فبعضها أصغر من قرية في أي بلد في يومنا هذا. تخيلوا معي، دويلة بذاك الحجم لها أمير والبعض يسمّي نفسه سلطاناً وآخر أمير المسلمين وآخر خليفة و.. و.. و.. والأدهى والأمّر أن تلك الدويلة كان لها طبعاً استقلالها الخاص عن كل الأندلس، فكان لها وزراء ومستشارين ودواوين ومجالس لأميرها أو سلطانها المبجّل والأهم من ذلك لديها جيشها الخاص، وطبعاً هذا الجيش ليس للجهاد أو محاربة النصارى بل لمحاربة إخوانهم المسلمين وسلب أراضيهم لضمّها للمملكة المحاربة وطبعاً البقاء للأقوى، والشعب المسكين يُقتل ويُشرَد بسيوف مسلمة كانت يوماً موجّهة في سبيل الله،

وكانت تلك الفترة المسماة بعهد ملوك الطوائف أبشع أسوأ مرحلة تاريخية مرّت بها الأندلس أثناء الحكم الإسلامي لها، فحتى كرهها أهلها، تصوروا الأندلس جنة الله في أرضه والفردوس الأرضي، يعافها أهلها وفي ذلك قال الشاعر أبياتاً حقاً تعبِّر وتصف أوضاع تلك الفترة بدقة:

مما يزهدني في أرض أندلس
أسماء معتمد فيها ومعتضدِ
ألقاب مملكةٍ في غير موضعها
كالهِرّ يحكي انتفاخاً صولةَ الأسدِ.
ولا غالب إلا الله.

# حصار إشبيلية..
# بين المجوس النورمان والحاجب عيسى بن شهيد

شهدت مدينة إشبيلية هجوماً عنيفاً من قبل المجوس النورمان (الفايكنغ) أو كما يسمون أنفسهم مقاتلو الشمال، وكان ذلك سنة ٢٣٠ هجري في عهد عبد الرحمن الأوسط فعاث فيها النورمان ولأيام متتالية فساداً كعادتهم بكل أرض يحلون بها كالجراد يتركونها خراباً بعد عمار، فأحرقوا المدينة وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها إضافة إلى الأسرى والغنائم الهائلة التي غنموها من أهل المدينة، ولمّا وصل خبر المجوس إلى عاصمة الإمارة قرطبة وسمع عبد الرحمن الأوسط بالأمر، أمر حاجبه المخلص عيسى بن شهيد (والذي كان من وزراء أبيه الحكم الذي أوصاه بإستوزاره لإخلاصه وحنكته وتفانيه).

وفعلاً لعب ابن شهيد دوراً فعالاً في مساعدة الأمير عبد الرحمن الأوسط وابنه من بعده مع كثرة دسائس صاحب القصر نصر (الذي كان يحظى هو أيضاً بحظوة جيدة لدى الأمير)، بأن يسير على رأس جيش وفرقة خيالة من قرطبة نحو إشبيلية لإنقاذها وكان الحاجب ابن شهيد قد خبر النورمان قبلاً في أثناء غزوهم (لشذونة) و(اشبونة) والمناطق المجاورة لهما وقبلها كانت لهم وقعة مع مدن (جليقية) الاطلسية، وهكذا سار المدد بقيادة ابن شهيد إلى المدينة المنكوبة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

كانت مراكب النورمان تنتشر كالجراد في نهر الوادي الكبير وحول إشبيلية وكانت أعدادهم كبيرة بمراكبهم السوداء كالعقبان والتي تميّزت بقلة عرضها وبزيادة طولها حتى تحمل أكبر عدد ممكن من المقاتلين، وهكذا حصل اللقاء الأول بين جيش النورمان وعيسى بن شهيد الذي كان قائداً شجاعاً مقداماً وذا ذكاء عسكري وسياسي يُحسب له حتى قال عنه المؤرخ ابن القوطية أنه من أفضل الأشخاص الذين شغلوا منصب الحجابة، فكان لهذا دوره الهام في تراجع جيش النورمان بعد أن حسبوا انهم انتصروا خاصة مع قدوم المدد الثاني من قرطبة بعد أن أرسل ابن شهيد في طلبه بقيادة والي سرقسطة عبد الله بن كليب (وفي رواية أخرى قيل أن المدد كان على رأسه الفتى نصر)، وفي أثناء ذلك أطلق أمير قرطبة النفير للجهاد ضد النورمان فوصل عدد كبير منهم وضعهم تحت عناية وتدريب الفتى نصر لتجهيزهم لحماية قرطبة في حال تسلل النورمان المجوس إليها عبر الوادي الكبير وهنا كان عبد الرحمن حكيماً ولم يرسل المدد على رأسه الفتى نصر لأنه كان على خلاف مع ابن شهيد وكان دائماً ما يكيد له المكائد والدسائس لدى الأمير حتى أنه تسبّب في عزله مرة.

وبذكاء هذا القائد المحنك وسرعة تصرف أمير قرطبة ودعم سكان إشبيلية لجيش القرطبي وقائده، مُني المجوس النورمان بهزيمة كبيرة حتى قيل أن عدد القتلى بلغ الألف قتيل إضافة إلى الأسرى منهم وخسارتهم لعدد كبير من مراكبهم.

لكن هذه الغزوة كان لها جانبها الإيجابي أيضاً فبعد هذه الحادثة أمر عبد الرحمن الأوسط بتحصين مدينة إشبيلية فبنوا فيها الأسوار لحمايتها، كما أمر ببناء دار لصناعة السفن فازدهرت هذه الحركة وبذلك صار للأندلس أسطولاً وقوة بحرية لا يستهان بها وقد ظهرت براعتها في التصدّي للهجوم الثاني الذي قام به النورمان على الأراضي الاندلسية ومن هنا تعلّم أهل الأندلس حماية مدنهم الساحلية فبرعوا في ركوب البحر جهاداً أو تجارة وظلت سفنهم مسيطرة على حركة الملاحة بالمنطقة فازدهرت حركة النقل البحري وتجارتهم البحرية.





# «ومضات أندلسية».. عندما يُوسد الامر لغير أهله تضيع الأمانة

انتهى حكم بني أمية بالأندلس بعد آخر خليفة أموي مارس السلطة فعلياً في قرطبة هو الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر، ولماذا نقول عنه أنه آخر من مارس الحكم فعلياً لأنه قبيل وفاته أعلن أن من يرث خلافته وحيده وولي عهده ابنه هشام المؤيد بالله. وهشام هذا كان صبياً لم يبلغ الحلم بعد ولم يتجاوز عدد سنيه الإحدى عشر سنة، وضعف هذا الخليفة المستقبلي الصغير جعل الأندلس كلها وليس فقط كرسي الخلافة مهددة من قبل الأقوى والأجدر فالأندلس أصلاً تعتبر ثغراً من الثغور خاصة في شمالها. والتهديد الذي يمثله النصارى مع سنوح فرصة تضعضع سياسة قرطبة حتى أن جيش العدو اجترأ ووصلت فلوله إلى أعتاب عاصمة الخلافة، وبرغم سيرة الحكم المستنصر الناصعة البياض رحمه الله ومواصلته لسياسة أبيه في الحكم والعمل على رفعة وازدهار الأندلس خاصة من الناحية العلمية إلا أنه أخطأ في نهاية حياته بأن أورث عرش الأندلس لفتى مازال يركض خلف الفراشات الملونة في حدائق قصر الزهراء ولا يعي من سياسة الدول شيئاً، وهذا فتح باباً لأطماع عقول سياسية أخرى أرادت أن يكون الحكم لها، هذا ما ولّد صراعاً سياسياً بين عدة أشخاص كانوا أوصياء على الخليفة الصبي وضمن المجلس الاستشاري للحكم المستنصر، فمن ناحية نجد الحاجب المصحفي، وناحية أخرى فتى الدولة الذي علا نجمه وذاع صيته محمد ابن أبي عامر وحليفته صبح البشكنجية أم الخليفة، وقائد جيوش الأندلس غالب الناصري.

لتكون الغلبة في النهاية للحلف الثاني بقيادة العامري الذي برع بذكائه وعلو همته وعظيم طموحه الذي لا يعرف الحدود بأن أزاح كل خصومه ليكون وحده سيد الأندلس وملكها الكريم (الحاجب المنصور).. وبهذا برز عهد جديد في الأندلس هو عهد الحجابة العامرية وهذا المنصب أصبح يورّث حاله كحال منصب الخلافة، وهو ما لم يحدث في دولة قط، وهذا الانقلاب في الأوضاع وتغيير الحكم الفعلي من بني أمية لبني عامر كان نتيجة قرار خاطئ وهو بأن وُسِّد الأمر والحكم لشخص هو غير كفؤ وغير أهل لذلك فكان أن أنتزع منه الملك وآل لغيره.

نفس هذا الخطأ تكرر في عهد الحجابة الذي اتسم بالقوة والازدهار نتيجة أعمال المنصور الجهادية وغزواته الصيفية والشتوية ضد ممالك نصارى الشمال والتي أكسبت الأندلس هيبة ومكانة فاقت كل العهود التي مرّت على شبه الجزيرة الإيبيرية، فتواصل ازدهار الأندلس علمياً وعمرانياً واقتصادياً واجتماعياً... حتى أصبحت الأندلس درة عصرها.

إلى أن استلم نفس المنصب شخص لم يكن في مستوى القيادة ولا الريادة وخالف سلفه ولم ينتهج منهج أبيه ولا حتى أخيه عبد الملك بن المنصور من قبله فحمله غروره وجشعه وسوء تصرفه إلى التهلكة وإلى نهاية الحكم العامري في ظل خلافة بني أمية، لنشهد بهذا أسوأ فترة دخلت فيها الأندلس وليبرز على السطح حب الذات و الأنانية والجشع التي أدّت إلى ذلّ أمة بعد عزها وإلى تشرذم وتفتت وضعف بعد قوة وتمكن ووحدة... ولنشهد الشبح الأسود في تاريخ الحكم الاسلامي بالمنطقة... شبح وظلال ملوك الطوائف.

الذي كان سببه الأساسي توسيد الأمر لغير أهله، وإعطاء صلاحيات ومسؤوليات لأشخاص ليسوا أهلاً لتحملّها أبداً، فكان في هذا هلاك امة وسقوط دولة لتكون ككعكة العيد عارية سهلة دون حول أو قوة في انتظار سكين لقطعها وابتلاعها لقمة سائغة... وهذا ما كان عليه حال الأندلس بعد خروج الأمر من أيدي الأكفاء...

وفي هذا الصدد قال معلمنا ورسولنا الكريم عندما سأله أعرابي عن الساعة فردّ عليه قائلاً: «إذا ضاعت أمانة الناس وانتشرت الخيانة فانتظر الساعة فهي قريبة لا محالة». فسأل الأعرابي: «وكيف تضيع الأمانة؟»، فقال رسول الله: عندما تُوكّل الأمور في الحياة إلى غير أهلها وغير من يستحقها، أي عندما يعمل في عمل من لا صلة له بهذا العمل.

والاستهانة بحفظ الأمانات وائتمان من لا أمانة له عليها فلا هو كفؤ لحملها ولا هو أهل لها، أضاع نفسه وضيعها وأهلها.

ولا غالب إلا الله.

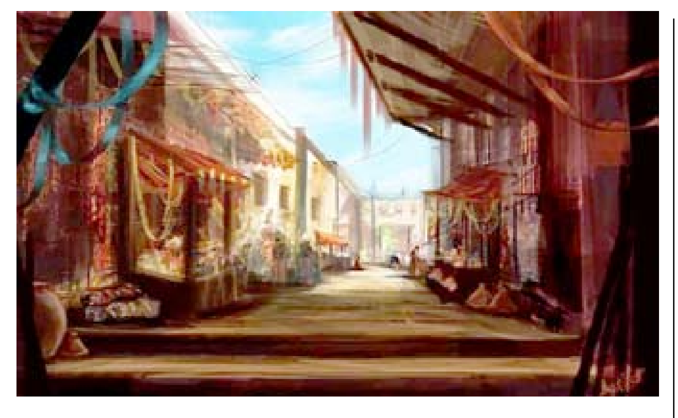


# «نبضات أندلسية».. للمدن روائح كبطاقة هوية

عندما تخلو إلى نفسك وتضع رأسك على الوسادة تتنهد وتهمس في نفسك أخيراً وقت الراحة... لكنه في الحقيقة وقت الطرق والضجيج، فحالما تغمض عينك تبدأ صور من الباطن في الظهور من أين أتت وكيف ظهرت؟ لا أعلم؟

ما أعلمه أنها كانت مقلقة ومزعجة في وقت الاسترخاء الذي ننتظره طوال يوم بأكمله. لم توقيتها ضارب في الوقاحة؟! أفلا تختار توقيت غير وقتي الليلي؟!

لا أدري حتى كيف أتعامل معها أغالبها بكبرياء علّها تغادرني لكنها تأبى إلا الاستمرار في إزعاجها وإلحاحها دون أية نية بالتوقف... مهلاً... تطفو رائحة مدينة ما إلى السطح وتتمازج الألوان كأنه قوس قزح أهدى بعضاً من بهجة ألوانه للمدينة لتكتسي فرحاً وبهاءً، بلى إنها حلة عيد أندلسي تتراص السلع كالجبال مرصوصة في انتظام متقن لكأنها لحمة واحدة... تلك الأقمشة الحريرية الملوّنة الساحرة مثل فراشات عملاقة تحلِّق مع كل هبّة نسيم أو كغمامة تظلِّل طريق سير العابرين المرهقين.





أحقاً للمدن روائح تشي بحضورها، كما الأزقة والدكاكين؟ فحتى وأنت تسير مغمض العينين تصطدم بك عن يمينك روائح الزيوت العطرة فتعرف أنك قبالة دكان العطور.. أربع خطوات ثانية تأسرك رائحة أكثر نفاذاً هي رائحة الجلد والورق فتعرف أنك على أعتاب دكان للوراقين، في هاته المدينة تدلك حاسة شمك، فحتى الأعمى يستدل خطاه بسلاسة مبهرة فعبرها يتنقل خير من بصير.

من رائحة إلى أخرى تتسارع خطواتك كما دقات قلبك ليستقبلك طيب الزعفران فتقول: هذا زعفران بسطي، وتلمع الحبّات التين الخضراء كعين هرة وأخرى سوداء كعيون غجرية شاردة فتعرف أنك في حضرة (مالقة)، وهناك تربّع زيتون (جياني)... فعلاً للمدن روائح تشبهها ولا تتعطّر بها أية مدينة سواها فتكون بمثابة بطاقة هوية، وتعريف لها وحدها من بين كل المدائن تنفرد بها ليستدل حبيبها الطريق إليها...

لكن لكل قاعدة شوّاذها.. هي إذن الشواذ لتلك القاعدة وحدها هي تفردت لتكون الجامعة وحدها جمعت كل رائحة وجزء من كل مدينة فإذا سمعت حفيف الحرير وتنعّمت بنعومة ملمسه ورقته وأناقة ألوانه وتجانسها، وإذا استظللت بظل زيتونة وارفة بعد سيرٍ أتعبك لتقطف في طريق طريقك حبة رمانٍ من شجرة كانت لاهية عنك بمداعبة النسيم وإذا عانقتك رائحة الورد والياسمين وصوت أزيز الصراصير وخرير مياه تجري بين حين وحين، و إذا احتفى بك الجار الكريم وسأل عنك غيبتك بعد سنين، وإذا طالعتك الجدران والمآذن بكل شوق وحنين وهلّلت لطلّتك بعد مضيك الأخير دون حتى سلام أو تفسير.

وحدها (غرناطة) احتضنت جموع النازحين هاربين كانوا أو لاجئين، وحدها جمعت تحت سقفها كل فقير وأمير دون تمييز أو تحقير، وحدها تنسى الأحقاد وتفتح ذراعيها للتائبين العائدين، وحدها (غرناطة) تجمع اطمئنان المؤمنين وتمسح كل تعب المرهقين وتستقبل سلام العائدين وتسأل عن موعد عودة المغتربين، وحدها (غرناطة) تجمع روائح المدن لتضيف إليها لمسة من حنين يغدو بعدها نسيانها ضرباً من المستحيل.





# «أواخر خريف غرناطة»... ما بين استبسال وخيانة وطن

عندما نذكر تاريخ غرناطة وخاصةً أواخر خريفها، نذكر بالضرورة تلك الانتصارات القليلة والهزائم القاصمة لجذع غرناطة الصامد ولهمم فرسانها التي برغم تلك الهزائم وتعددها لم تيأس أو تستسلم أرواح تتنفس هواء الوطن، ناضلوا وحاربوا واستبسلوا بكل جهودهم لأجل حماية تراب الوطن، ومن بين هؤلاء نذكر (أبو عبد الله محمد بن سعيد) والمعروف بين أهل مملكة غرناطة بالزغل وهو عم آخر ملوك الأندلس الصغرى (ابو عبد الله الصغير).

كان حاكماً لإمارة مالقة الأندلسية وكل ما يتبعها من (البلشين) و(الالمرية) وحتى وادي اش، استبسل وجاهد النصارى وحارب فرناندو وإيزابيلا وفكّ الحصار عن عدة مدن كما استعاد بعض الحصون من تحت السيطرة النصرانية حتى لقبه النصارى بالباسل لشدة ما قاوم واستبسل ورفض كل صلح وخضوع وأبى الاستسلام.

إلا أن الدول لا تسقط إلا بخيانات أبنائها، والرجال لا يقعون إلا بخنجر غدر طعن في الظهر من صديق ظننته يوماً هو الحامي لظهرك ذاك وإذ به هو الخنجر والجلاد معاً، وهنا نذكر خيانة القائد صهر وصديق الزغل (يحي النيار)، والذي كان سبباً رئيسياً في تسيير وتسهيل المفاوضات على تسليم الأراضي التابعة للزغل للملكيين الكاثوليكيين، فتواطأ معهما على تسليم مدينة المرية وسعى جاهداً لذلك، لكن مساعيه باءت بالفشل لاستبسال الزغل والفرسان معه في تقوية دفاعات المدينة وحمايتها حتى آخر لحظة، إلا أنه نجح في تسليم مدينة بسطة بعد حصار طويل من طرف القوات النصرانية والشيء المثير للدهشة أن يحي النيار كان على رأس المدافعين عن المدينة فقد دافع باستماتة عنها وكبّد خسائر جمة في صفوف النصارى وكان المنظّم الاول لصفوف المجاهدين الذين أتوا من (البشرات) و(تابرناس) و(برشانة) والذي بلغ عددهم ١٠ آلاف جندي لدعم ومساندة المحاصَرين في المدينة، وهذا أمر محيِّر في شخصية هذا الرجل فبرغم كل هذا الاستبسال والتصدي لقوات النصارى، عقد اتفاقية مع فرناندو وإيزابيلا يضمن لهما فيها تسليم مدينة بسطة وفعلاً سقطت أو سُلمت بسطة بعد هذه الخيانة وخيانة قادة آخرين في الرابع من ديسمبر ١٤٨٩م، وبعدها بدأت الأراضي التابعة للزغل في السقوط فسقطت بعدها مدينة المرية في ٢٢ ديسمبر من نفس العام.

وبعد هذه الخيانات من جهة يحي النيار لأبناء جلده ووطنه خان نفسه وباعها للشيطان كما باع دينه حتى يثبت ولائه لأسياده الجدد فتعمّد وصار نصرانياً وتلقب (بالدون بيدرو الغرناطي)، وكان ذلك في ٢٥ من شهر ديسمبر وتنصّر معه أفراد عائلته وبعض القادة الذين طمعوا في الأراضي والممتلكات التي وعدهم بها ملوك النصارى، وبعدها سقطت وادي آش وأجبر محمد الزغل بعد أن حُوصر وخسر كل أراضيه وأُغلقت أبواب غرناطة في وجهه لأنه كان على خلاف سياسي مع ملكها أبو عبد الله الصغير، على إبرام معاهدة مع فرناندو وإيزابيلا غادر بموجبها أرض الأندلس الحبيب نحو المغرب الأوسط الجزائر وكان ذلك في سنة ٨٩٥ هجري ليصل إلى مدينة وهران ومنها اتجه إلى مدينة تلمسان ليستقر بها ويموت على ترابها عن عمر يناهز الخمسين عاماً وذلك في سنة ١٤٩٤م.

ونعود لسيرة يحي النيار الذي تنكّر له ملكا قشتالة ولم يلتزما ببنود المعاهدة ولم يفيا بوعدهما كما هي عادتهما، ولم يعطوه الأراضي والممتلكات التي اتفقا عليها وقد ذكر ذلك في وصيته لابنه، كما سلب منه ملكا قشتالة عدة أراضي كان قد ورثها من أبيه وهكذا توفي خائناً، طامعاً جاحداً وحيداً في منطقة اندرش في ٦ فبراير ١٥٠٦م، بعد أن ساهم مساهمة فعالة في سقوط مدينة غرناطة.

ولنا أصدقائي وإخواني في تاريخ وسير الأولين عبرة ودرس، فكانت تلك نتيجة الخيانات ونهاية خائن باع وطنه ودينه وأهله وذمته لمن لا ذمة وعهد له فخسر دنياه وآخرته... علّموا إخواني أولادكم أن حب الوطن هو الأسمى والأبقى وهو الانتماء الأول والأخير، فداءً له كل قطرة دم وكل روح عزيزة في سبيله تهون ليبقى المجد والعزة له.

ولا غالب إلا الله.



# «رمضان في ظل محاكم التفتيش الإسبانية».. معاناة أمة

انقلبت الاوضاع في الأندلس إثر سقوط آخر معاقلها الإسلامية (غرناطة)، ومن هنا بدأت معاناة أهل الأندلس المسلمون، وبدأت القرارات المجحفة لمحاكم التفتيش الإسبانية، فحرمتهم بدايةً من لغتهم ودينهم وأجبرتهم بذلك على التنصير والتعميد قسراً ومحت اسمائهم العربية واستبدلتها بأسماء إسبانية، وجردتهم حتى من لباسهم العربي وعاداتهم وتقاليدهم وسلبتهم عروبتهم وهويتهم الإسلامية ونعتتهم بنعوت تحقيرية إمعاناً في إذلالهم.

وعلى إثر هذا كله حُرم أهل الأندلس من صيام شهر رمضان، طبعاً بقرار من الحكومة الإسبانية وكانت محاكم التفتيش في مثل هذا الشهر أو المناسبات الدينية الإسلامية الأخرى تشدد الرقابة على الأندلسيين والويل الويل لمن كُشف أمره وهو يمارس شعائر الإسلام، وبرغم هذا التشديد والمعاناة لم يستسلم الأندلسيون وآثروا مواصلة شعائرهم الدينية والمحافظة عليها، فكانوا في شهر رمضان يتجهون باكراً صوب الحقول والبساتين وهم صائمين، حتى يكونون بعيدين عن أعين محاكم التفتيش وأيدي رجالها، ولا يعودون إلى ديارهم إلا بعد الغروب وقد أفطروا في الحقول، وبهذا حاولوا قدر الامكان أن يتمسكوا بدينهم الذي أورثوه إلى أحفاد الأحفاد سراً كما علموهم أيضاً لغة أجدادهم وكانوا يطلقون على أبنائهم أسماء عربية سراً إلى جانب اسمائهم الأعجمية علناً لإرضاء محاكم التفتيش، وبرغم حذر الأندلسيين في هذا، إلا أن أعين الوشاة وغدر الجيران الحاقدين، كانت كالمخبر للمحاكم وألقوا بذلك القبض على عدد لا يستهان به من الأندلسيين وساموهم سوء العذاب وأحرقوهم وهم أحياء جماعات وفرادى في ساحة باب الرملة بغرناطة ليكونوا عبرة لغيرهم من الكفرة والخارجين على دين الرب على حسب تعبير محاكم التفتيش، وبرغم كل ذاك العذاب والرقابة نجح مسلمو الاندلس في الحفاظ على دينهم إلى اليوم في شبه الجزيرة وأحفادهم اليوم يفخرون بمدى عظمة أجدادهم وقوة صمودهم.



# «التاريخ يسطَره الأقوياء»..
# لكن الحقيقة تأبي أن تندثر أو تموت

فهي من تحت الأنقاض تخرج لتكون شاهدة على مجد حضارة ما والرقي الذي وصلت إليه (كمدينة الزهراء من تحت الأنقاض بُعثت من جديد نفضت عنها التراب وقامت لتقول الكلمة الفصل بأننا يوماً كنا عظماء ولم ترتق حضارة لتفوقني جمالاً) .

وهي كتب ومخطوطات تخرج للضوء لتشهد على النبوغ الفكري الذي وصل اليه علماء تلك الحضارة (كتب الزهراوي وعباس بن فرناس وابن رشد وغيرهم من علماء المسلمين التي أضاءت بعظيم معرفتها العالم المظلم الجاهل لتقود اليوم نحو السيادة، وهذه كانت حقيقة كيف كنا وكيف كانوا ولازالوا ولازلنا، والله غالب).

هي أوراق بردى مبعثرة هنا وهناك مخفية في أسقف البيوت وداخل الجدران وبين الشقوق لتحكي سيرة حياة ومعاناة شعوب تلك الأرض من الظلم والاستبداد والقهر والتسلُّط الذي جرّدهم من حقوقهم وإنسانيتهم وعرّاهم من هويتهم وألغى كيانهم حتى صاروا كالعبيد بل هم أقرب إلى أجساد هائمة بلا روح (تلك حكاية الأندلسيين بعد عزهم ومجدهم، أوراق تروي حكاياتهم وألمهم وقهر الغربة داخل الوطن، والأقسى غربة الذات التي عاشها كل أندلسي صادف تلك الفترة القاسية والمحنة المؤلمة لسقوط الأندلس واستبداد محاكم التفتيش بالأمر)..

وهكذا مهما أخفى ذاك المنتصر الحقائق التاريخية وزيّف وسطّر وكذب، فالحقيقة تأبى أن تخون أصحابها، تأبي أن تندثر أو تموت.






الأندلس
انتهي

# من غرائب وعجائب ونجائب الدبلوماسية الأندلسية

## سفارة الشاعر الأندلسي الغزال إلى الدانمارك



صلاح عبد الستار محمد الشهاوي - مصر

ورد أن أقدم سفير شاعر عربي إلى أوروبا هو السياسي والدبلوماسي اللبق شاعر الأندلس وحكيمها المبدع يحيى بن حكم الغزال الجياني من مدينة جيان JAEN شرق مدينة قرطبة، لقبه بالغزال الأمير الأندلسي عبد الرحمن الأوسط (ت: ٢٣٨هـ/ ٨٥٢م) لوسامته بقوله: «جاء الغزال بحسنه وجماله». عُمر الغزال نحو مائة عام (١٥٤-٢٥٠هـ/ ٧٧٠-٨٦٤م) عاصر خلالها خمساً من أمراء الأندلس: الداخل وهشام والحكم والأوسط ومحمد، يقول:

أدركت بالمصر ملوكاً أربعة

وخامساً هذا الذي نحن معه.

والمصر هنا هي العاصمة قرطبة، قضاها متأدباً نابهاً في مطلع شبابه، ثم عالماً وشاعراً معظماً بين أعلام عصره، وكان رجل دولة يعتمد عليه الأمراء في بعض المناصب الإدارية والمالية، وأحياناً في المهمات السياسية أو الدبلوماسية العظام كالسفارة إلى غيرهم من الملوك.

في مجال السفارة كان الغزال ذا تجربة وخبرة، ففي عام ٢٢٥هـ/٨٤٠م تولى سفارة دبلوماسية للأمير عبدالرحمن الأوسط إلى القسطنطينية، سافر إليها بحراً من ساحل الأندلس الشرقي للقاء إمبراطورها توفلس THEOPHILUS، وفي عام ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م أرسل ملك النورمان هوريك HoRIC سفارة إلى الأندلس أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط، تطلب صداقة الأندلس بعد هزيمة النورمان في هجومهم البحري المفاجئ على شواطئ الأندلس الغربية عام ٢٢٩هـ/ ٨٤٣م فأجابهم الأمير عبد الرحمن الأوسط بسفارة شهيرة برئاسة الغزال (أحد رجالات الأندلس المشهورين في الأدب على امتداد الوجود الإسلامي بها. وأحد الشخصيات المشهورة في عصر الإمارة الأموية، ذكي حاضر البديهة لطيف المدخل. توافرت له الكثير من صفات السفراء التي حرصت عليها قواعد اللياقة العربية الإسلامية منها: أنه كان ذا نسب رفيع يرتفع إلى بني بكر بن وائل، أي أنه كان من أبناء البيوت العربية الأصيلة).

وكانت الدولة الإسلامية تهتم اهتماماً كبيراً بأن يكون سفرائها من أصحاب الأصل العريق ليكسبوا سفاراتهم المهابة والجلال. وفضلاً عن ذلك اتصف الغزال بأنه ذو جمال ظاهر، وكان إلى جمال وجهه رجلاً طويلاً عريضاً ظاهر الصحية، كثير النشاط.

واشتهر الغزال إلى جانب الصفات السالفة بأنه شاعر قدير، خفيف الروح، جرت أشعاره على ألسنة معاصريه، وبلغت مقدرة الغزال في الشعر أنه ألّف تاريخاً لأمراء الأندلس إلى عهده شعراً. وبذلك كان الغزال يتمتع بالعلم الواسع والقدرة على قرض الشعر، وذلك فضلاً عن مواهبه الخلقية. إذ اشتهر بالنزاهة في سائر الوظائف التي تقلّدها - كان متولياً أحد مناصب المالية في الدولة -، وغدا يحمل من الصفات ما يجعله خير مرشح للسفارة إلى الملوك.

وكان الأمير عبد الرحمن قد أعد مركباً حسن المنظر، كامل العدة، حمّله بالهدايا الطيبة لملك النورمان. وأخذ الغزال خطاباً من الأمير عبد الرحمن به تعريف بشخصه، وذكر لأغراض سفارته، ثم اصطحب معه مساعداً له يسمي يحيى بن حبيب، وركب في سفينته التي أبحرت مع رسل النورمان في سفينتهم قاصدين مقر ملك النورمان في الدانمارك.

يقول الغزال عن رحلته الشاقة مسجلاً لحظة عبور السفينة بحر المانش:

قال لي يحيى وصرنا بين موج كالجبال

وتولتنا رياح من دبور وشمال

شقت القلعين وانبتت عرى تلك الحبال

وتمطى ملك الموت إلينا عن حيال

فرأينا الموت رأى العين حالاً بعد حال

لم يكن للقوم فينا يا رفيقي رأس مال.

أبحرت السفارة الأندلسية برئاسة الغزال - صحبة الوفد الدانماركي - العائد من مدينة شلب، تمخر عباب مياه الأطلسي بمحاذاة الساحل الأندلسي الغربي شمالاً لتصل إلى الدانمارك عبر بحر المانش، وبحر الشمال وصولاً إلى الدانمارك.

وبعد رحلة شاقة وصلت سفينة الغزال، وقد سر الملك سروراً عظيماً بمقدم تلك السفارة وما كادت سفينة الغزال تلقى مرساها حتى أخرج ملك النورمان إليهم من يلقاهم بالترحاب. وقد استبدت الرهبة بالنورمان من عظمة السفارة الإسلامية وأعجبوا إعجاباً شديداً بالزى العربي وفخامته. ثم نزلت السفارة في إحدى دور الضيافة، وأحاطتهم السلطات النورمانية بكل تكريم وحفاوة.

وجرت للغزال في الدانمارك حكايات وطرائف ومواقف يشاد بها، تنبئ عن قوة تربيته الإسلامية، ونوعية بناء المجتمع الإسلامي الملتزم،

وعنها ينطلقون في كافة أحوالهم، لا تغلبهم الاعتبارات الدبلوماسية، رسوماً وأعرافاً وأوصافاً.

من ذلك ما حدث بعد استراحة السفارة الأندلسية بقيادة الغزال في البلاط الدانماركي حيث اتُخذت الإجراءات للقائها بالملك وأطلعوا على قواعد وآداب المقابلة، وكان منها الانحناء للملك عند الدخول، فأبى الغزال ذلك، مبيناً أن الانحناء لا يكون إلاّ لله تعالى، حتى لو لم تتم المقابلة، فما كان منهم إلا الاستجابة.

وفي يوم اللقاء، احتالوا على الغزال فوضعوا في صدر مجلس الملك مَدخلاً مقوساً منخفضاً، حيث لا يسع الداخل إلا الانحناء أمام الملك، ويكونون قد حققوا رغبتهم، لكن الغزال السفير المسلم الذكي الألمعي الأبي، أدرك الحيلة على الفور، فما كان منه إلا أن جلس على الأرض وزحف جالساً على مؤخرته حتى إذا جاوز الباب استوي قائماً والملك قد أعدّ له وأحفل في السلاح والزينة الكاملة، فما هاله ذلك ولا ذعره، وسلم على الملك ومضى في مجلسه داعياً ومستشهداً بالآية الكريمة: (كل شيء هالك إلاّ وجهه له الحكم وإليه ترجعون)، [القصص: ٨٨]. فأعظم الملك كلامه ووقاره وجرأته وسرعة بديهته وقال: «هذا حكيم من حكماء القوم وداهية من دهاتهم». وقال متعجباً من جلوسه على الأرض وتقديم رجله في الدخول: «أردنا أن نذله فقابل وجوهنا بنعليه، ولولا انه رسول لأنكرنا ذلك عليه، فحقاً من شخصية الرسول يعرف سيده».

وفي أثناء المفاوضات التي دارت بين الغزال والسلطات النورمانية أظهر السفير المسلم من اللباقة والحجة وسعة العلم ما أثار إعجاب النورمان. ثم أنه ناقش علمائهم وغلبهم ونازل شجعانهم وهزمهم. وأثبت الغزال أنه يجيد كثيراً من فنون الرياضة التي تجعله شخصية اجتماعية من الطراز الأول.

ومن طريف ما يذكر من أخباره أنه كان في مجلس الملك فطلب ماء ليشرب فجاءوه بكأس ذهبية محلاة بالأحجار الكريمة، فلما ارتوى صب بقية الماء ووضع الكأس في كمه، فلما أشار الملك – على لسان ترجمانه – أن هذا العمل لا يليق، أجابه: «إن أمراءنا الذين تبتغون صداقتهم قد اعتادوا، عندما يطلبون له كأساً ثمينة يمكنه الاحتفاظ بها، فإذا كانت عادة سادتي هذه غير متبعة عندكم فإني مستعد لإعادة كأسكم إليكم». وأظهر انه يريد إخراجها، ولكن الملك أشار عليه بحفظها.

ولما سمعت الملكة نود NUD زوجة الملك HORIC بذكر الغزال وما اشتهر به من خصال أرادت التعرف عليه، فدخلت مجلس الملك في أتم جمالها وزينتها محاطة بوصائفها الحسان، والغزال يصغي إلى حديث للملك، أظهر الغزال الانشغال عن حديث الملك ونظر إلى الملكة ليملأ عينيه منها، فأنكر الملك عليه ذلك. وأمر الترجمان بسؤاله فيه، فأجابه الغزال: «عرفه أني قد بهرني من حسن هذه الملكة ما قطعني عن حديثه، فإني لم أر قط مثلها». ثم مضي يصف جمالها وفتنتها، ويذكر أنها شوقته إلى الحور العين، فلما نقل الترجمان جوابه زاد حظوة عند الملك، وتوطد له رضا الملكة وإعجابها، لما أشعرها به في جوابه من أسباب الزهو والسرور.

هكذا برهن الغزال في تلك المناسبة أنه يجيد أساليب الدبلوماسية التي لا تخفى على السفراء في الوقت الحاضر، وهو ضرورة التقرب من الشخصيات الكبيرة في الدولة، ولا سيما عظيمات النساء فيها لتسهيل مهامهم السياسية.

وفي إحدى زيارات الغزال للملكة سألته عن سنه، وكان إذ ذاك قد جاوز الخمسين من عمره، ورغم ظهور المشيب في شعر رأسه إلا أنه كان حسن الصورة، جميل المنظر. وكان الغزال قد تبسط إذ ذاك مع الملكة وعرف اسمها وهو: نود. فقال الغزال مداعباً: «سني عشرون سنة!» فقالت الملكة للترجمان: «ومن هو ابن عشرين سنة يكون به هذا



الشيب؟». فقال الغزال للترجمان: «وما تنكر الملكة من هذا؟ ألم تر قط مُهراً ينتج وهو أشهب؟». فضحكت الملكة نود، وأعجبت من قول الغزال، الذي سجل دعاباته شعراً قائلاً:

قالت: أرى فوديه قد نورا دعابة توجب أن أدعبا

قلت لها: يا بأبي إنه قد ينتج المهر كذا أشهبا

فاستضحكت عجباً بقولي لها وإنما قلت لكي تعجبا.

ولم تقف دعابات الغزال مع الملكة عند هذا الحد، وإنما طلبت منه أن يصبغ شعره، مستخدماً الخضاب. ففعل الغزال ذلك وغدا عليها يوماً ثانياً وقد اختضب، فمدحت خضابه، وأظهرت استحسانها له. وقال الغزال في ذلك:

بكرت تحسن لي سواد خضابي

فكأن ذاك أعادني لشبابي

ما الشيب عندي والخضاب لواصف

إلا كشمس جُللت بضباب

تُخفى قليلاً ثم يقشعها الصبا

فيصير ما سترت به لذهاب

لا تذكري وضح المشيب فإنما

هو زهرة الإفهام والألباب

فلدى ما تهوين من شأن الصبا

وطلاوة الأخلاق والآداب.

ومن طرائف الغزال مع الملكة نود أنها يوماً أمرت له بهدية قيمة فأبي قبولها، فلما طلبت من الترجمان سؤاله عن السبب أجابها: «إن صلتها لجزيلة وإن الأخذ منها لتشريف، ولكن كفاني من الصلة نظري إليها، وإقبالها علي». فأمرت ترجمانها أن يخبره بأنه: «متى أحب زيارتها فلا يُحجب»، بل وزادت على ذلك أنها كانت تدعوه إلى مجلسها في معظم أيامه، لتسأله عن مشاهداته وتنقلاته وما عنده من التواريخ والأخبار. فإذا انصرف اتبعته بهداياها النفيسة من تحف وحلى وعطور. ومن فطنته أن سألها يوماً أن تريه طائفة من حسان قومها، فحققت له ذلك في بعض مجالسها، فجعل يتفحصهن من فرع إلى قدم، ثم اخبرها إنهن جميعاً جميلات، ولكن لا نظير لها بينهن ولا بين من رآهن من حسان القصر عند أميره في مزاياها ومحاسنها، ولا يقدر على وصفها غير الشعراء المبدعين، واقترح عليها أن يصفها هو بقصيدة يتغنى بها قومه، فاستخفها ذلك حتى وثبت فرحاً، وزادته إكراماً.

استغرقت سفارة الغزال إلى الدانمارك – ذهاباً وإياباً – عشرين شهراً، كانت مليئة بالغرائب والعجائب والطرائف، كلها تسجل ضمن المفاخر والأمجاد، سواء في رحلة الذهاب البحرية أو الإياب البرمائية، أو أثناء الإقامة هناك.

وبعد بقاء الغزال في بلاط ملك الدانمارك ما يزيد على السنة، عاد إلى الأندلس، عن طريق إسبانيا التي دخلها من خليج بسكاي قادماً من الدانمارك بحراً وبقي عند ملكهم نحو شهرين، ثم دخل الأندلس عائداً إلى قرطبة براً.

وبعد أن عاد الغزال إلى قرطبة عرض على الأمير عبد الرحمن ما وصل إليه من نتائج. وتعتبر تلك السفارة ذات أهمية عظمى في ميدان الدبلوماسية الإسلامية. إذ استطاع الغزال أثناء إقامته في بلاد النورمان، واتصاله بأهلها نساءً ورجالاً أن يعرف طبيعة حياة أولئك الناس، ولون معيشتهم. وترتب على التقرير الذي قدمه الغزال نشأة البحرية الأندلسية في بحر الشمال. إذ أدركت السلطات الأندلسية بعد دراسة تقرير الغزال ضرورة مواجهة سفن النورمان في عرض البحر قبل الهجوم المفاجئ على أرض الأندلس وإفساد إغارتهم المخربة. وقد دوّن الغزال وصفا لسفارته على أحد مؤرخي هذا العصر.

ومن جيد شعره:

كتبتُ وشوق لا يفارق مهجتي

ووجدي بكم مستحكم وتذكري

بقرطبة قلبي وجسمي ببلدة

نأيت بها عن أهل ودي ومعشري

سقى الله من مزن السحائب ثرة

دياركم اللاتي حوت كل جؤذر

بحق الهوى أقر السلام على التي

أهيم بها عشقاً إلى يوم محشري

لئن غبتُ عنها فالهوى غير غائب

مقيماً بقلب الهائم المتفطر

كأن لم أبت في ثوبها طول ليلة

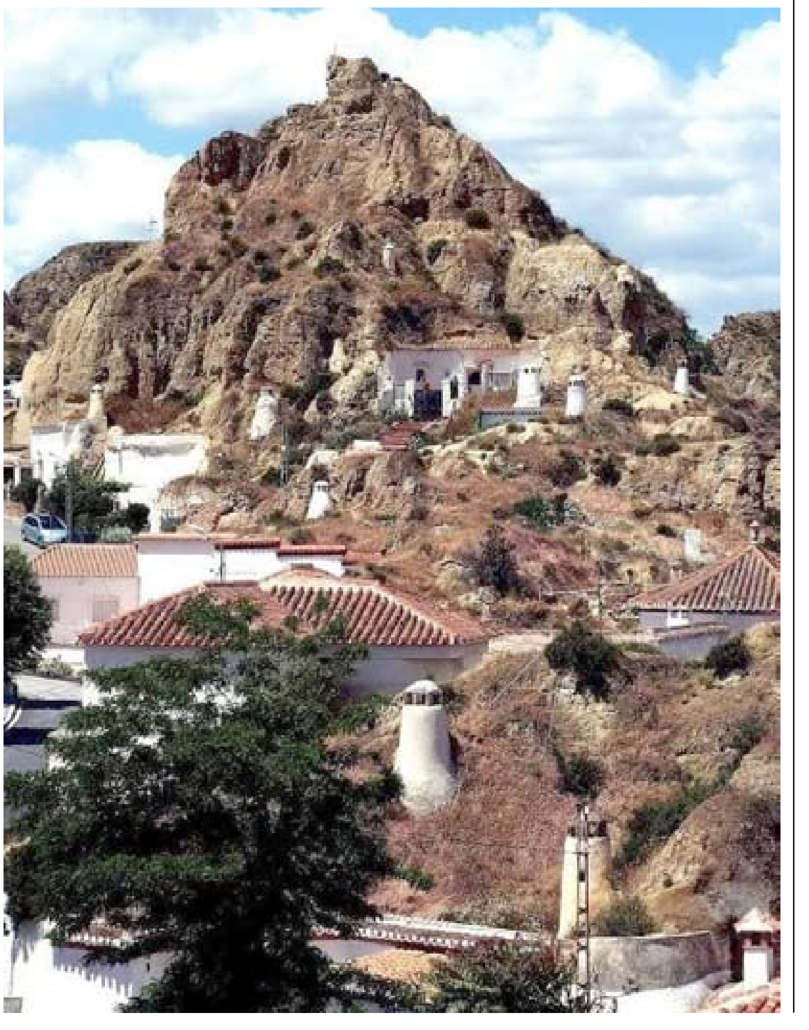
إلى أن بدا وجه الصباح المنور

وعانقت غصناً فيه رمان فضة

وقبلت ثغرا ريقه ريق سكر

أأنسى ولا أنسى عناقك خالياً

وضمي ونقلي نظم در وجوهر.





# النزعة الشعوبية في الأدب الأندلسي

ليندة بن عباس - الجزائر

تعد الأندلس من أجمل البقاع التي وصل إليها الدين الإسلامي وبسط فيها نفوذه، ورسخ فيها تعاليمه السمحة وترك فيها آثاره الخالدة، لأنه كان عاملاً أساسياً في ازدهارها ورقيها، إذ عرفت في كنفه تطوراً كبيراً على جميع الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية وحتى الأدبية، إذ عرف هذا الأخير (الأدب) تطوراً ملحوظاً بشقيه الشعري والنثري تزامناً مع التطور الاجتماعي لهذه البيئة الجديدة التي صبغته بصبغة خاصة ميزته عن أدب العصور الأخرى، لأنه كما هو معلوم أن الأدب هو مرآة عاكسة للمجتمع الذي يصوره وأداة للتعبير عن قضاياه وهمومه.

وقد كان حال الأدب العربي في هذه البيئة الجديدة لا يختلف عنه في الأمصار العربية الأخرى، فهناك أجناس أدبية بقيت على حالها ما عدا بعض التغيرات الطفيفة التي تتلاءم مع طبيعة العصر ومستجدات البيئة الأندلسية، وهناك أجناس أوجدتها ظروف وطبيعة المنطقة كفن الموشح والأزجال وغيرها.

ولعل من الظواهر الأدبية التي طبعت الأدب في العصر الأندلسي ظاهرة «النزعة الشعوبية»، وهي ظاهرة ليست بالجديدة على الأدب العربي لأنها رافقته في جميع عصوره بدءاً من العصر الجاهلي وحتى الأندلسي وإن كانت أكثر تجلياً ووضوحاً في العصر العباسي خاصة الأول منه وذلك لعدة أسباب وعوامل، لكن هذا لا ينفي عدم وجودها في العصر الأندلسي لأنها كانت حاضرة فيه كذلك، وهو ما سنحاول توضيحه في هذه الدراسة من خلال الإجابة عن الإشكالية التالية: كيف تجلت النزعة الشعوبية في الأدب الأندلسي؟.

قبل الإجابة عن هذه الإشكالية المطروحة لابد من الوقوف عند مصطلح الشعوبية وتطورها عبر العصور.

## ١- تعريف الشعوبية

### أ- لغة:

تكاد تتفق معظم المعاجم العربية على أن كلمة شعوبية تعني ما تشعب من قبائل العرب والعجم ففي لسان العرب نجدها «مأخوذة من الشعوب وهي: جمع شعب وهو ما تشعب من قبائل العرب والعجم وكل جيل شعب. وقد غلبت الشعوب بلفظ الجمع على جيل العجم حتى قيل لمحتقر العرب شعوبي. والشعوب فرقة لا تفضل العرب على العجم».

انطلاقاً من هذا التعريف اللغوي يتضح أن كلمة شعوبي قائمة على تفضيل فئة عن أخرى أو شعب عن آخر، وقد ارتكزت بالدرجة الأولى على الجانب العربي ومحاولة ضربه بشتى الطرق خاصة من قبل العجم.

أما مصطلح «شعوبي» فنجد أنه يعني كل من لا يرى للعرب فضلاً على الشعوب الأخرى ويصغر من شأنهم.

### ب- اصطلاحاً:

تعددت تعريفا هذا المصطلح (الشعوبية) بين الباحثين كل حسب وجهة نظره فنجد من التعريفات التي قدمت لها:

- تعريف شوقي ضيف: حيث يرى هذا الأخير أن الشعوبية هي «نزعة كانت تقوم على مفاخرة تلك الشعوب (أي الشعوب الأعجمية)، وفي مقدمتها الشعب الفارسي للعرب مفخرة تستمد من حضارتهم».
- أما أبو ملحم علي فيرى أنها عبارة عن حركة وتعني «تعصب كل شعب لقوميته وحضارته ضد العرب».
- وهناك من عرّفها بكونها «مذهباً جديداً وإن كانت بذوره قديمة ظهر نتيجة الخصومات الجنسية بين العرب والعجم، فقد أخذ كل منهما يفتخر بماضيه، ويعتز بحاضره، ويعتلي على خصمه بما فيه، وما

يكتنزه على ما يفتقر إليه خصمه».

انطلاقاً من التعريفات السابقة يمكن أن نقول إن الشعوبية وإن اختلف في تحديها بين هل هي نزعة؟ أم حركة ؟ أم مذهب؟، أنها ظاهرة نتجت عن تمازج ثقافتين مختلفتين يود كل منهما أن يبرز تفوقه على الآخر وبيان فضله عليه وقد ارتبطت أكثر بالعرب في علاقتهم مع الشعوب الأخرى.

كما يرى أحمد أمين أن أول استعمال لهذا اللفظ كان في العصر العباسي الأول ودليله أن هذه النزعة كانت خفية أيام بني أمية ، لكنها برزت أكثر في العصر العباسي.

٢- الشعوبية عبر العصور الأدبية:

عرف عن الإنسان العربي منذ القدم أنه يحب التفاخر والتباهي بكل ما يملكه سواء بفرسه أو قبيلته أو شجاعته، لأنه كان يرى في هذا التباهي والفخر علاء لمكانة قبيلته بين القبائل الأخرى، وهو بهذه الطريقة غير المباشرة وضع اللبنات الأولى للنزعة الشعوبية التي كان منطلقها النزعة القبلية؛ لأن كل واحد كان يحب أن تكون قبيلته هي المشهورة والمعروفة والأعلى مرتبة لأنها بذلك ترى لنفسها فضلاً على القبائل الأخرى.

لكن بمجيء الإسلام الذي وحد القبائل العربية تحت راية واحدة قلّت هذه الظاهرة لأنه كان ديناً قائماً على العدل والمساواة وأقر أن ميزان التفاضل بين الناس هو التقوى والعمل الصالح، ولكن هذا لا يعني اختفاء هذه الظاهرة نهائياً لأنه كانت هناك بعض الأشعار التي كان يستخدمها أصحابها للتفاخر بالدين الإسلامي وبيان فضله ومكانته وهجاء الكفار والرد عليهم، ومع «اتساع الفتوح أيام الأمويين، وتدفق الأموال على خزائن دولتهم، شعر العربي بعلاوة نفسه، فازدهى الأموي بمجده، وشعر أنه الأولى والأجدر، فغدا يميز بين مسلم عربي وغير عربي»، وهو ما فتح المجال لبروز هذه الظاهرة أكثر، خاصة بعد سقوط الدولة الأموية لأنها كانت تمثل «رابطة مروانية عربية معاً، فلما زالت تلك الدولة ظهرت بوادر من الشعوبية لأن الرابطة العربية ضعفت في ظل بعض الدول المستقلة من صقالبة وبرابرة وقد رأينا في العصر الأموي كيف كان الصراع بين المولدين والعرب مجالات للمناقضات الشعرية»، وبعد قيام الدولة العباسية عرفت هذه الأخيرة بروزاً واضحاً لأن هذه الدولة كانت أكثر انفتاحاً واتصالاً مع الشعوب الغربية التي استفادت من معارفها وعلومها عبر حركة الترجمة والبعثات العلمية كالفرس والهند والروم وغيرهم الأمر الذي دفع هذه الشعوب إلى أن ترى لنفسها فضلاً على تطور الدولة العباسية وجعلها تفتخر بما قدمته لها، ولعل من أشهر الشعراء الذين تجلت في شعرهم هذه النزعة «أبو نواس» وغيره ممن هجوا العرب والحضارة العربية الإسلامية حيث سخر من بكاء العربي على الأطلال، ومن الخيمة التي كان يقطنها، ومدح بمقابل ذلك القصور وتغنى بالخمر.

وبعد وصول الإسلام إلى إسبانيا وتشييد الحضارة الإسلامية هناك انتقلت هذه الظاهرة كذلك إلى الأدب الأندلسي شعره ونثره، لأنه كانت هناك طوائف وأجناس مختلفة غير عربية حاولت أن تظهر فضلها على العرب هناك، وتحقر من شأنهم وتصغرهم في نظر الآخرين، وهو ما أدى بالمقابل إلى ظهور فئة من الكتاب والشعراء العرب المسلمين حاولوا الدفاع عن العرب والإسلام ووقفوا في وجه كل الذين أرادوا التصغير من قيمة العرب وشأنهم.

٣- النزعة الشعوبية في الأدب الأندلسي:

ظل الشعر العربي في البيئة الأندلسية يحتل المكانة نفسها التي كان عليها في العصور الأخرى (ديوان العرب الأول)، فظهرت العديد من الدواوين الشعرية التي تغنى فيها أصحابها بمختلف المواضيع التي أوجدتها البيئة الجديدة، كما تعددت أغراضه وتنوعت كذلك بين الرثاء والمدح والوصف والهجاء وغيرها من الأغراض المعروفة لدى الشاعر العربي الذي ظلت حمية العروبة تحز في نفسه ويفتخر بها أينما حل أو ارتحل، وقد ظهر ذلك جلياً في تلك الأشعار التي كان ينظمها رداً على كل من يحاول ضرب العرب والعروبة، الأمر الذي أدى إلى ظهور النزعة الشعوبية في هذا الأدب أيضاً، وقد كان ذلك من خلال بروز ثلة من الأدباء والكتاب العجم الذين تغنوا في أشعارهم بمآثر قومهم وحاولوا تبيان فضلهم على العرب.

أ- النزعة الشعوبية في الشعر الأندلسي:

جاء في كتاب «أحمد هيكل» المعنون ب (الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة) إشارة إلى وجود هذه الظاهرة في الأدب الأندلسي ولكن تحت مصطلح آخر هو مناصرة العنصرية، والذي يعد المظهر الثاني للحركة الشعوبية.

وقد أشار إلى ذلك في قوله: «فقد كان لتلك الحركة العنصرية الناشئة بين العرب والمولدين سلاح من الشعر، إذ وقف بعض الشعراء العرب بالآباء إلى جانب المعسكر المنتصر للعروبة وراحوا يمجدون العرب ويفاخرون بهم وينافحون عنهم ويدعون إلى التكتل والقضاء على أعدائهم»، وهو نفس الشيء الذي قام به الطرف الآخر وأعني (الإسبان) الذين كانوا مناشدين للمولدين الذين وقفوا في وجه العرب وأخذوا يحتقرونهم في محاولة منهم إضعاف عزمهم والقضاء عليهم فأصبحت الحرب كلامية أكثر منها عسكرية أشبه بتلك الحروب التي كانت قائمة بين شعراء النقائض جرير والأخطل والفرزدق، ولكنها تختلف عنها في كونها كانت بين قومين مختلفين (عرب وعجم) و«وقد تكون هذه الحركة متأثرة بحركة شعوبية في المشرق ولكن طبيعة الحياة الأندلسية والظروف التي أحاطت بالأندلس من عرب ومولدين في تلك الفترة جعلت هذه الظاهرة ذات أصالة بعيدة عن مجرد التقليد لما كان في المشرق من مظاهر شعوبية».

وقد قدم الكاتب في كتابه هذا بعض النماذج الشعرية التي تجلي هذه الظاهرة أكثر في الأدب الأندلسي، ومن النماذج الشعرية التي أوردها ما كان بين مولد يلقب (بالعبلى) الذي هاجم العرب والشاعر العربي المدافع عن عروبته (الأسدي)، وقد كان ذلك أثناء هجوم العرب على منطقة إلبيرة الإسبانية.

قال الشاعر «العبلى»:

منازلهم منهم قفار بلاقعُ تجارى السّفىَ فيها الرياح الزغازعُ
وفي قلعة الحمراء ندير ربيعهم ومنها عليهم تستدير الوقائع
كما حصدت آباءهم في ضلالهم أسنتنا والمرهفات القواطع

فكان رد الشاعر العربي « الأسدي » عليه بقوله:

منازلنا معمورة لا بلاقع وقلعتنا حصن من الضيم مانع
وفيها لنا عز وتدبير نصرة ومنها عليكم تستتب الوقائع
ألا فأذنوا منها قريبًا بوقعة تشيب لها ولدانكم والمراضع

يدل رد الشاعر العربي (الأسدي) هنا على حبه الشديد للعرب وتمجيدهم، كما قدم الكاتب كذلك نماذج أخرى بين فيها رد الشاعر على المولدين الذين حاولوا ضرب العرب في حضارتهم.





كما أشار الكاتب في كتابه هذا أيضاً إلى أن النزعة الشعوبية لم تكن فقط بين الشعراء العرب والمولدين بل إنها كانت كذلك بين العرب أنفسهم بين الأمراء العرب والخارجين عنهم.

ب- النزعة الشعوبية في النثر الأندلسي:

عرف العصر الأندلسي انتشاراً واسعاً لفن الرسائل بمختلف أنواعها خاصة الأدبية منها، والتي نجح من خلالها أصحابها في إبراز مهارتهم وقدراتهم الإبداعية بما يتوافق مع البيئة الأندلسية، وتجدر الإشارة إلى أن النزعة الشعوبية في الأدب الأندلسي لم تكن مقتصرة على الشعر فقط بل امتدت كذلك إلى النثر خاصة في فن الرسائل الذي انتشر كثيراً في العصر الأندلسي بشتى أنواعه.

وقد جاءت الإشارة إلى النزعة الشعوبية في النثر الأندلسي في كتاب «إحسان عباس» المعنون (بتاريخ الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين) تحت مسمى النزعة الشعوبية، حيث ركز فيها على رسالة «أبو عامر أحمد بن غرسيّة » العجمي (الصقالبة) والذي عدّه أقوى صوت شعوبي في الأندلس والتي هاجم فيها العرب محاولاً من خلالها التقليل من شأنهم، كما أشار كذلك إلى بعض ردود الكتاب عرب على هذه الرسالة.

وقد كان أول هجوم قام به «ابن غرسية» على العرب مع «أبي جعفر بن الجزّار» في رسالة أعلن فيها شعوبيته من خلال ذمّه للعرب وافتخاره بالعجم حيث يستهل ابن غرسيّة رسالته متهكماً بابن الجزار «ذي الروي المروي، الموقوف قريضه على حللة أرش اليمن بزهد الزمن، كأن ما في الأرض من إنسان إلا من غسان أو من آل حسان»، وهو في هذه الرسالة يتهمه أنه أوقف مدحه على الأمراء فقط وأسياد القبائل من آل غسان وحسان، وأنه لا يرى الشعوب الأخرى ويحتقرها.

كما نعت العرب كذلك بأنهم رعيان ولا يملكون حرفاً شريفة سوى الرّعي، ولا يهمهم في هذه الحياة سوى اللّهو والتمتع بحياة الترف والبذخ والنساء، كما أن لباسهم رديء وطعامهم كذلك، وبمقابل ذلك يصف قومه بأنّهم يملكون حرفاً مهنية شريفة ويمجد شجاعتهم وأنهم أرستقراطيون في كل شيء، يهتمون بالعلوم والمعارف من فلسفة ورياضيات، وموسيقى، ومنطق وغيرها، وهو الأمر الذي جعل العديد من العرب ينتفضون ويردون عليه برسائلهم ك (أبو جعفر أحمد بن الدودين البلنسي) و(ابن منّ الله القروي) الذي سمى رده «حديقة البلاغة» و(ابن أبي الخصال) في رسالة سماها «خطف البارق وقذف المارق في الرد على ابن غرسية الفاسق».

ومن ردود (ابن الدودين البلنسي) عليه ما جاء في رسالته التي بدأ بالسبّ في قوله: «اخسأ أيها الجهول المارق، والمرذول المنافق، ابن أمك، ثكلتك أمك، وما علمت أنك سحبت عقالك لعقالك، وقدمت أول قدمك، لسفك دمك، وبسطت مكفوف كفك لسلطان حتفك».

أمّا ردّ (ابن منّ الله القروي) فقد كان عبر تذكيره بأصله، كما أنه «أظهر له فضل العرب حين ربته وليداً وعنيت بتخريجه وحسنت ثقافته، وعلمته اللغة التي بها يصول العرب ويجول.»، كذلك ذكّره أن الروم لا يعرفون من السخاء والوفاء سوى اللفظ فقط.

خاتمة:

عموما لا تختلف النزعة الشعوبية في الأدب الأندلسي عن غيرها في أدب العصور الأخرى، حيث أنها ارتكزت في مجملها على نفس المواضيع السابقة تقريباً فقد دارت كذلك بين العرب والعجم في محاولة كل منهما الإعلاء من شأن أمته وبيان فضلها على الآخر، خاصة من قبل الأجناس غير العربية وبمقابل ذلك وقف الشعراء والأدباء العرب في وجه هذا التيار وردوا عليهم، متفاخرين بالعرب والإسلام وبمجدهم وشجاعتهم.

وقد كان لهذه النزعة أثر كبير على الصعيد العربي خاصة؛ حيث أنها جعلت الشعور بالعروبة قوياً لدى الكتاب والشعراء العرب الذين وقفوا في وجه هذه النزعة وحاولوا التصدي لها من خلال تفنيد أقوالها وما تزعمه من افتراءات عبر الإشادة بحضارتهم العريقة التي كان لها فضل كبير على الحضارات الأخرى.

كما أكسبت هذه النزعة الأدب العربي تنوعاً مميزاً وإبداعاً فريداً من ناحية الأساليب والأنواع الأدبية وجعلتها أكثر قرباً من البيئة الأندلسية التي اكتست حلة عربية خاصة.



# حكاية الأندلس الحزين
# معالم تاريخ المغرب والأندلس



**د. وسام الدين محمد - مصر**

حديث حزين، ولكن التاريخ إن لم يُقرأ ويُفهَم ويُعتَبَر، فسوف يتكرر، وعندما يتكرر سوف يتكرر كمأساة لمن عاصروه، ولكنها سوف تصبح نكتة عن الأغبياء الذين لم يتعظوا ممن سبقوهم، فمشوا في نفس الدروب الزلقة، وانتهى بهم الحال خارج التاريخ؛ ولهذا السبب سوف أصحبكم هذا الشهر مع حكاية الأندلس الحزين.

وأول كتاب أقرأه معكم اليوم، كتاب المؤرخ والمفكر الدكتور حسين مؤنس وعنوانه (معالم تاريخ المغرب والأندلس)، وهو كتاب قد وضعه المؤلف كمقرر دراسي لطلاب التاريخ، ولكنه راعى في الوقت نفسه أن يكون بمثابة مرجع للقارئ الغير مختص. والكتاب جمع ما بين تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى نهاية عصر الموحدين، وتاريخ الأندلس من الفتح حتى خروج المسلمين منها، ولهذا فقد قسم الكتاب إلى قسمين، خص بالقسم الأول المغرب العربي، وبالقسم الثاني الأندلس.

فأما القسم الأول، والذي خصصه لتاريخ المغرب العربي، فيبدأه بفصل بمثابة مقدمة لموضوعه، عالج فيها مسألة مصادر التاريخ المغربي، ثم حدد الإقليم الذي يؤرخ له في المكان والزمان، قبل أن ينتقل إلى تمهيد يتناول جغرافيا هذا الإقليم وخصائص سكانه. ثم ينتقل إلى الأوضاع السياسية التي سبقت الفتح، وما كان من انفصال السلطة البيزنطية في افريقية عنه المركز، تلك السلطة نفسها التي تصدت للفاتحين المسلمين ولكنها فشلت في هذا، وكيف حاولت قيادات البربر الطامحة لوراثة الاستكبار البيزنطي صد الفتح، وتقلبات هذه المحاولات إلى أن استقر حكم الأمويين في شمال أفريقيا، ولكن بسبب سوء إدارة الأمويين وبعد المغرب العربي عن المركز، تندلع فيه الفتنة والثورات، وقد انتهت هذه الثورات بحالة من شبه الاستقلال بقيادة عرب شمال افريقيا.

ومع العباسيين، يكرس استقلال شمال افريقيا بظهور السلالات الحاكمة المحلية التي تملك سلطة الأمر الواقع وتدين اسميًا للخليفة العباسي، وأول هذه السلالات بني الأغلب، وفي الوقت نفسه يرصد

المؤلف تبلور الشخصية الثقافية المغربية الإسلامية من خلال دخول مذهب الإمام مالك إلى شمال افريقيا وتلقيه بالقبول، وظهور مدارس علمية للمذهب في حواضر المغرب المختلفة.

ثم ينتقل المؤلف إلى الفاطميين ودورهم في شمال أفريقيا، ابتداء من ثورة أبي عبد الله الشيعي، وتأسيس دولة الفواطم وعاصمتهم المهدية، ثم فتحهم مصر وانتقالهم لها، وحلول حلفاءهم بني زيري محلهم في حكم المغرب الأوسط، وما تلي ذلك من محاولة الفاطميين إعادة فتح شمال افريقيا بالاعتماد على حلفائهم من بني هلال.

وبعد انحلال سلطة الفاطميين وحلفائهم تظهر قوة جديدة ممثلة في المرابطين السنة، والذين نجحوا في توحيد معظم أجزاء المغرب وقسم كبير من غرب أفريقيا المسلم تحت سلطتهم، ثم وثبوا إلى الأندلس لرد العدوان عن مسلمي الأندلس، قبل أن تضعف دولتهم ويحل الموحدين محلها في شمال افريقيا وفي الاندلس، ومع انحلال الموحدين تظهر أولى علامات تراجع الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية.

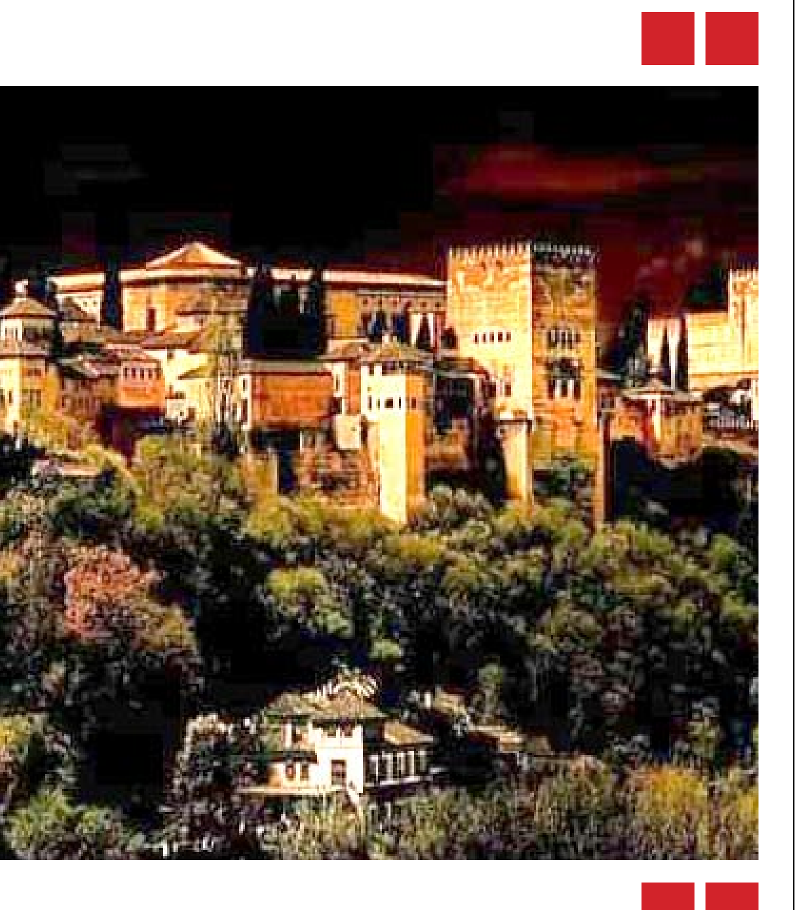
القسم الثاني من الكتاب، أوقفه المؤلف على تاريخ الأندلس الإسلامي، وبدأه بتمهيد تناول فيه مصادر تاريخ الأندلس تناولاً نقديًا، سواء كانت هذا المصادر عربية أم غير عربية، ثم يقدم نبذة عن جغرافيا الأندلس، ليمهد لمقصده بذكر تاريخ موجز للأندلس قبل الفتح والصراعات بين القوط الغربيين حاكمي الأندلس، لينتقل بعد ذلك إلى وقائع الفتح الإسلامي للأندلس بقيادة طارق بن زياد ولحوق موسى بن نصير به، ثم تلك المرحلة التي حكم الأندلس فيها ولاة تابعين للأمويين.

بعد ذلك ينتقل إلى تأسيس الدولة الأموية الأندلسية ومراحل تاريخ هذه الدولة، وبدايات ظهور التحالف الإسباني المسيحي المناهض للمسلمين، راصدًا التغيرات الثقافية في الأندلس ممثلة في انتشار مذهب الإمام مالك ومساهمة الأندلسيين في اثراء المذهب خاصة وفي الحركة الثقافية والعلمية عامة في الحضارة الإسلامية في هذه الفترة؛ منتقلاً من تلك الفترة إلى فترة لاحقة عليها زمنيًا وامتدادًا تاريخيًا لها وهي فترة الخلافة الأموية التي بدأها عبد الرحمن الناصر، وبلغت الأندلس الإسلامي فيه ذروة قوته السياسية والعسكرية والحضارية، قبل أن يتسنم السلطة ابن ابي عامر متسببًا بذلك في انحلال السلطة المركزية، وممهدًا لعصر ملوك الطوائف.

وعصر ملوك الطوائف هو تلك الحقبة التاريخية التي حكم فيها أقاليم الأندلس مجموعة من أمراء الحرب المتصارعين فيما بينهم، وقد استغل الاسبان صراعاتهم لتقويض الأندلس الإسلامي، وهو الأمر أدى في النهاية إلى استدعاء المرابطين الذين عبروا المضيق من شمال افريقيا ليردوا العدوان الاسباني، والأمر الذي استلزم انهاء عصر ملوك الطوائف وضم الأندلس إلى المغرب تحت حكم المرابطين؛ ثم يخلف الموحدون المرابطين في المغرب والأندلس، ولكن بعد موقعة العقاب ينهار حكم الموحدين، وتبدأ هجمة الاسبان في تحقيق أكلها، محاصرة الوجود الإسلامي في مملكة غرناطة التي يحكمها بني الأحمر، وهي المملكة التي يجتمع عليها تدهور الوضع الإسلامي والحصار الاسباني إلى أن تسقط، ويسقط معها ما تبقى من وجود سياسي للمسلمين في الأندلس.

وبحكم عملي الأكاديمي، لا استطيع إلا أن أنظر بالإعجاب لهذا الكتاب من حيث هو كتاب دراسي، فتصميم الكتاب، ومنهجية الكتاب العامة، ومقاربات تناول موضوعات الفصول، وما الحق كتابه به من فهارس وخرائط، يجعل من الكتاب، كتاب دراسي يقارع ما ينتجه أعلام النشر الأكاديمي حول العالم؛ ثم أن المؤلف أديب رشيق القلم، وقد أوتي قلمه بيانًا حوّل مادة الكتاب من مادة جافة لا مكان لها إلى حجرات الدرس، إلى نص ماتع لا تكاد تبدأ في قراءته حتى يأخذك إلى نهاية الكتاب، وهو ما مهد لهذا الكتاب أن يكون بمثابة المرجع لكل المهتمين بتاريخ المغرب والأندلس حتى ولو كان من غير المختصين بالتاريخ؛ ولكن هذا الإعجاب يأتي وقد خالطته مرارة عندما أتذكر الكثير مما تسمى ظلمًا كتبًا دراسية ومراجع، تزحم رفوف المكتبات، فكرتها مضطربة، غثها أكثر من سمين، ما بين منقول من مصادر قديمة دون تحقيق ولا تدقيق، وما بين منقول من مراجع أجنبية دون ذكر أو أمانة، وقلما أثبت المؤلف مصادره ومراجعه في المتن والمسرد بطريقة علمية، فإذا ألحق كتابه بفهارس الأعلام كانت هذه من المعجزات، فإذا اضطررت اضطرارًا إلى مطالعة مثل هذه الكتب، صدمتك لغة سقيمة، سمتها عجمة اللفظ وركاكة التركيب فيعسر عليك الفهم وتضيع الفائدة لو كنت ترجوها.

ومؤلف الكتاب، الدكتور حسين مؤنس، مفكر وأكاديمي ومؤرخ غزير الإنتاج الفكري، له مسيرة عملية وثقافية حافلة ربما يضيق بها هذا الموضع إن سردتها، ولكن كفى أن أذكر أن من أوائل من تولى إدارة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، كما كان وراء مشروع الألف كتاب، ولو لم يكن له إلا هذا العمل لكفاه، كما رأس تحرير مجلة الهلال القاهرية، وله العديد من المؤلفات، قسم كبير منها اوقفه على تاريخ الأندلس مثل الكتاب الذي نعرضه اليوم، وكتاب (فجر الأندلس)، ومن أهم أعماله كتاب (الحضارة) الذي افتتحت به سلسلة عالم المعرفة الكويتية، كما له كتابات في الشأن العام مثل كتابه (باشاوات وسوبر باشوات)، ولها اسهامات أدبية في القصة القصيرة.





# الإهمال الطبي في عصر ابن الخطيب

فدوى الأصيل - المملكة المغربية

الإهمال الطبي مشكلة من المشاكل الاجتماعية التي عانى منها المرضى قديماً، وما زالوا يعانون منها حديثاً؛ سواء قلت الكثافة السكانية أم كثرت، وسواء اختلفت الأزمنة والأمكنة أم تباعدت يبقى المشكل هو هو.

فهذا لسان الدين ابن الخطيب (ت ٧٧٦هجرية) عالم من علماء الأندلس في القرن الثامن الهجري يحكي لنا عن معاناته المرضية من خلال إحدى رسائله التي دونها في كتابه «ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب» وما لقيه من إهمال طبي في عصره من لدن أطباء الأندلس داخل أحد مستشفياتها؛ وهذا ما يدعونا إلى العجب من صنيع أطباء ذلك العصر البعيد عنا نحن بسبعة قرون خلت، وكأن ابن الخطيب المريض يصف ما يعيشه مرضى هذا العصر الذي تطور فيه الطب بشكل غير مسبوق على مختلف الأصعدة من: ظهور الأدوات الجراحية، والعقاقير واللقاحات، والعلاج بالأشعة، وحداثة الأجهزة الطبية... رغم كل ذلك؛ فالمعاناة مع الأطباء ما تزال مستمرة.

من خلال هذه المقالة الوصفية التي هدفها محاولة معرفة معاناة المرضى مع الأطباء في عصر ابن الخطيب سنرى كيف عاش معاناته مع المرض؟ وكيف تعامل معه الأطباء؟ ثم ما هي مظاهر الإهمال الطبي التي عاينها لسان الدين ابن الخطيب المريض مباشرة حين زار المستشفى؟

• أعراض مرض ابن الخطيب:

بمجرد ما أحس لسان الدين بالمرض أخذ يدب في جسمه، كتب رسالته يصف فيها أعراض مرضه ذاك قائلاً: «وذلك أن لي أياماً ثلاثة، أعاني ما أعاني، من الألم الذي ارتعاني، فأما قوتي فواهية، في درجات الضعف متناهية، وأما أفكاري فمتبلدة متناهية، أما آلام الفؤاد فما أدراك ما هي...».

فالمرض شمل جسمه ونفسيته، بشكل كلي، مما دعاه إلى زيارة المستشفى من أجل الشفاء مما أحل به.

• ابن الخطيب في المستشفى مع المرضين والأطباء:

ثم انتقل بعد ذلك إلى وصف حال الأطباء داخل المستشفى، قبل مباشرتهم لعلاج المرضى بدقة بالغة: من قيامهم بمراجعة دروسهم العلمية لأجل إتقان عملهم العلاجي، وضبط معلوماتهم الطبية لإعطاء الدواء المناسب للمريض، قال واصفاً: «فإذا دخل القوم حيّوا وقعدوا، وصوّبوا في الهذر وصعدوا، وربّما امتدوا طوع تعديهم إلى تناول الرقاع والكراريس بأيديهم، يدرسون أسطارها سرًّا. ويكفون ويكبون عليها إكباباً مستثمراً، فإذا ملّوا نهضوا على جادة أخرى واستقلوا، فأفاضوا في التوراة والزبور، والتلمود والعبُّور، وغير ذلك من فصول الأمر..».

٣- الانتظار الطويل قبل الكشف الطبي:

وتابع ابن الخطيب المريض واصفاً طول الانتظار، وإحساسه بالإرهاق؛ الشيء الذي جعله يزداد غضباً وسُخطاً، ويتظاهر بشدة المرض عليه ليلفت انتباه الأطباء بأنه لم يعد يَقْوَ على إهمالهم له، قال: ولقد أتحامل الخلاء، والضعف ظاهر الاستيلاء، ومجالس السهل مترادفة الولاء، فيذهلون عما ألاقيه من الغفاء، إلى أن ينتصف اليوم، ويريبهم التثاؤب والنوم، فحينئذ يتحرك القوم،...».

٤- المعاينة الطبية عن بعد أو الفحص السطحي:

ولما رأى الأطباء والممرضون من حال ابن الخطيب، وأنه أخذ يفقد أعصابه من الانتظار الطويل، قاموا سراعاً بمعاينته، لكنه (ابن الخطيب) تفاجأ من المعاينة السطحية دون تحسس لأطراف جسمه، أو قياس درجة حرارته أو غير ذلك؛ مما دل ذلك -عنده- على انعدام الإحساس بالمسؤولية الملقاة على عاتقهم، قال متذمراً متبرماً: «... ووالله ما أعملوا في العلاج قولاً، ولا نظروا خرا ولا بولاً، ولا قعدوا ولا شعروا هل أنا مريض أم لا...».

٥- مظاهر الإهمال الطبي:

من مظاهر الإهمال الطبي التي رصدها لسان الدين أثناء زيارته للمستشفى: اللامبالاة؛ من تنصل في إحضار الدواء من مستودع الأدوية، قال: «... وما ضر لو أشار منهم المشير بعلاج، أو أخذوا المذاكرة في نتاج، حتى يقيموا رسم الصناعة، ويأنفوا لها من طريق الإضاعة، أو يعدلوا هواءً، أو يبدلوا سبيلاً سواء،...».

ومن مظاهر الإهمال الطبي أيضاً: المعاملة السيئة للمرضى؛ يظهر ذلك من السلوك السيء، والتعامل الفج مع المرضى، فيكون بترك المريض على حاله دون علاج كافٍ تارة، وبالمعاتبة على تقصيره تارة أخرى.



# يوسف بن تاشفين في الأندلس

شموخ الحجازي - السودان

المرابطون أو الملثمون هم جماعة إسلامية بربرية أمازيغية أسست دولة المرابطين في المغرب وموريتانيا وغرب الجزائر والأندلس، أسسها يحي بن إبراهيم مع الفقيه عبدالله بن ياسين، نشروا في دولتهم الإسلام وأقاموا التعاليم الدينية في تلك البلاد بعد أن كانت تحكمها كاهنة ويعم فيها الضلال والفساد.

حكم دولة المرابطين يحيى بن إبراهيم، عبدالله بن ياسين، أبوبكر بن عمر، يوسف بن تاشفين، علي بن يوسف، تاشفين بن علي، وسقطت الدولة في عهد إسحق بن علي بن يوسف بن تاشفين.

في عهد يوسف بن تاشفين تمددت الدولة لتشمل الأندلس التي كان يحكمها أمراء الطوائف الذين قسموا الأندلس الي ثلاث وعشرين إمارة لكل إمارة أمير للمؤمنين. وكانوا متناحرين فيما بينهم، يتفق الواحد منهم مع النصارى على أخيه ويوالون الصليبيين بل ويخرجون لهم الجزية، شغلهم الشاغل ملذاتهم ومواطن اللهو والفساد. حتى أغار عليهم الفونسو السادس وأذلهم شر ذلة عندما استولى على إمارة طليلة بعد حصار دام لأيام قلائل على إثره سلمه أميرها السلطة شريطة ألا يؤذي أهلها أو ينهب أموالها.

لكن الفونسو سبى بناتهم وعاث فساداً في أرضهم ولم يحرك أحد من أمراء الطوائف ساكناً، بعدها طمع الفونسو في إمارة إشبيلية وأرسل إلى أميرها المعتمد بالله بن عباد خطاباً يطلب فيه تسليم جزء من الإمارة إضافة لزيادة الجزية، فغضب ابن عباد غضباً شديداً وقتل كل السفارة الصليبية في بلاده ما عدا الرسول الذي حمل إليه الخطاب، فلما علم الفونسو السادس بما حدث أقسم بأنه سيغزو الأندلس كلها ويحررها من المسلمين قصاصاً لسفارته وأحكم حصاراً على إشبيلية دام لأيام وشهور ولما لم يتزعزع المعتمد لحصاره أرسل إليه خطابا أذله فيه وقال: قد آذاني الذباب في بلادك، فإن شئت أن ترسل لي بمروحة أروح بها عن نفسي فافعل. أي أن جيش ابن عباد وشعبه وحصونه أهون من الذباب عند الفونسو السادس.

فرد عليه المعتمد بالله بن عباد رداً قوياً، لما قرأه الفونسو السادس خاف وانسحب بجيشه، قال له فيه: والله لئن لم ترجع لأروحن لك بمروحة من المرابطين.

استشار المعتمد بالله أبنائه في الاستنجاد بيوسف بن تاشفين فقالوا له: يا أبت أتدخل علينا في أندلسنا من يسلبنا ملكنا، ويبدد شملنا؟ فقال: أي بني، والله لا يسمع عني أبداً أني أعدت الأندلس دار كفر ولا تركتها النصارى فتقوم على اللعنة في منابر المسلمين مثلما قامت على غيري، حرز الجمال والله عندي خير من حرز الخنازير.

فقال له ابنه: يا أبت افعل ما أراك الله. فقال المعتمد بالله: إن الله لم يلهمني هذا إلا وفيه خير وصلاح لنا، ولكافة المسلمين.

عندما وصل الوفد المبعوث من المعتمد بالله كانت دولة المرابطين قد



توسعت إلى أن وصلت لمضيق جبل طارق وكانت عاصمتها مراكش، وافق بن تاشفين على نجدة المعتمد بالله بعد أن طلب منهم أن يسلموه الجزيرة الخضراء ليقيم فيها معسكره. فانطلق إلى الأندلس ومعه الجمال على السفن (وقد أخافت خيول الفونسو لضخامتها مقارنة بالخيول وبصوت رغائها الذي لم يسمع من قبل في الجزيرة)، مع سبعة آلاف جندي، فاستقبله المعتمد بالله خير استقبال ودعاه لإشبيلية لكن يوسف بن تاشفين قال له: إنما جئت ناوياً جهاد العدو فحيثما كان العدو توجهت وجهه.

علم الفونسو بمجيئ ابن تاشفين فأرسل رسالة تهديد طويلة وشديدة اللهجة رد عليها بن تاشفين بأن قال: «لن تسمع بأذنك ولكن سترى بعينك»، فخاف الفونسو وأعدّ جيشاً كبيراً يقدر بأربعين ألف جندي، وقيل ستين ألفاً بمساعدة البابا الذي طلب نصرته وكان جيشه من الألمان والإسبان. بينما قدر جيش المسلمين بعشرين ألف جندي وكان القائد العام لقوات المسلمين المعتمد بن عباد. والميمنة يقودها المتوكل على الله عمر بن الأفطس، أما الميسرة فيها أهل شرق الأندلس، والساقة فيها سائر أهل الأندلس. والقوه الاحتياطية كان يقودها ابن تاشفين وهي مؤلفة من نخبة أنجاد المرابطين وأهل المغرب وحرسه الخاص.

اتفق الفريقان على الالتقاء في سهل الزلاقة، ونظراً لتوجس الفريقين بثوا الطلائع وأرسل الفونسو السادس إلى المسلمين قائلاً: (الجمعة عيدكم، والأحد عيدنا لذا سيلتقي الجيشان يوم الاثنين)، ولعلم ابن عباد بغدره حذر ابن تاشفين منه، وفعلا في سحر الجمعة يوم ١٢رجب ٤٩٧ هجرية هجم الفونسو على جيش المعتمد بن عباد وضغط عليه نظراً لكثافة جيشه حتى وصل لخيام المرابطين ووصل الخندق الذي يحميها.

وفي ذلك الوقت وصل إليهم ابن تاشفين بقواته الاحتياطية من الخلف وقصد معسكرهم فأحرقه، وأخذ مدخراتهم وقتل حماة المعسكر، فلحق من فر منهم بالفونسو وجيش ابن تاشفين يدق الطبول لترويعهم.

امتد الحصار على النصارى إلى أن ألحق جيش المسلمين بالفونسو هزيمة أبادت كل جيشه ولم يخرج إلا بخمسمائة جندي قاموا بحمايته عندما هرب.

بعد انتهاء الحرب مباشرة رجع ابن تاشفين إلى مراكش لتلقيه خبر وفاة ابنه أبوبكر الذي ولاه على خلافة الدولة، وترك ثلاثة آلاف مرابط في الأندلس مع جيش المعتمد بالله بن عباد.

لم يتوقف شر الفونسو السادس عند هذا الحد فلما أدرك رحيل ابن تاشفين نسق أعماله مع القوات الصليبية القادمة من أوروبا وزاد بناية حصن (لييط) ليشكل خطراً على المعتمد بالله الذي عبر مرة أخرى إلى ابن تاشفين طالباً النجدة. لبى ابن تاشفين وعاد مرة أخرى إلى الأندلس ليحكم حصاراً حول حصن (لييط) دام لأربعة أشهر. وعندما تزعزعت عزيمة أمراء الطوائف وقلت المعونة اغتنم الفونسو الفرصة وأنقذ رجاله بتهريبهم من حصن (لييط) ولم يعد مرة أخرى لحدود دولة المسلمين.

في فترة حصار حصن (لييط) لاحظ أمير المسلمين يوسف بن تاشفين عدم إخلاص أمراء الطوائف وموت هممهم وأن أقصى ما يتمناه الفونسو الاستيلاء على الاندلس، والتمس ولاء أهل الأندلس والتأييد الشعبي الواسع له لذا قرر ضم الأندلس للدولة تحت حكم الطوائف.

جاءت أخبار ليوسف بن تاشفين تعلمه بغدر رؤساء الطوائف واتفاقهم مع النصارى للمحافظة على عروشهم خصوصاً حاكم غرناطة، فأرسل إلى ابن حزم الأندلسي وعلماء الإسلام يستفتيهم في أمر حكام الطوائف، فأقروا بوجوب عزلهم لأنهم ليسوا أهلاً للولاية. عبر ابن تاشفين البحر للمرة الثالثة وخلص الأندلس من أمراء الطوائف، ووكّل عليها والياً من المرابطين فوحد الأندلس وعمل على تعميرها وإفشاء السلام فيها، وبسببه تأجل سقوط الأندلس أربعة قرون كما أنه حمى الشرق من الزحف الصليبيِ الذي كان في ذلك الزمان.

كان يوسف بن تاشفين ورعاً، تعلم الدين من مجالسة ابن ياسين وسار على نهجه. وكان صاحب عقلية سياسية وإدارية يشار إليها بالبنان، توفي عن عمر ناهز المائة عام، ولم يتلقب بلقب أمير المؤمنين احتراماً لأمير المؤمنين في الدولة العباسية، لذا لقب بأمير المسلمين، رحم الله يوسف بن تاشفين وجزاه الله خير الجزاء بقدر ما ساعد المسلمين.


المراجع:

- كتاب (من أخبار المجاهدين.. انتصارات يوسف بن تاشفين)، تأليف حامد محمد الخليفة.
- عدد من المقالات على موقع البحث قوقل.
- عدد من الفيديوهات على موقع البث يوتيوب.

# بنية الحذف في شعر لسان الدين ابن الخطيب






**د. يوسف الرايس - المملكة المغربية**

(باحث في الأدب الأندلسي والنقد العربي القديم، دكتور في النص العربي القديم)


مهاد نظريّ:

يعدّ مبحث الحذف من المباحث المهمّة التي عالجتها الدراسات الأسلوبيّة الغربيّة والشعريّة الحديثة، بوصفها انحرافاً عن المستوى التعبيريّ العادي، وانزياحاً عن المألوف من الأنماط اللغويّة الموروثة ويصنّفه (جان كوهن) كالتقديم والتأخير ضمن الانزياحات السياقيّة، بينما الاستعارة هي انزياح استبداليّ.

وكما اعتنت به المدوّنة النحويّة والبلاغيّة العربيّة التراثيّة، فعدّته من الشجاعة في العربيّة، حيث أفرد له (ابن جنّيّ) باباً خاصّاً وسَمه بـ (بابٌ في شجاعة العربيّة)، استهلّه بقوله: «اعلم أنّ معظم ذلك إنّما هو الحذف، والزيادة، والتقديم والتأخير، والحمل على المعنى، والتحريف».

فهو آلية أسلوبيّة إجرائيّة يجري بها إسقاط بعض الكلام مع إبقاء ما هو دالّ عليه. ويعرّفه (الزركشيّ) بقوله: «إسقاط جزء الكلام أو كلّه لدليل». إذاً فمن شروطه البلاغيّة أن يكون في الكلام ما يدلّ على المحذوف وإلاّ كان تعميةً وألغازاً. وهو معنى قولهم: «لا بدّ أن يكون فيما أُبْقِيَ دليل على ما أُلْقِيَ». فهو إذاً لا يُحسَن في كلّ حال، إذ ينبغي ألاّ يتبعه خللٌ في المعنى أو فسادٌ في التركيب. لذا لابدّ أن يتأكّد المرسل من وضوح المحذوف في ذهن المتلقّي وإمكان تخيُّله.

والحذف يعدّ من دقائق اللغة، وعجيب سرّها، وبديع أساليبها، وباب من أبواب فصاحتها، يقول (عبد القاهر الجرجانيّ): «هو باب دقيق المسلك لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنّك ترى به ترْكَ الذكر، أفصحَ من الذكر، والصمتَ عن الإفادة، أَزْيَد للإفادة، وتجدك أَنْطقَ ما تكون إذا لم تَنطق، وأتمّ ما تكون بيانا إذا لم تُبِنْ». بل أكثر من هذا فإنّ تقدير المحذوف وإبرازه يصيّر الكلام غثّاً سفسافاً ونازلاً ركيكاً لا صلة بينه وبين ما كان عليه أوّلا من طلاوة وحلاوة. أشار (ابن الأثير الكاتب) إلى هذا بقوله: «ومن شرط المحذوف في حكم البلاغة أنّه متى أظهر صار الكلام إلى شيء غثٍّ لا يناسب ما كان عليه أوّلا من الطلاوة والحسن».

ويستمدّ الحذف أهمّيته من كونه يفجّر في ذهن المتلقّي شحنة فكريّة توقظه، وتجعله يتخيّل ما هو مقصود، وتحدث فيه استثارةً وتنبيهاً. و«كلّ إخلال بالبنية يخلخل الذاكرة، فتردّ الفعل، وتنبّه الذات إلى مكامن النقص، فتلجأ إلى الاستدلال أو إلى الاستنباط لملء الثغرات، وتشييد البنية النموذجيّة».

وهكذا يحدث تفاعل بين المرسِل والمتلقّي، ويتحقّق المبتغى من فحوى الرسالة الإبداعيّة التي تنفتح على كلّ التأويلات الممكنة. وهذا هو جوهر الخطاب الشعريّ ومكمن سرّه. فضلاً عن هذا فإنّ أهمّيّة دور الحذف تعظم وتكبر بما توفّره من ترابط بين الجمل ضمن الخطاب أو النّص.

جانب إجرائيّ وتطبيقيّ:

استخدم ابن الخطيب هذه الآليّة الأسلوبيّة في ديوانه بصورة واضحة ومتنوّعة، لكن بعض الحذف شكّل ظاهرة في ديوانه، والبعض الآخر جاء في مواطن قليلة، فمن صوره عنده:

١- حذف المسنَد والمسند إليه في الجملة الفعليّة:

حدّد ابن جنّيّ جوازات حذف الفعل في ضربين: «أحدهما: أن تحذفه والفاعل فيه، فإذا وقع ذلك فهو حذف جملة، وذلك نحو: زيداً ضربته، فلمّا أضمرت (ضربت) فسرته بقولك: ضربته... والآخر أن تحذف الفعل وحده، وذلك بأن يكون الفاعل مفصولاً عنه مرفوعاً به، وذلك نحو قولك: أزيدٌ قام».

والذي يعنينا نحن هنا الضرب الأوّل، ومن نماذجه في الخطاب الشعريّ الخطيبيّ، قوله:

قَسَمًا بِمَنْ يُبْدي الْوَرَى وَيُعيدُ وَيُقرّبُ الْمَأْمُولَ وَهْوَ بَعيدُ

فالشاعر في صدر البيت حذف الفعل والفاعل، واكتفى عنهما بالمفعول المطلق، والتقدير: أقسم قَسَماً. وهذا خلق في البيت تشويشا وتوتّرا، ويعدّ (كوهن) التشويش على الفهم منبع اللغة الشعريّة.

ومثله قوله في إحدى مدائحه السلطانيّة (لأبي الحجّاج):

يَمينًا بِيانِعِ وَرْدِ الْخُدُودِ وَعَذْبِ اللّمَى فِي الشّهيّ البَرُودْ

والتقدير: أقسم أو أحلف يميناً، فابن الخطيب هنا يُقسم بمواطن الجمال والعشق الأنثويّ (عَجَبًا لَهُ أَيَخَافُ فِي لَيْل).

ويقول أيضا:

عَجَبًا لَهُ أَيَخَافُ فِي لَيْلِ الْوَغَى تيهاً وَذَابلُهُ ذُبَالٌ مُشْعَلُ؟!

وقد تآلف في هذا البيت أسلوبان إنشائيّان: التعجّب والاستفهام. والاستفهام هنا خرج عن مقتضى ظاهره وأفاد الإنكار، فهو استفهام إنكاري؛ أي ينكر الشاعر على الممدوح الخوف والجبن في ساحة الوغى، وهو من هو في الجرأة والإقدام عزّ نظيرهما. ولقد عضد أسلوب التعجّب هنا هذه الدلالة الإنكاريّة.

وللاختصار والتوكيد فقد حذف الشاعر الفعل والفاعل من هذا المركّب الفعليّ، واستعاض عنهما بذكر المفعول المطلق، والتقدير: عجبت عجَبا.

ويقول في رثائه للسلطان (أبي الحجاج):

أَسَفًا على الْخُلْقِ الْجَميلِ كَأَنّمَا بَدْرُ الدُّجُنّةِ قد جَلاهُ تَمَامُ





والتقدير: أسفت أسَفاً، وأراد الشاعر بذلك الاختصار والاحتراز عن العبث بناءً على الظاهر مع ضيق المقام بسبب التحسّر والتوجّع.

ويقول في إحدى مداعباته الإخوانيّة:

رِفْقًا بِنَفْسِكَ سَيِّدِي رِفْقًا فالْقَصْدُ أَنْ تَبْرَا وَأَنْ تَبْقَى

والتقدير: ارفُق بنفسك رفقاً.

وقد وردت هذه الآلية الأسلوبيّة والظاهرة اللغويّة؛ ورود المفعول المطلق والاستغناء عن المسند والمسند إليه كثيرا في الديوان الخطيبيّ، وهي شائعة في التراث العربيّ شيوعاً كبيراً، ومن هنا يبدو التأثّر بالأساليب العربيّة التقليديّة المشرقيّة في الخطاب الشعريّ الخطيبيّ.

٢- حذف المسند إليه في الجملة الاسميّة:

تتكوّن الجملة الاسميّة من مبتدأ وخبر، وهما ضروريّان لإتمام المعنى، بَيْد أنّه يجوز حذف أحدهما إن دلّ السياق عليه وظلّ المعنى جليّاً. وقد جاء حذف المسند إليه (المبتدأ) في الخطاب الشعريّ الخطيبيّ بصورة جليّة ومتواترة، وخاصّة في مقام الاستئناف. وهذا شائعٌ في كلام العرب، كما يقول (عبد القاهر الجرجاني): «ومن المواضع التي يطّرد فيها حذف المبتدأ (القطع والاستئناف)، يبدأون بذكر الرجل، ويقدمون بعض أمره، ثمّ يَدَعون الكلام الأوّل، ويستأنفون كلاماً آخر، وإذا فعلوا ذلك، أتوا في أكثر الأمر بخبر من غير مبتدأ».

وجاء هذا النوع من الحذف عند ابن الخطيب لدواع دلاليّة - فنيّة اقتضها سياق اللغة الشعريّة، ومن أهمّها: الاحتراز عن العبث في سياق المدح، وخاصّة إذا علمنا أنّ ثلثيّ شعره مدحٌ. كقوله:

الطّاعِمُ الْكَاسِي وَرِفْدُكَ كافِلٌ والْعَالَةُ الْعُفَاةُ مِمّا يَثْقُلُ

والتقدير: هو الطاعم الكاسي، لكون الحديث هنا مفهوم ضِمْناً عن الممدوح السلطان (الغنيّ بالله)، وحذف المسند إليه هنا أتى لإضفاء الهيبة والجلال على الممدوح، وتوقيره وتعظيمه. ولا سيما أنّ الخبر أتى اسم معرفة، والمعرفة – كما هو معهود في النحو – تفيد التعيين والتشخيص والتحديد.

وقولـه:

صَرْعَى عَلَى عَفْرِ الرِّمَالِ وَلِيمَةً لِلْحُوتِ أَوْ لِلطَّيْرِ أَوْ لِلضَّيْغَمِ

والتقدير: هم صرعى، والحديث هنا يدور حول أعداء الممدوح الصليبيّين الذين هزمهم الممدوح -كما تشير عتَبة النصّ الاستهلاليّة- في الوقيعة البحريّة (بالروم) من عام أربعين وسبعمائة. وكأنّ الشاعر لا يريد أن يقول (هم) إمعاناً في تجاهلهم، وتقليلاً من أهمّيتهم، لأنّ الضمير المنفصل يعطي أهمّية للشيء، وجاء بكلمة (صرعى) نكرةً لتفيد العموم والشمول، فكلّ من تطاول على الجناب السلطانيّ الشريف فجزاؤه جزاء هؤلاء.

وكما في البيت عن طريق (البرهان بالخُلْف) إشادةٌ بجرأة الممدوح وقوّة جيشه.

ويقول أيضا:

الْعَدْلُ، وَالشِّيمُ الْكَرِيمَةُ، والتُّقَى وَالدّارُ، والأَلْقَابُ، والْخُدّامُ

والتقدير: أنت العدل و...، ففي هذا البيت حذف المبتدأ، لأنّ المقصود به معلوم، وهو الممدوح، فالحذف كان لأنّ تقدير الكلام مفهوم ضِمناً، ولا حاجة لذكر ما هو معلوم، وكما يقول البلاغيّون: (فعدم الذكر هنا أفصحُ من الذكر)، لأنّ الذكر لن يضيف شيئاً جديداً للمعنى في هذا الموضع. وأفاد الحذف هنا الإجلال والتفخيم، والتوقير والتعظيم. وهذه الصورة من الحذف كثيرة في الشعر الخطيبيّ، وتشكّل خاصّيّة أسلوبيّة مطّردة ومتواترة.

٣- حذف المسند في الجملة الاسميّة:

وهو خبر المبتدأ، ومن نماذجه في الشعر الخطيبيّ، قوله:

لَعَمْرُكَ ما أغارَ على عَدُوٍّ كَجَيْشِ النَّصْرِ، بورِكَ مِنْ مُغيرِ

لعمرك: مبتدأ، فيه قَسَمٌ صريح، خبره محذوف وجوباً، تقديره: (لعمرك قسمي)، فجاء الحذف لدلالة الحالة ودلالة اللفظ، فأمّا الأولى لأنّ صيغة القسم (لعمرك) تفيد القسم في كلّ مواضعها، حتّى إن لم يتم التصريح بالقسم (قسمي/ يميني/ حلفي) بعدها، وأمّا دلالة اللفظ، فلأنّ اللام في (لعمري)، هي لام القسم الموصولة بالمُقْسَم به، وهي دلالة جليّة أمام المتلقّي، ولا داعي لذكرها حرصاً على الإيجاز والاختصار، وحسن النظم، والأثر الجماليّ الذي يحدثه الانزياح من خلال خلق بؤرة التوتّر الشعريّ.

ومثله، قوله:

لَعَمْرُكَ، ما يصْفو الزمانُ لِوارِدٍ وإنْ طالَ ما أَحْمى لَظَى الْحَرْبِ صفّانِ

٤- حذف (رُبّ):

كقوله:

وَعُصْبةِ شَرٍّ، مِنْ يهود، لَقيتُها يُجانِبُها داعي الْهُدى، ويُحاشيها

والتقدير: (ورُبَّ عصبةِ شرّ)، وأفاد حذفها الإيجاز والاختصار وسرعة الإخبار من دون الحاجة إلى استعمالها، خاصّة أنّ حذف هذا الحرف (ربّ) يأتي غالباً محذوفاً مقدّراً، فكان حذفه لدى الشاعر منطقيّاً. ويندرج هذا النصّ ضمن الهجاء الدينيّ، وهو قليلٌ جدّا في ديوان لسان الدين ابن الخطيب.

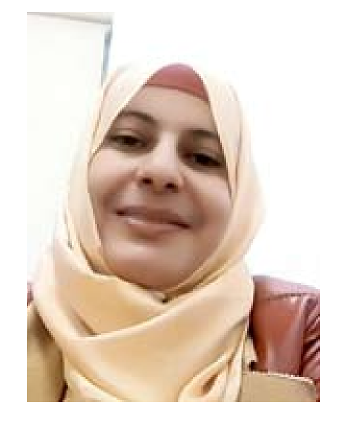
ومثله، قوله:

وَغَريبَةِ الزَّمَنِ الّتي آثارُها مَتْلُوَّةٌ بين (الْحَطيم) و (زَمْزَم)

ونكتفي بهذه العيّنات المنتقاة من الشعر الخَطيبيّ تمثيلَاً واستشهاداً وإلاّ فإنّ النماذج كثيرة لا يسعها هذا المقام.


مسارات أدبية

# ألبرتو المورسكي



رولا حسينات - الأردن

- افرح يا غوثي لقد عزمنا على إقامة حفل لختان ابننا صفوان، وطلبت من الخدم إعداد الموائد وسأشتري الكثير من الحلوى والسكاكر الأندلسية، وكثيراً من المطرزات والأشرطة المذهبة، وسأُعلِم كل نساء غرناطة بالنبأ و...

- كفى يا مريم كفى... بالله عليكِ كفى... دعي عنك الأمر كله، لا تخبري أحداً. قالها واستند إلى المقعد الخشبي المعشق بالقشور الفضية.

- ما الذي حدث يا ثغري؟ أخبرني بالله عليك، لأول مرة منذ عشر سنوات أراك هكذا! ولكن قل لي ألا يحق لي أن أفرح بختان الصبي... بعد أن احتفلنا بختان ابنتينا من قبل؟!. انحنت إليه بجذعها وهي تمسك بكتفه وبها أنّة حزينة...

- ليس الأمر كما تعتقدين، إن الأمر جلل...ابتلع ريقه الجاف وشفرات حادة تجرح حنجرته.

- وماذا هناك؟ أخفتني. ارتمت على الكرسي وقد وضعت يديها على وجهها، ودموعها ملأت وجهها.

- إنها الأوامر، أوامر إيزابيل يا مريم تريد أن تحاربنا في ديننا... يريدون تنصيرنا وإخراجنا من الدين... وضع رأسه بين يديه وأطرق في تفكير عميق.

- يا ويلي، وإن لم نفعل؟!. قامت من مكانها وهي تروح وتجيء وتفرك يديها ثم تضمهما إلى صدرها بحرقة وألم.

- سيحرموننا من الحياة يا مريم وينهبون كل شيء... قالها وهو معلّق عينيه بصفحة الساحة السماوية ذات المربعات والأشكال السداسية.

- يا لطف الله وماذا سيحدث للصغيرتين وللصبي... هل سيتركون دينهم؟!. قالتها وهي تقبض إليها صدرها...

- سيعذبوننا يا مريم وسيسلخون جلودنا، سيمثلون بنا وسيسيموننا سوء العذاب... الكثير من الأسر اقتيدت بأكملها إلى سجون التعذيب في غرناطة، وسلخت جلودهم ومنهم من أحرق على أعواد المقاصل...

- ربي ربي أغثنا... ماذا علينا أن نفعل؟؟ أمسكت يديه ترجوه ودموعها تغسل كفيه بماء يلذعه حرقة وألماً...

- سيدخلون البيوت يا مريم وسيحرمّون علينا ديننا وسيمنعوننا من صلواتنا ومن حديثنا ومن أرديتنا ومن كل شيء. قالها وهو يشدها إليه من كتفيها.

- وماذا سنفعل يا ثغري، لديك الكثير من المال والأصدقاء المسيحيين هنا وهناك، فأنت تاجر معروف، ادفع لهم ما يريدون وأنقذنا...ارتمت إلى صدره وقد استسلمت للقدر.

- نعم يا مريم هكذا كانت رغبتي منذ البداية غير أني لا أحب رؤية الكثيرين في العذاب وهم لا يملكون شيئاً... وإن عاجلاً أم آجلاً سينتهون منا ويلحقونا بالمعذبين... حمى التنصير يا مريم تسري في الأندلس كالطاعون، الجميع هالك لا محالة.

- لم لا نأوي إلى صديقك التاجر المسيحي اميليو إنه رجل طيب ويحب المسلمين؟

- نعم إنه رجل طيب آوى إليه الكثيرين ممن هربوا من التنصير وجعل لهم كنيسة أقام لهم فيها مسجداً ومقاماً، فاقتادوه إلى السجن بتهمة إيواء المرتدين... الأمور تزداد سوءا يا مريم... قومي وجهزي الصغار ستغادرون...

- إلى أين؟

- إلى تطوان ستلحقون بالمورسكيين، هناك ستكونون بأمان...

- وأنت؟

سألحق بكم قريباً لا تقلقي...قومي وجهزي الصغار على عجل فالقارب في انتظاركم...

ودعهم وهو يشدهم إليه والدموع تفرُّ من أعينهم، احتضنها وهو يطمئنها أن رب السماء سيحميهم وشعاع فضي يرمي بشباكه على الأجساد ذات الأردية الأرجوانية المخملية المنسحبة من البيت الأندلسي، ذي الأقواس المنقوشة واللوحات الفسيفسائية التي تكسو الجدران الشاحبة، وقد جفت بركتها ونضب منها الماء.

مدّ الليل ستاره فوق الطريق المتعرج، وقد غاب عنه القمر في غيمة صماء، والصمت يقلب الوجوه السوداء التي تغيب بالطنطور (قبعة مخروطية الشكل)، وهي تسرق من عيني الليل مكان أقدامها المتقاربة... وصوت البحر الهادر يطوي إليهم صرخات العابرين فوق صفحته المائجة، وقد ثارت صفحاته واختلط حبرها بالكثير من الدماء الباردة والأجساد الطافية فوق لجته الغاضبة، وكثير من القوارب الغارقة، حمل الموج أجنحتها المنكسرة إلى الشواطئ المليئة بالصخور السوداء المتراصّة وقد برزت كسكاكين نهشت ما تبقى من أحياء...

السكون الذي يركن في نفوسهم رغم انقباضها يكتم الكثير من النواح الأبكم في البيوت المتراصّة في غرناطة وشبح القهر يجثم فوق صدرها الأعزل.

خطوات الأجساد الخمسة اقتحمت السكون الذي يسبق العاصفة، وعلى جنبي الطريق الفرعي الضيق ترمقهم عيون البوم ونعيق الغربان ولفحة باردة سرت كالقشعريرة في أجسادهم العارية والصمت القاتل تسلل إلى القلوب الواجفة، وهي ترجع صدى على الطرقات المبلطة بقطع إسمنتية مصقولة... أنفاس الخائفين تزكم أنوفهم وهم يودعونه واحداً واحداً وداع المفارق وهو يطبع على رؤوسهم قبلة مغمسة بدموع حارقة، وهم يلفون أجسادهم الصغيرة بالكثير من الثياب، مودعين ما كان لهم على هذه الأرض بأنّة حارقة...

لم يكن أمامهم سوى أن يقفزوا إلى المركب الصغير الذي يحمل نعش أربعة آخرين فروا كما فروا من التعذيب، مخلين وراءهم كل ما لهم، وزفرة طويلة من البحر قطعت حبل المركب وكثير من وقع الأقدام المدججة بالسلاح تصرخ بهم وتحاول الإمساك بالحبل، لكن البحر الهائج التقمهم إليه وقذف المركب العالق بين الموت والحياة إلى قلبه يقلّبه كيفما يشاء، تسمرّ في مكانه وهو يرقبهم بعيني الصقر وهو يطوي صفحاتهم الواحدة تلو الأخرى، وبقي بين أيدي أصحاب التروس عالقاً كمسمار دقّ في الأرض فما استطاع فراراً، وما استطاع بقاءً... فقد جُرّت ساقاه وكأنما لم تحملاه من قبل، وهم يقودونه إلى مصير يعرفه جيداً...

- أيها الكاهن المبجّل أتعرف ماذا يسمونك في غرناطة؟

- وماذا يسمونني؟ معيد أمجاد النصرانية؟!

- لا بل فقيه الأجراس، لقد حوّلت المساجد إلى كنائس، وقدت الكثيرين إلى التعذيب... أتعتقد أن هذا يخدم رسالتنا المقدسة؟!

- بالتأكيد يا سيدي رئيس الكهنة، إنه يصبُّ في مصلحة قضيتنا، انتشار أخبار التعذيب بين هؤلاء النجس كفيل بأن يجعلهم يدخلون في النصرانية دون أن يكلفنا ذلك الأموال، كالتي دفعناها إلى كبرائهم من قبل...

- نعم، وكثير منهم رفضوها، أنت تعلم ذلك جيداً...

- وهذا ما يجعلني أجن لم رفضوها؟ لم تكن لتنقصهم شيئاً، فلديهم منها الكثير...!

- إنّ ما كنت تريده شراء دينهم بالمال، وهم لن يتركوه من أجل ذلك... وإن حدث ذلك فسيكونون نصارى بالاسم دون أن يثبت ذلك في قلوبهم...

- يا سيدي وما أدرانا نحن بما في القلوب، دع ذلك لمحاكم التفتيش فهي ستكشف عن ذلك بطرقها... وأطلق ضحكة هزت سكون الحجرة المقدسة من حولهم، وبقي شبحهما يطلقان أنفاس التعذيب في أرجاء الأندلس...

النهار الذي بزغ بخيوطه الرفيعة لم يكن ليحمل سوى رائحة الموت والشواء البشري، الكثير من الأجساد التي مرّ عليها وهم يجرونه، ما زال الدخان يفوح من جثثها السوداء المحترقة بأعواد المقاصل وما بقي من القش والأخشاب إلا الرماد الأسود الملاصق لتلك الكتل المتفحمة.

أغمض عينيه ولم يستطع منع أنفاسه من أن تشتم رائحة الموت التي ملأت تجاويف جسده العرجاء، وزفرة أطلقها لعلها تحمل أبناؤه، وزوجته مريم إلى البعيد...

زُج به إلى الزنزانة ذات القطع الحجرية المتراصة، وقد حُبس الظلام فيها طيلة نهار عقيم وليل طويل بارد... ألقي مكبلاً في الزنزانة الباردة وحمم الشوق والخوف تذيبان قلبه وتهرق ما تبقى فيهما من دموع، في الزنزانة الباردة التي يرن فها أنينه دون أن يسمع من حوله... إنصاته لداخله ودعاؤه المخلص لله جعله يدرك أنه ليس وحيداً، وأن هناك العشرات وربما المئات ممن زُج بهم في السجون، وجُردوا من حريتهم ليقهروا في دينهم...

من الغباء التفكير بتلك النقطة الوحيدة من الماء التي تسقط بين الثانية والثانية...

مرّ الليل طويلاً وأتبعه نهار واثنان وثلاثة... كم نهاراً مرّ عليه دون أن تُفتح زنزانته، دون أن يتبول دون أن يُدخل في جوفه شيئاً ولو من ماء صديد، وخبز يابس...؟

يريدونه أن يُجن؟ لن يُجن الثغري بهذه البساطة التي يتصورونها، أكبر تاجر للحرير في طول البلاد وعرضها، لن يموت دون دودة القز... دون أن يكون كفنه من الحرير، رغم أنه جُرد من كل شيء... لقد سمع بأن من لا ينصاع لأوامر تلك الشقراء الشيطانة، سيُجرد من كل ما يملك ولقد خلا كل شيء لهم، لم يحمل شيئاً منه لعائلته حتى أولاده الصغار، ارتدوا ملابس تقيهم برد البحر ووحشته فقط دون بذخ الحياة ورغدها، ولن ينصِّروه ولو سلبوه كل شيء... أليس ما اكتسبه كان من بره لوالديه اللذين عاشا عمراً في خدمة الفقراء؟، وكانوا يسمّون بحمامة البرّ وقد ورث عنهم ما كانوا يفعلونه، لقد أغدق بأمواله على الكثير من البيوت، وأعال الكثيرين وشغّل في تجارته الكثيرين، وكان يسير في قوافله من الهند إلى الأندلس عابراً أراضي الشرق من صحراء إلى بحار... طاوياً بُعد المسافات وهو يحمل الآلاف من القطع الحريرية والعطور واللآلئ والجواهر وغيرها من إبداعات فناني المشرق والهند وكشمير... لم يكن ليوقف سيل المال أحد فقد كان غدقاً من السماء، ولكن...

طأطأ رأسه وهو يسحب شهيقاً جافاً ويطلق زفيراً حارقاً كما لو حمامة ذهلت عن بيوضها بعد أن أضاعت عشها فلا هي وجدته ولا هي أنقذت الفراخ...

لقد تاهت به المحن ولم تنقذه سفينة نوح، يسهم تفكيره إلى تلك البيوت الفخمة التي كانوا يعيشون فيها، وإلى الساحات الكبيرة المليئة بالأسواق مما لم يخطر على بال ولم تره عين، الكثير من النفائس، والكثير من الضحكات، والقليل من الهموم، مجرد ماضي لن يعود، في ظل السواد الذي يعيشونه، وانتشار هؤلاء السفلة الذين يهزؤون بهم وبعقيدتهم، ولكنه لن يستطيع فعل شيء وأنّى له بذلك... فلا طاقة له اليوم بأيّ منهم...

ولكن هل يستسلم كما استسلم صديقه المقرب زكرياء ونال الكثير من النقود والمزايا وأصبح ذا حظوة في بلاطهم؟؟

لقد غيّر دينه هكذا ببساطة وأمِن العقاب، وغيّر اسمه واسم عائلته وأنهى تاريخ أسرته العريقة التي تنتهي ببني الأحمر، لقد أصبح فرينالدو دو ليبرازو، لم يكتف بهذه المهزلة بل دعاه ليحذو حذوه، عندما دعاه إلى بيته سراً وأخبره بضرورة أن يفعل كما فعل ليؤمن تجارته، وأكد له وهو يمسك ذراعيه بأنه وضع نور الله في قلبه، ولن يتخلى عن دينه أو صلاته، ولكن في السر، في السر يا صديقي... بعد أن ينام الخلق وينزل الله إلى السماء الدنيا سيراني وأنا عبده الفقير



أبكي وأبكي بحرقة منتظراً رحمته...
حينها رفع يداه عن ذراعيّه وأخبره: أنه مجرد جبان، وأنه لا يحمل بذور بني الأحمر سوى في تسليم البلاد، والخنوع.
غضب وكسر بقبضته اللوح الزجاجي الذي يظهر تاريخ أسرته العريقة، وجثا يبكي ويبكي والدم ينثعب من أصابعه التي انغرس فيها الزجاج، وهو يقول: أنت لا تفهم... أنت لا تفهم... رددها دون أن ينظر إليه وقد انسحب بردائه مخلفاً إيّاه بصمته وجبنه، وجدران بيته تردد: ستندم يا ثغري...ستندم.
خرج من البوابة المقوسة والمنقوشة بالآيات الكريمة والمطعمة بالذهب، وخرير الماء من بركته يسرق السكون ونحيبه الذي كان يطرق أذنيه بلا هوادة.
نعم، لقد سمع عن حالات التعذيب التي اجتاحت البلاد كالطاعون... سمع عن أبي اسحق اليهودي الذي اقتيد من دكانه وهو يحبو على الأرض تارة ويرفع ظهره المقوس تارة أخرى وهو لا يلوي على شيء، نحيبه وقراءته من صحاح التوراة لم تشفع له ولعمره الذي شارف على السبعين، وألقي به وعائلته إلى البحر هو والمئات من اليهود، الذين سكنوا المدينة التي سكنتها الأشباح وامتدت فوقها السحب الرمادية، عندما حكمها ملوك قشتالة، وقد احتبست الدموع التي أهرقتها النساء والأطفال والرجال... الكثير من الدموع كانت كافية لتسقي الجدران الصماء، لكنها لم تنبت زرعاً! ونعيق البوم، والغربان التي بقيت تحوم فوق البيوت التي هجرتها أرواحها...لم يكن أمامه سوى أن يحصد الخوف والفزع الذي دسّ أصابعه في قدره... أخذ يقلب كل ما كان وما سيكون، لم يصممون على أن يرتد عن دينه؟ ما الذي ينوون حقا فعله؟! إنه السؤال الذي لا يمكن لأحد الإجابة عليه سوى هؤلاء السفلة، الذين يتقنّعون باسم الدين.
- ما الذي تريده من الثغري أيها الكاهن؟.
- إن الثغري كنز لنا يجب أن نحافظ عليه يا سيدي رئيس الكهنة...
- وكيف ذلك؟!
- نقنعه بما نريد وله في قومه السمع والطاعة ولذا علينا استمالته إلينا.
- حسنا... وماذا لو...؟
- لا تقلق يا سيدي سنتمكن من إقناعه...
- إذاً لنوقف التعذيب وما تفعله محاكم التفتيش، ونركز على عليّة القوم كما فعلنا مع آخر سلالة بني الأحمر.
- لا تنسَ يا سيدي أنها أوامر الملكة إيزابيل، يجب أن نرهبهم، وأن نعذبهم، وأن نخرجهم من بلادنا... هذا ما سنفعله.
- والنصارى الذين آووا إليهم المورسكيين، لقد جعلوا لهم الكنائس مساجد بعد أن رفعت الأجراس على مساجد المسلمين.
- لا تقلق لقد سجنتهم وجردتهم من أموالهم.
- ولكن لا يحق لك ذلك مع أبناء جلدتنا...
- بلا يا سيدي بصفتي رسول البابا إلى هنا فيحق لي أن أقيم عليهم عقوبة إيواء المرتدين، ونحن لا نرحم من يرتد عن دين الرب.
الخيوط الأولى من الفجر كانت تحل بذور الثورة والكثير من الأنّات المخنوقة ورائحة الشواء والموت، الكثير من الصور كانت ترتسم أمامه على الجدران الصماء، وصورة مريم والصغار تراوده عن نفسه فيجهش بالبكاء... ساعات الوحدة قاتلة وفئران السجون تصأى من الجوع والبرد فكيف حاله هو؟! تأتيه أصواتهم من بعيد، ووقع أقدامهم، وصوت المفاتيح تُعمل في قفل البوابة الحديدية البكماء. وقف أمامه الكاهن ورجل آخر وبقيا يطيلان النظر إليه دون أن يرتد إليهما طرفهما.
- ما الأمر لم تنظران إليّ... أحانت نهايتي؟ كم أتوق إليها. ورسم فوق وجهه ابتسامة ساخرة. اشتمّها الكاهن في انكسارات الشعلة التي كان الرجل الآخر يحملها، في عتمة الزنزانة الباردة أمام زفرته انطفأت شعلة النور، أضاءها الرجل ثانية، فزفر زفرة ثالثة فأطفأها، امتدت أذرع الخوف إلى قلبيهما... فما كان من الكاهن إلا أن أمسك بخناقه، وقد اندفع إليه بشراسة وهو يتوعده:
- سأقضي عليك كما سأقضي على كل المورسكيين، سواء ارتدوا عن دينهم أم لم يرتدوا، فلن يوقفني أحد... ودفع به بقبضته ليلقيه إلى ذلك الرجل...
- إنه ليون الأسد... سيحسن إليك كثيراً يا ثغري... تلقته يدا ليون الأسد وهو يضحك: لكم تمنيت هذا اليوم، وها أنت بين يديّ فلتفعل بك يداي ما تشاء... هزت ضحكاتهم المجلجلة الزنزانة التي هبت فيها رياح صقيعية باردة...
لم يكن أمام الضعيف خيار، ولن يكون له ذلك، وهو يقاتل جيشاً بلا سلاح... بلا مال... ما الذي سيفعله أعزل مثله في ساحة الوغى؟! لكنه يمتلك قوة الإيمان... تلك القوة النورانية التي لا يمكن لأيّ كان مهما كانت سطوته وبأسه أن يجتثها من صدره، ويبقى مهما اختلفت النظريات الأقوى والذي تتحرك في فلكه كل مجسات العبودية والقتل... هذا الذي كان ينطق به الثغري بكل حواسه، بكل جوارحه، لن يستطيع أحد النيل منه حتى لو صارعه الموت فسيقضي عليه حتى لو كان الجسد هو الغاية، فلتسمو الروح ولتصعد أدارج السماء، حيث لا تبصرها أعين الشر ولا تطالها أيديهم...
الابتسامة الصفراء على وجهه لم تفارقه، وفنون العذاب تقلبه على



سيخ فوق الجمر، سيصمد سيصمد حتى النهاية، فلن يذله أحد مهما كان... شرفه، وعائلته... سلمهم لله في السموات، ولن يحرمه الله منّة حمايتهم جميعاً، ولعل البحر يكون شفوقاً على تلك المضغ التي آوت إلى حضنه منكسرة فارة من الموت إلى الحياة .

الأدعية التي كانت تطرق أبواب السماء، التصقت بصفحة البحر الهائج في حلكة تغشتها حلكة في بحر لجي، موج من فوقه موج، من فوقه سحاب... لم تكن مجرد آية قرأتها مريم يوماً في المصحف الشريف... لقد كانت واقعاً تعيشه، واقعاً هزها من أعماقها بعد أن فقدت صغيرها الذي سقط من المركب فور هروبهم، لقد تلقفتهم موجة غاضبة ضربت المركب ففر الصغير صفوان من بين يديها، لم تكن تستطيع الغوص من أجل البحث عنه، وعالمها المظلم الذي تسكنه يسكنه نحيب صغيرتين تشبثتا بكل ما أوتيتا من قوة بثوب أمهما، وهما يسألانها الحياة، الحياة التي لا تمتلكها، ولا يمتلكها أحد، وهي التي سلبتها صغيرها صفوان ورنين كلمة: أمي في أذنها ترجع صدى في صدرها المتفتق حزناً، بضرعها الذي ما زال ينبض لبناً ليُرضع الصغير رغم إتمامه العامين، والذي كانت تخفي لهفتها عليه كلما عنّ على بالها، وهو يرتدي ثوبه الأبيض الحريري المقصّب بخيوط ذهبية، والقبة المفتوحة المعشقة بالأحجار الكريمة، والأزرار اللامعة وتلك الكوفية البنية الصغيرة تميل فوق شعرات رأسه الكستنائية اللامعة، المسترسلة إلى أسفل الأذنين، ورائحة زهر الليمون والياسمين وزهر اللوز المنقوعة بماء الورد، التي تغسله فيها مدة من النهار، ثم تلف جسده بالصابون العطري الذي جلبته خصيصاً له من الشرق عبر تجارة الثغري التي كانت تهبها كل ما تحتاجه من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، والكثير من العطور التي مُزجت للصغير، وقد كانت تدهن جسده بزيت الكافور وزهر النارنج وزهرة العروس التي لم تكن تنبت إلا في أقاصي الشرق، نبتة وحيدة كانت تأتي بها، وتجعلها في الزيت البارد المائل لصفرة ناصعة، تشع في خضرة رائقة، في وعاء فضي منقوش على جوانبه الكثير من الآيات الكريمة التي تحصن بها صغيرها صفوان، وهي تتم دهنه، وتنتظر ذلك العرس الذي تتم به ختانه، كما صغيرتيها ميمونة وصفية... وقد أعدت العدة بالكثير من الحلوى والسكاكر الأندلسية، واشترت لذلك الكثير من الأقمشة الرقيقة الفاخرة المخرمة، التي تنتهي بشريط ذهبي منقوش عليه (عرس صفوان)، كل هذا كان يرجع صداه في قلبها الذي لم يعد يتمزق على الثغري وحده بل على صغيرها صفوان، وهي وصغيرتيها يتقلبن على موج من غضب، يبتلعهما بمائه ساعة، ويحلهم من عذاب آخر، ولكن في الحالتين يكويهم بزفرة مخيفة من وحشه الذي يجأر مطالباً بضحاياه... شدت الصغيرتين إلى صدرها وأحكمت وثاقهما حولها وهي تدس رأسها بين الرأسين الصغيرين، وتنفخ من أنفاسها لتطمئن القلبين الذين تسمع دقاتهما في جوقة من دقات القلوب، التي بلغت الحناجر... وبقيت الطمأنينة حجراً عالقاً في الحلق لا تستطيع بصقه ولا ارتجاعه، ولكنها تدعو الله قانتة: أن يحمي لها عائلتها، ويعيد لمّ شملهم من جديد...

والموج يقلبهم وقد تلقفهم أفق مظلم، فلا تعلم أيٌّ يكون هناك أفق آخر...؟

الحقيقة التي أدركها الثغري أن هناك أمراً جللاً قد حدث لعائلته، رائحة الخوف ورائحة الموت هي التي كانت تزكم أنفه، فلم يكون هو الذي يفقد كل شيء؟ لم لا يستطيع أن يبتعد قليلاً عن صور الموت التي تزف إليه بالمجان؟!

هو لا يهابه، هو يخشى على عائلته وحسب، ولكن أين تكون النهاية؟ لكنها إرادة الله سبحانه وهي التي قدرها له ولعائلته... فلن يرجو خلاف تلك المشيئة التي ارتضاها الله لهم جميعاً؟! الشق الرفيع من عينيه التي بالكاد يستطيع به إبصار النزر اليسير من النور فيهما، فقد تورمتا بفعل الضربات التي تلقاها من ذلك الذي يلقبونه الأسد، وهو رئيس الحرس، له طقوسه في التعذيب، هو لا يعلم إنه كان قد رآه من قبل؟! ولكن الأخير يُكنُّ له كماً كبيراً من الحقد... رآها الثغري بالفعل من تلك اللكمات التي تسببت بانتفاخ وجهه، وكسر أنفه وإسالة الدماء من فمه وتلك الألوان الزرقاء الداكنة والقرمزية، لا بد أنها تملأ وجهه، وجسده، وهو لا يشك أن الدماء التي تنزف من فمه هي ناتجة عن تمزق داخلي، من كثرة ما ناله من لكمات موجعة، ولكنه رغم ذلك لم يصرخ، لم يتأوه، لم يطلب المسامحة ليدخل في دينهم، بقي رابط الجأش، بقي محافظاً على قوة صموده، وعلى تلك الصفحة الباردة، والابتسامة الصفراء على وجه، والتي كانت تشعلهم لهيباً، وإن لم يكن يبصر ذلك، لكنه كان يشعر بقوة اللكمات تزداد، ونبرة الشتائم.

ولكنه صبر فليس له غير ذلك، فإن قدر له أن يموت، فليمت صابراً حتى يأتي أمر الله...

وهو الذي كانت مريم ومن في المركب ممن فروا من قبضة الموت المجنون يرجونه وهو يقلبهم على صفيح محترق، رغم العرق البارد الذي يتصبب فوق أجسادهم، ورغم الريح الصقيعية التي تتزامن في هذا الوقت من السنة، الشتاء البارد أقبل مبكراً إلى بلادهم، وكان أشد برودة مما كانوا يحتملون، ولكنها كانت متشبثة بالحياة ليس رغبة فيها... فما نفع الحياة من غير الثغري؟ ما نفعها من غير صفوان؟ ما نفعها من غير الأحبة؟ إنها حياة بلا أنفاس... إنها حياة بلا جذور... حياة لا نفع لها، وما تغترفه منها سوى البؤس والشقاء والهوان، ولا مزيداً إلا منها. ما تريده هو أن تُبقي على حياة الصغيرتين، وأن توصلهما إلى بر الأمان، ستظل مستيقظة حتى يطلع الفجر، فلا بد له أن يطلع مهما طال ليله... إنها سنة الكون التي تعرفها، وتؤمن بها ولا بد لها أن تتحقق، لم تعرف كيف غفت؟ لم تعرف كيف وصل الدفء إلى مفاصلها؟ وكيف تشعر بلسعات السخونة وكأنها في الجنة؟ فتحت شقاً رفيعاً من عينيها، وغشاوة بيضاء رقيقة تمرر نوراً كثيفاً، والكثير من الأخيلة، أغمضتهما وهي ترسم في نفسها ابتسامة، لا بد أنها في الجنة، لا بد أن الرحمة الإلهية رفعتها إليها، فلم ستكابد المشقة من جديد؟ تلك هي الأقدار وهي قد أخذت نصيبها الكامل منها، فلتدخل في رحمة السماء، ولتُرحم طفلتاها والثغري وصفوان.

أرجل كثيرة ترتدي أحذية سوداء طويلة العنق تصل إلى الركبتين توقفت عند شاطئ البحر، وهي تقلب الأجساد التي لفظها البحر، وتعيد الكثير منها ليبتلعها ثانية، لكنها لم تدفع بتلك الكتلة الصغيرة من البياض إلى جوفه، وهم يقلبونه ذات اليمين، وذات الشمال، ويضربون على ظهره وهم يرون ارتفاع الصدر وانخفاضه، ونيمة هادئة، تعجبوا منها لكنهم أدركوا أنه على قيد الحياة...

- ... إنها على قيد الحياة...

تروح وتجيء أحاديث حولها، وهي لا تملك القدرة على الحراك، التهاب المفاصل مدّ جذوره في جسدها المتصلب، ولم تستطع أن تحرك

ساكناً...

- هل تُحسُّ نبضها أيها الطبيب؟
- نعم، إنها بخير... تحتاج إلى بضعة أيام حتى تستيقظ، لقد مرت برحلة عظيمة، ونجت والطفلتين منها، كما الآخرين...
- الحمد لله أيها الطبيب، الحمد لله...

يد دافئة بقيت تتحسس يدها، تشعرها بالدفء والطمأنينة، ولا تنفك تردد: الحمد لله، الحمد لله...وصوت هادئ يرتل آيات من المصحف الشريف سرت كماء ساخن أدفأ جوفها البارد وأذاب ما فيها من جليد، أهرقت دمعة حارقة ذرفتها من عينيها...

- يا إلهي إنها تبكي...

آهاتها البكماء تُسمِع الجدران المزركشة، والنقوش التي تملأ كل شيء حولها، تلك الأردية الناعمة التي ترتديها ابنتاها، هي نفس الأردية الأندلسية التي كانت في بيتها، نفس رائحة الخضرة، والربيع، وشهور السنة ذات الليل المليء بالنجوم، وحفلات الغناء الحزين، الذي يُبكي القلب، وكأنها لم تفارق غرناطة يوماً، وكأن تطوان غرناطة، هؤلاء المورسيكيون الذين يروحون ويجيئون أمامها طيلة الليل والنهار، فروا بكل ما فيهم من قدرة، وهي فرت معهم، فرت لتموت بينهم، ويُحفر لها قبر وحيد دون قبر الثغري... تسمعهن يهمسن وهي كتمثال من رخام قد شرخه الحزن والفراق، والصغيرتان ترسلان ضحكاتهما إلى البعيد وهما تلعبان لعبة الدمى والأشرطة الملونة، كل شيء كما هو في بيتها، إلا من غرفة الصغير... لم تكن هنا، لم تشتم ريحها، لم تكن هناك القناديل المعشقة بالألوان التي تنير في الليل، لم تكن هناك الدمى النحاسية، ولم تكن هناك آلته الوترية الصغيرة التي أحب حملها، لم تكن هناك ضحكاته التي تنير حياتها، لم تكن هناك ساعات ترتيل المصحف الشريف وهو يردد وراءها بلسانه الندي الذي لم يعرف نطق الكلام بعد، لكنه عرف ترديد الآيات كما هي... كما يسمعها، ابتسامته، طلته، لم تكن بين جنبات البيت الأبيض ولا في البيوت المتناثرة على الجبل الأبيض، معلقة كما في الجنة، لم تكن أيٌّ منها تحمل ريح صفوان...

تلقي شباك عينيها للبعيد إلى ما وراء الأفق إلى حيث تبصر كل ذكرى عاشتها، وصغارها، والثغري، في بيتهم المليء بالدفء، وتغريد البلابل، وعبق النرجس وزهر الليمون، وهي ترتدي أجمل حلة لها وترقص للثغري، وترسل إليه جديلتها السوداء الطويلة الفاحمة، يفردها لها خصلة خصلة، ويجذبها إلى صدره، ويبقيان يعدّان النجوم في صفحة السماء من السقف السماوي والملاءة البيضاء ترسل أشرعتها، وتجذبها مع أنفاس الفجر...

تطلق زفرة حارقة وهي ترى صورة الثغري يرسل إليها بالسلام، مودعاً إياها، تشهق شهقتها الأخيرة والضوء الأخير من النهار تطويه السحب العالية، مرسلة مطراً دافئاً...

- أريد رؤية أمير البحار...
- ما الأمر يا سلين؟ ما الأمر؟
- إنه أمر جلل...
- أدخلوها...
- أنحني أمام أمير البحار وأدعو له بأن يحفظه الله...
- ما الأمر؟
- إنها المرأة التي استيقظت منذ بضعة أيام... هي امرأة الثغري أشهر تجار غرناطة، والأندلس.
- ماذا؟ وكيف حالها اليوم؟
- لا أعتقد أنها بخير فهي ساهمة طيلة الوقت، فالحزن مازال يسيطر على قلبها، أخاف أن يقتلها ضيق قلبها.
- أحضروا الطبيب ليطمئن على حالها، هيا، علينا أن نكرم مقامها، فالثغري لم يضنى على أحد...

لقد ودعت شرفة البيت الأبيض التي ذكرتها بما كانت تعيشه في غرناطة، الكثير من الأقواس والساحات الفسيفسائية، البلاط السداسي والخماسي، والأقواس المنقوشة بالكتابة الإسلامية، والبرك المائية التي اتخذت شكلاً مربعاً به أنصاف دوائر، ونافورة ماء تملؤها الورود... لكنها لم تكن تبصر من الشق الرفيع من روحها إلا صورتي صفوان والثغري، وتزكم أنفها رائحة الموت.

رائحة الدماء والعفونة جعلتاه يدرك أن عليه وداع مريم، ها قد حان الوقت للقاء الله، للإبحار في ملكوت الرحمة، لا يفيده الندم فهو لا يلوي على شيء، لن يكون كذلك الجبان آخر بني الأحمر وقد هانت عليه مئات من السنين، في حضارة بناها أجداده المسلمون... لن يُعرف بعد مماته سوى بالثغري الذي رفض أن يتنصّر، ورفض أن يرتد عن دينه...

- هيا يا ثغري لم هذا العناد أيها النبيل...؟ تستطيع أن تستعيد كل شيء، وتجارتك كما كانت ما عليك سوى أن تعلن تنصُّرك، وأنك خادم المسيح، وينتهي كل شيء، تنقذ بذلك أهلك وأقاربك وكل من تحب... أتريدهم أن يُعذبوا كما تُعذب؟! يا لك من جشع، انظر إليهم... أليس منظرهم يتفتق له الكبد؟!

جال بعينيه المتورمتين في السجن الكبير الذي ترتصف على جدرانه عشرات الأجساد الملقية رؤوسها وقد صُلبت على الجدران، وأخرى أدخل الخازوق في جسدها، ومن أجلست على كرسي التعذيب، والأنصال تخترق الجسد فيغرق البدن بالدماء، ليُصفى دمه ويموت، الكثير من الغرف الصغيرةً في حجم جسم الإنسان، بعضها عمودي وبعضها أفقي، فيبقى سجينها واقفاً على رجليه مدة سجنه حتى يموت، ويبقى سجين الغرف الأفقية ممداً بها حتى الموت، وتبقى الجثث في السجن الضيق حتى تبلى، ويتساقط اللحم عن العظم، وتأكله الديدان...

الكثير من الهياكل، الكثير من الجماجم، الكثير من الجثث، والقليل من الرحمة.

السجناء أكانوا رجالاً أم نساءً، تتراوح أعمارهم ما بين الرابعة عشر والسبعين...!

ماذا لو أذعن لهم لينقذ الكثيرين، عليه أن يتخذ قراره؟!.

- نعم، أريد أن أتنصّر...

حينها أطلق فقيه الأجراس ضحكات مجلجلة، وقد تأكدت نظريته بأنه بشرائه الثغري سيجعل الكثيرين يدخلون في النصرانية... مال برأسه إلى رئيس الكهنة وقال بصوت الحماسة والانتصار: أرأيت يا تالافيرا... أرأيت لقد صدقت نبوءتي؟!

ضحك الاثنان ومضيا، ومن خلفهما ليون الأسد وهو يمسك الثغري من ذراعيه...

ذاع الخبر بين سكان غرناطة: أن الثغري سيعلن تنصُّره، وأنه سيكون واحداً من أعوان الرب. لم يكن أحد ليصدق ذلك وبخاصة أن الثغري

معروف بنسكه، وتقواه، وهو لا يترك دينه بهذه البساطة، ولو دفع حياته ثمناً لها...

وقف المئات ممن نالهم الظلم والاضطهاد، وجعلهم يفتحون بيوتهم قسراً، ويتوقفون عن التكلم بالعربية، وقد دفع بعضهم مبالغ باهظة، ثم توقفوا... كانوا يخبئون الكتب الثمينة التي كانت يوماً شاهداً على ما قدموه من حضارة، ويخبئون المصاحف الشريفة في حفر يحفرونها في الأرض ويجعلونها بصناديق نحاسية، مرصعة بالجواهر، وفي الجدران... وكانوا متيقنين أن هؤلاء الأبالسة الذين يرتدون ثياب الدين لن يتركوهم وشأنهم بل سيقتلونهم شر قتلة... سرى الغضب بين صفوفهم وهم الذين رأوا في الثغري مثالاً للصمود، ولسان حالهم: أنهم سيثورون...

لكنه بتنصّره لن يكون لهم مثالاً بعد اليوم...

بين الحزن والسخط، كانت الأجراس تقرع وقد سار حشد من رجال الدين يترأسه فقيه الأجراس، وفي ذيله كان الثغري يسير رافعاً رأسه رغماً عن نفسه، وهو يرتدي ثوباً أبيض فضفاضاً، ليعلن عن نقائه، وانضمامه لصفوف أبناء الرب...

مرّ ببصره عليهم جميعاً، رأى فيهم الحزن والضعف والهوان والغضب الأبكم... أيُّ هزيمة نكراء هذه؟ هل يكون لهم منقذاً في الدنيا ومعذباً في الأخرى؟! صورة مريم تمرُّ أمامه، ضحكاتها، أغاني الصغيرتين، وألعابهما، وصفوان، ورائحته... والبيت الهادئ والضحكات الصيفية، والكثير...

يرسل ابتسامة ساخرة، وينظر إلى السماء، لقد حان الوقت وبصوت فيه أنّة المعذب، ورخامة فيها بقايا شجاعة نطق: أيها القوم، يا أهل غرناطة، يا أحفاد الأنبياء، اعلموا... ويطيل الصمت والكهنة ينتظرون، والوجوم يخيم بشبحه على الوجوه، والسماء الملبدة بالغيم تعتصر، والريح تزفر زفرة باردة، والجدران الصماء لا ترجع صدى...

وينطق: أنني مسلم، وعلى دين محمد، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله...

لم ينته من جملته الأخيرة إلا وقد وقبضته قبضة ليون الأسد، انتشلته من حنجرته، ليعلق على الأعواد، وتُضرم فيه النيران، والغضب يجتاح حي البيازين، لقد كانت شرارة الثورة تكالبت الأيدي والهراوات والقتل والإحراق... والسماء تبكي على من قضى، والماء يرتفع أعلى القدمين، وبحر من الدماء يسير مع نهر حردة...

الكثير منهم قد قُتل... والكثير قد فرّ إلى الجبال، إلى حيث يثورون مرة وأخرى وأخرى، لن يبقى الموريسكيون هكذا، لن يغيروا دينهم، ولن يرضوا بالظلم...

السماء التي بكت كانت تحمل صورة مريم والثغري إلى السماء على نعش من ياسمين وورود النرجس... والدموع تملأ وجه الصغيرتين، وكثير من الواقفين...

النحيب يملأ الصور العالقة في القلوب، صور الأحبة والمفارقين هنا... سيقيمون دولتهم في تطوان، سيطلون على غرناطة وطليطلة...

صمت أمير البحر طويلا ثم قال: آن الأوان لنساند الأندلسيين، سنظل نُغير على سواحل الأندلس ونقض مضاجعهم... سنثأر للإسلام... هيا يا رجال...

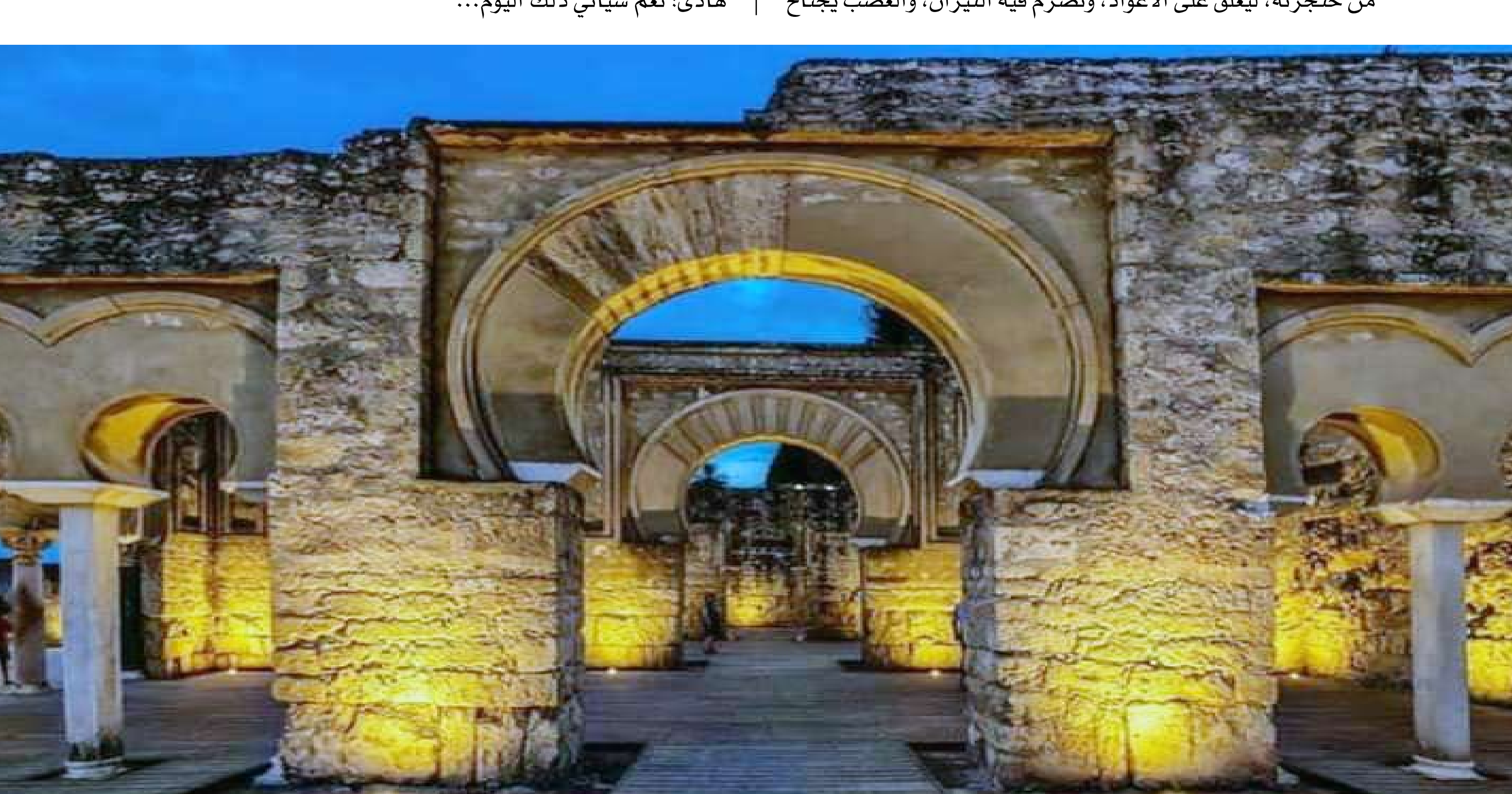
• هيا ... هيا... تعالت أصواتهم، وهم ينسحبون من موكب العزاء، وأعين النساء والأطفال تلهج بالدعاء: حماكم الله... حكماكم الله...

الأجراس التي تدق معلنة انتصار الكهنة وتلك الألسنة السوداء الفارة من النيران التي أحرقت الكتب، الكثير منها...وقد نبشت الأرض والجدران.

الكثير من كتب في الطب والهندسة حُملت إلى جامعة الكالا بأوامر من ذلك الفقيه، الذي رسم ابتسامة النصر وهو يلقي نظره إلى رئيس الكهنة وإلى الصغير الذي ارتدى البياض ورسم الصليب على صدره، وقد أرسل شعره الكستنائي فوق كتفيه... والأجراس تدق طبلة أذنه فلا ترجع صدى، وصوت من أعماقه يرتل بنعومة آيات تلامس شغاف القلب.

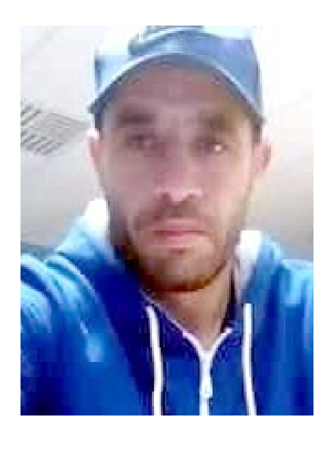
يسمع صوته الأجش وهو ينهض في نفسه الحماسة: إنه دورك يا ألبرتو الموريسكي... عليك أن تحمل رسالة الرب...

رمى الصغير بصره إلى السماء وشعاع من بين الغيوم السوداء سقط فوق صفحة وجهه البيضاء رسم فوق وجهه ابتسامة، وهو يقول بصوت هادئ: نعم سيأتي ذلك اليوم...



## قصة أندلسية قصيرة

# آخر زياتين غرناطة





مروان الزديني - تونس

أغلق جوزيف باب منزله المتواضع، واتجه نحو الزيتونة القديمة الموجودة أمام المنزل. استنشق نسيمها ولمس بعضاً من وريقاتها.
ثم أخذ طريقه صوب السوق «سوق غرناطة» حيث محله لصنع النسيج.
كان ضوء النهار قد بدأ لتوه بالتمدد، لكن الظلام ما زال سيد الأزقة والشوارع، وفي مكان ما، في لحظة ما، في شارع ما، من شوارع غرناطة..
وعندما كان جوزيف ماراً أمام أحد المنازل.
فُتِحَ باب ذلك المنزل وإذ بالخارج منه هو «ليو» جار جوزيف في السوق، فالتفت هذا الأخير لتحية جاره.

- صباح الخير يا ليو.
- صباح الخير يا جوزيف...

تبادل الجاران تحية الصباح، ثم عاد جوزيف لمواصلة سيره، فارتطمت قدمه اليمنى بحجارة، ودونما قصد منه هربت من بين شفتيه كلمة «سترك يا رب»...
استدرك بعدها جوزيف خطأه، فصمت للحظات ثم التفت خلفه ليتثبت إن كان «ليو» قد سمعه.
لكنه لاحظ أن ليو، أغلق باب منزله وانصرف، عندها حمد ربه سراً، وتابع طريقه نحو محله في «سوق غرناطة».
كان الوقت بحدود الساعة العاشرة صباحاً حين جلس جوزيف يستريح داخل محله، وفجأة دخل ليو جاره فألقى التحية، ثم جلس قريباً من جوزيف بعد أن دعاه لذلك.
تحدث ليو طويلا عن كساد السوق والتجارة بسبب الحرب الدائرة وتراجُع المدخول ثم قال مباشرة:

- يا جوزيف أنا بحاجة لمائة دينار لرغبتي بشراء حصان جديد، فهل من الممكن أن تقوم بإقراضي هذا المبلغ وسأرده لك حين أستطيع.

تلعثم جوزيف، ولم يعرف بما يرد أول الأمر ثم قال:

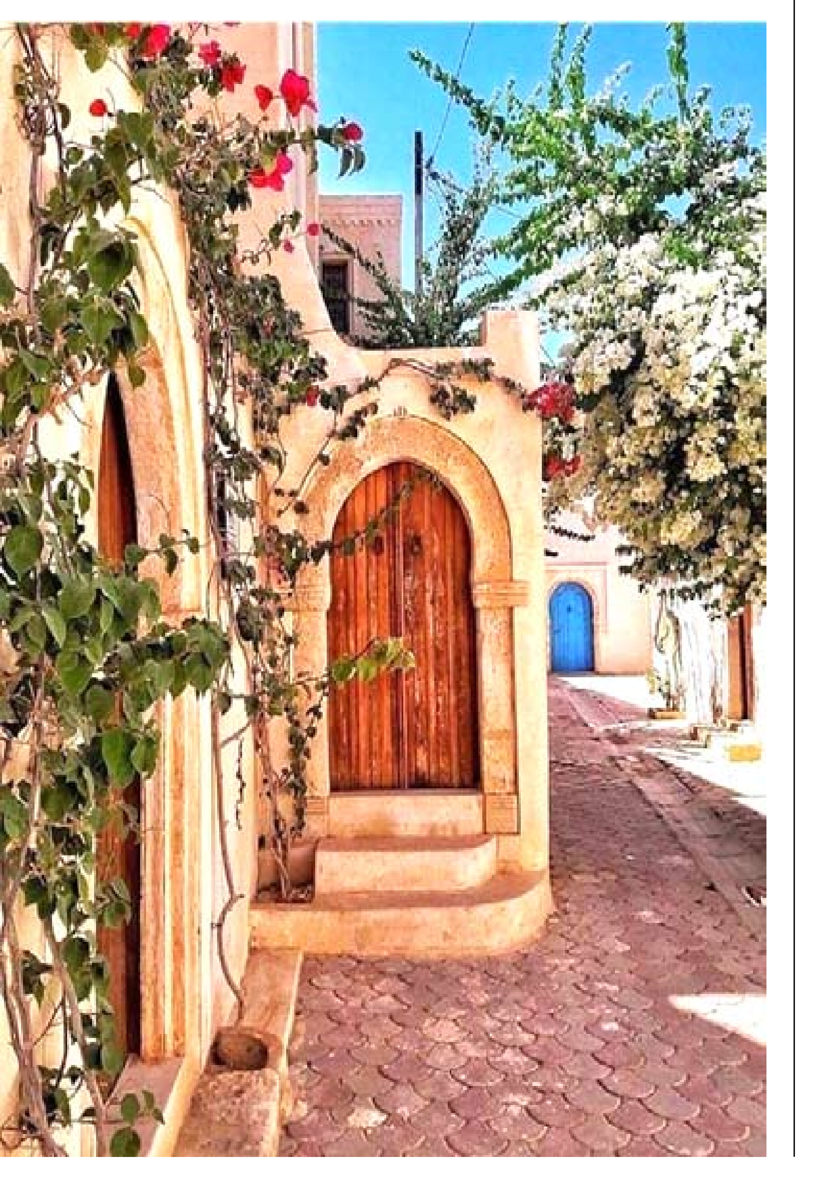
- صدقني يا ليو وكما كنت تقول السوق كاسدة ولا ربح وفير هذه الأيام، لا أظن أنني أمتلك هذا المبلغ.

تغيّرت ملامح وجه ليو بعد سماعه لرد جوزيف، وقف ثم قال:

- اسمع يا جوزيف، حتى الحجارة سمعتك صباح اليوم، ولكي تسكت الحجارة يلزمها مائة دينار. سأمرُّ مساءً لأخذ المبلغ.. وداعاً.

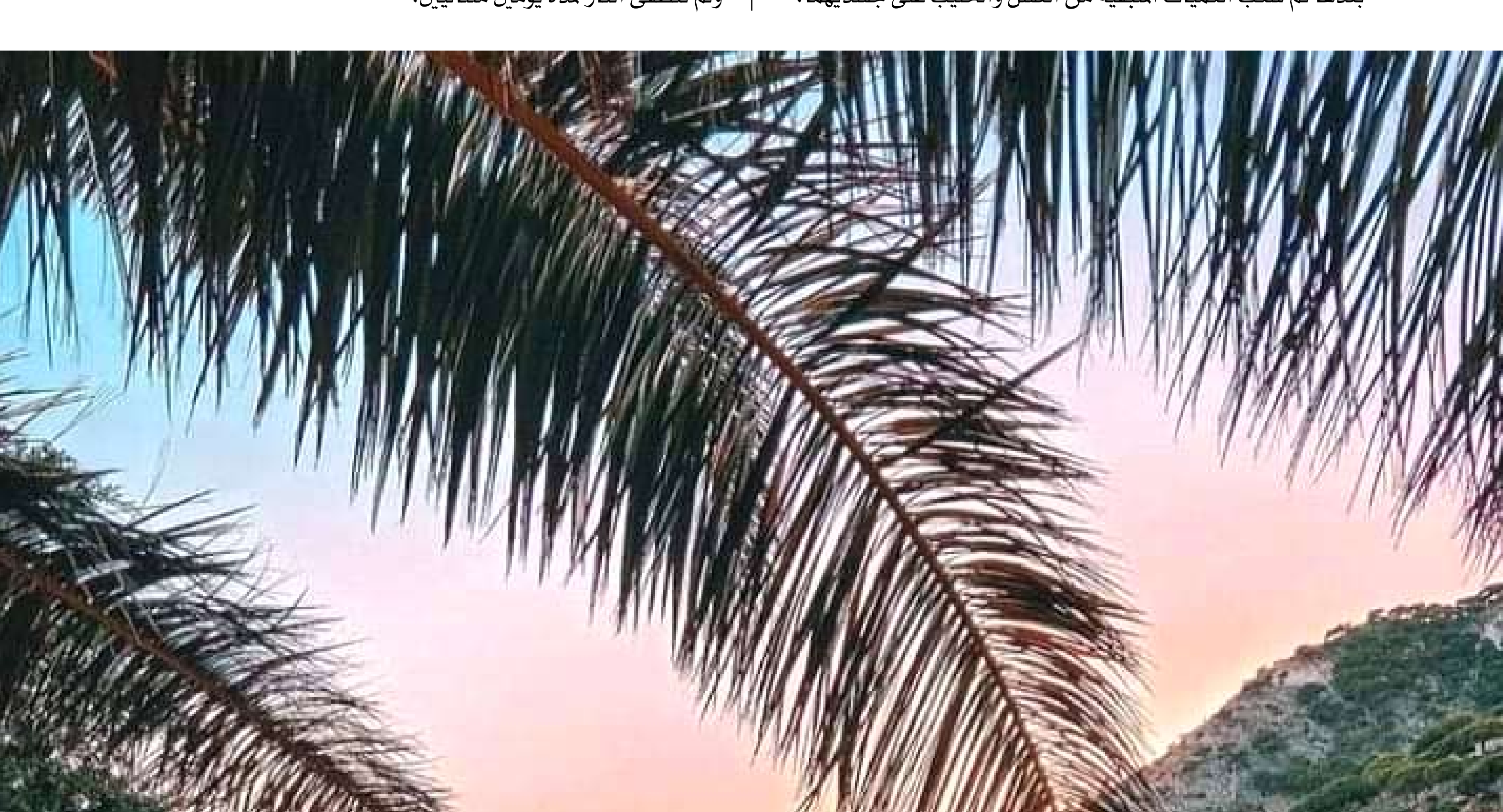
انصرف ليو وترك جوزيف مصدوماً...

جوزيف هو أحد العرب الذين بقوا، يسكنون الأندلس بعد سقوطها بيد الإسبان، يكتم إسلامه ويُظهِر المسيحية ليتجنّب مصير التعذيب والقتل الذي واجهه الكثير قبله بعد انكشاف أمرهم لدى محاكم التفتيش الإسبانية.
كان يُسمّى قبل سقوط غرناطة بيوسف فصار جوزيف، وزوجته مريم



صارت تدعى «ماري»، وابنه ذو الخمس سنوات وبعد أن كان يلقب «بسراج» صار «سيرجيو» وأعلنوا جميعهم دخولهم دين المسيح.
أغلق يوسف باب محله ثم عاد إلى منزله بسرعة، وعندما اقترب من منزله، شاهد من بعيد عدداً من الفرسان يقفون بجانب المنزل، امتلكه الخوف ثم فكر بمصير زوجته وابنه.
اقترب من المنزل، تركه الفرسان يمر، وعندما دخل وجد أن المنزل قد تم تفتيشه ولاحظ نسخاً من القرآن وقد تم تجميعها على الأرض وبجانبها سجادة صلاة.
سمع صوت زوجته مريم تناديه من داخل احدى الغرف، ابتلع ريقه ثم اتجه نحو الغرفة.
داخل تلك الغرفة وجد زوجته مقيدة اليدين وبجانبها عدد من الفرسان وشاهد ليو واقفا بإحدى الزوايا، يزرع على وجهه ابتسامة ماكرة.
تقدّم منه أحد الفرسان وقام بتقييد يديه ودون أي مقاومة تمّ إجلاس يوسف بجانب زوجته.
سأله أحد الفرسان الملثمين: ألا زلت على إسلامك يا جوزيف؟
لم يرد يوسف، فقد كانت التهمة ثابتة وكان النفي لا ينفع.
فأضاف ذلك الفارس: لقد اعترفت زوجتك بكل شيء، لا داعي لمزيد من البحث.
أخذ الفرسان يوسف وزوجته خارج المنزل وتم ربطهما إلى شجرة الزيتون المنتصبة أمامه.
اقترب ليو من جوزيف وقال بصوت خافت: المكافأة المالية لمن يبلغ عن مثلكما مغرية يا جوزيف اعذرني.
ثم انصرف.
عند ذلك تم إحضار كميات كبيرة من الحليب والعسل بجوار المعتقلين، ثم تم إجبارهما على شرب كميات كبيرة من ذلك العسل والحليب. ولم تتوقف عملية سقيهما من ذلك الشراب إلا حين تقيئا، فحتى عندما كانا يرفضان شرب المزيد كان يتم فتح فمهما بالقوة وتستمر عملية السقي بالقوة والغصب وذلك تزامناً مع صفعهما وضربهما في أماكن حساسة من جسديهما إذا أبديا أية مقاومة.
بعدها تم سكب الكميات المتبقية من العسل والحليب على جسديهما.

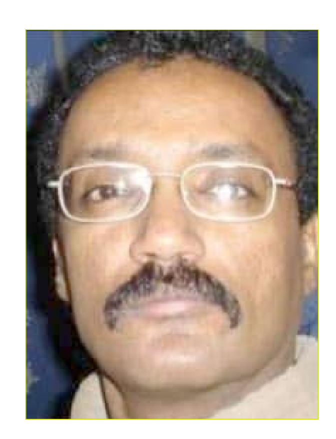
وتمّ تركهما يبيتان هكذا في العراء مقيدين بتلك الحالة مع استمرار مراقبتهما عن بعد.
في مساء ذلك اليوم بدأت الحشرات من نمل وذباب وبعوض تتجمع حول جسدي يوسف ومريم.
صباح اليوم التالي عاد الفرسان، وتمت إعادة العملية كما اليوم الأول وألقي بالكثير من الفضلات حول المعتقلين.
وفي تلك الليلة بدأ يُسمع صراخهما من بعيد جراء لسعات الحشرات والزواحف التي اجتمعت حولهما.
وتُرك يوسف ومريم هكذا لمدة ثلاثة أيام خلالها ظهر عليهما العديد من التقرحات وبدأت مريم تغيب عن الوعي لمدة ساعات، وتستفيق لتبدأ بالصراخ وطلب العفو، فقد تسرّبت بجسدهما العديد من الزواحف وكانت مريم تصرخ طالبة النجدة ومعلنة أنها تحس بأن جسدها يؤكل وهي حية.
في اليوم السادس أحظر فرسان محاكم التفتيش مسامير وتم تثبيت يدي المعتقلين إلى تلك الزيتونة باستعمال المسامير. وغطت الدماء المتناثرة جسديهما.
ليلاً اجتمعت الكلاب والقطط حول تلك الزيتونة وبدأت عملية نهش الجسدين وهما لا يزالان على قيد الحياة واستمر الأمر هكذا لمدة يومين، وظهر على جسد يوسف ومريم آثار التآكل وانبعثت منهما رائحة نتنة تشبه رائحة الجيف.
في اليوم الثامن من العذاب اجتمعت جميع غرناطة حول تلك الزيتونة وتم إحضار قس، تلى خطبة طويلة حول الخيانة وحول المصير الدامي الذي ينتظر كل من تكشف عنه محاكم التفتيش بتهمة الإسلام والزندقة.
وفيما كان يوسف ومريم غائبين عن الوعي تقريباً، تمّ تجميع حطب كثير حول تلك الزيتونة وتمّ إشعال النار حولهما وقد سُمِع صراخهما عن بعد وقد كان أحد الشاهدين على ذلك المشهد طفل صغير لا يفقه الكثير فيما كان يراه يبلغ من العمر خمس سنوات وصار يدعى سيرجيو...
ولم تنطفئ النار لمدة يومين متتاليين.






**إنعام القرشي - الأردن**

شيء يصعب تصديقه!، أليس لديكِ أصدقاء غيري؟
تومئ برسها..!!
هل من المعقول أن تلازميني كل هذا الوقت؟
الصحبة رائعة، ولا أُنكر أيضاً أن الصداقة في العزلة دعوة للسكون، تؤخذ على محمل الجد، لكنني أحياناً لا أعرف نفسي!
تومئ مرة اخرى..
ما من طريقة تدعوني لأعود كما كنت، فرأسي مليء بعالم لا يهدأ..!
ها أنتِ تشاركينني غرفتي، تدخلين محرابي دون أن أتذمر، وحين أفتح صفحة التواصل الإجتماعي، تسترقين النظر، فأترك لك الحرية في قراءة كل ما يعجبك!
يوم أن فقدت أعصابي وشتمت، ثم ندمت وأسرعت أمحو ما كتبت، رأيت الفزع في عينيك، مستغربة من سلوكي غير الحضاري، فأدركت خطأي، ولحسن حظي لم أفقدكِ تلك اللحظة.
و.. عندما أحضرت فنجان قهوتي كنتِ تتمطّين بكسل، جاءني هاتف فاضطررت إلى الرد، ثم حين وضعت الهاتف فوق مكتبي، زاحمتني، فكدتُ أن أُسقط الفنجان لولا أنك أمسكت به وأطبقت شفتيكِ على حافته ورشفت رشفة كبيرة دون أن تكترثي إلى أن الفنجان صغير لا يكفي لكلينا..!
لا أخفيك أنني لاحظت اهتمامك بنفسك!
تدير رأسها بتجاهل تام!
فليكن، إنه وضع طبيعي، الأنانية سلوك بشري. وإن أحببت نفسك فهذا يعني أنك تؤثرينني على غيري، ولولا هذا لكانت أسرار حواراتي مع الصديقات قد انتشرت، وعرفن مَن كنّا نستغيب في لحظات التجلّي..
لا، لا لا تعبثي بأوراقي، ولا تحاولي أن تغيّري مكانها لأنني سأضيع،
تقطب حاجبيها..!
لحظة!
ما رأيك أن أحضر لك ألبوماً من الصور كي لا تملّي عند انشغالي!
ترفع رأسها وتظهر نحافة عنقها..!
وكأنك قد زدت نحولاً؟!
لا تنزعجي، النحافة مطلوبة، لا تهتمي، المهم أن صحتك جيدة!
ما أريده، هو، أن أوضح لك «فكرة العزلة» التي استنكرتها، أنها ليست جديدة، إنها قديمة جداً، قدم الفلاسفة والمفكرين، و.. و..!
لماذا تراقصين أقلامي؟ أنا أتحدث إليك، أنصتي! غريبة تصرفاتك اليوم؟!
• هل تبحثين عن شيء؟
تحرك عينيها بحركات دائرية!
لا تنظري إليّ هكذا..! أستطيع أن أرى انجرافك مع الواقع، لكني لن أقول شيئا بهذا الخصوص، وإن شئتِ أن ترحلي، فارحلي إلى مكان لا وجود فيه للتأمل!
أقرأ في عينيك لعبة الشعور بالوحدة.. كنت متيقناً من ذلك، لعبة خطيرة لا أتقنها، لأنها مصطنعة، بل لغرض معين، أنا لا أشبهك.
إن كنت تمثّلين دور الوحيدة من الآن، كيف ستعبرين هذا العالم؟
تبتسم!
هذا ما تتقنينه! هل تفضلين أن نكمل حوارنا في وقت لاحق؟
تهز رأسها للخلف.
حسناً سأعود إلى الكتابة وأتركك تتحركين كما تشائين، البيت بيتك وأسراري أصبحت أسرارك، وأحترم اختيارك صداقتي.
سأذهب إلى حجرتي وأسمع بعض الموسيقى، صوتك وحركاتك من حولي تزعجني، سأتركك مع الصور!
......؟
لماذا تلحقين بي، ما خطبك اليوم؟
تبتسم ابتسامة كبيرة وتقبل يدي!
أسمع قرعاً ثقيلا داخل رأسي، إهدئي وابتعدي عني!
تختفي!
أين أنت؟ ألا تلاحظين وجودي؟
أها؟ تتكئين على الحائط؟ تحسنت صحتك، أنت أكثر سمنة الآن، هههههه!
لحظة؟ ماذا تريدين الآن؟
تلفّ ذراعها حول عنقي بغنج وتقبلني!
مرة أخرى؟!
لا.. الألم شديد هذه المرة. لا،لا، لا، هذا يكفي، سأعيدك كما كنتِ، لن أسمح لك بهذا القدر من دمي!
المجاز، وحده، أتاح لي أن أزيل الحواجز بيني وبين تلك النحيلة، التي سمنت على يدي، وبدا أنها قد أثقلها دمي الذي امتصّته بخرطومها العنيد!



# الرحلة الطويلة نحو الشمس أو أحلام الملكة النائمة

أحمد الملك - السودان

كانت الفتاة الجميلة تتنقل داخل البص بجسد خفيف مثل فراشة، لم تكن تمشي على قدمين مثل البشر، بل تتخلل الأشياء أثناء عبورها مثل سحابة، مثل غمامة عطر، وكانت رائحة جسدها ، خليط من عبق الزهور ورائحة الارض: رائحة الحياة. كنا نجلس داخل البص كأننا في رحلة إلى عوالم أخرى، إلى الفضاء. وكأننا منومون مغناطيسياً، لا نعرف لم يجب أن نستيقظ أو نخلد للنوم، لم تشغلنا الساعة ولم يسأل أي من الركاب أين نحن ومتى نصل وجهتنا. كأننا وصلنا وجهتنا منذ زمان بعيد فلم يعد ذلك يشغلنا، لم نكن نملك زمننا أو قرارنا أو حتى وجوهنا التي كانت تتحرك آلياً في الفراغ، تصطدم ببعضها، مثل طائرات ورقية، كأنّ قوة مجهولة كانت تتحكم في حركتها وسكونها .

حين توقف البص في سوق ليبيا محطته الأخيرة قبل أن ينطلق إلى الصحراء. أبدى أحدهم الرغبة في الذهاب إلى السوق لشراء علبة سجائر، أعطاه الشاب الذي يجلس بجانبي ثلاثة جنيهات طالباً منه إحضار (صباع أمير) معه. قبل نزوله من البص، تلكأ الرجل ونظر باستعطاف نحو الفتاة الجميلة أملاً أن تطلب منه شيئاً ما، ترسله إلى أي مكان، كان مستعداً للذهاب إلى الجحيم إن كان المقابل بسمة ساحرة أو كلمة شكر. لم تخيب الجميلة ظنه، طلبت منه بصوت ملائكي أن يحضر لها نصف رطل من حلوى الطحينية! قبل أن تمد يدها إلى جيبها لتسحب محفظتها الصغيرة لتدفع قيمة الحلوى الطحينية. ودون تردد، خرجت في نفس اللحظة وبنفس السرعة خمسون محفظة بعدد ركاب البص عارضين دفع قيمة الحلوى الطحينية! حتى الطفل الجالس أمامي أخرج كيسا من قماش الدمور به عملات معدنية أصبحت خارج الاستخدام بفضل التضخم، والتغيير المتكرر للعملة الوطنية، ولا تكفي لشراء أي شيء، عارضاً الدفع! سحبت أنا أيضاً محفظتي وإن كنت بقيت لبرهة مندهشاً لفكرة أن يحتاج كل هذا الجمال لأكل حلوى الطحينية! لكن الرجل الذاهب إلى السوق لم يجد مكافأة له أفضل من الطلب نفسه، رفض أخذ نقود من الجميلة مؤكداً أنه يملك مالاً كثيراً. فيما بعد اكتشفت أنه لم يكن يملك مالاً كثيراً أو قليلاً، وأنه اشترى حلوى الطحينية بثمن (صباع امير) الذي حصل عليه من الرجل الآخر! لا بد أنه فكر قائلاً لنفسه: يستطيع الرجال الانتظار! لكن كيف نجعل الملاك ينتظر؟! وما جدوى (صباع أمير) أصلاً؟ لتبق الأكواب المكسورة والأطباق كما هي في مكانها، في كل الأحوال

بسبب التقشف الذي أعلنته الحكومة لا يوجد كثير من الطعام يحتاج لاستخدام حتى الأطباق المكسورة. واختفت لحسن الحظ مادة السُكّر من البيوت والأسواق بسبب الغلاء. عرفت بذلك حين وجدت الشاب الجالس بجانبي يتشاجر مع الرجل الذي احضر حلوى الطحينية، هامساً له أنه سيخبر الجميلة إنّ حلوى الطحينية تم شراءها بنقوده إن لم يعد إليه النقود فوراً! بالفعل سمعت الرجل يقول وكأنه قرأ أفكاري: يمكنك الانتظار، أنت معتاد عليه منذ أن ولدت، كأنك خرجت إلى الدنيا فقط لتتنقل من (صف) إلى آخر! تقف أحياناً في صف لتشتري خبزاً ويمضي الزمن وأنت واقف (يتغير حتى العالم من حولك) وتدق مارشات انقلابات عسكرية وانقلابات مضادة، وأنت واقف كأنّ مصير العالم كله متوقف على انتظارك لقطعة خبز لا تجئ وإن جاءت لا تسد رمقاً. أنت متمرس على الانتظار دون هدف، لكن كيف نجعل الملاك ينتظر؟ هل رأيت من قبل ملاكاً يقف في صفوف الخبز أو الدواء؟!

كان رده مقنعاً حتى أن الرجل الجالس إلى جواري توقف عن التذمر، وعن الإعلان كل بضع دقائق أنه مدين له بثمن الحلوى وأنه هو من يجب أن تشكره الجميلة لأنه دفع ثمن الحلوى. لم نشعر بحرارة الجو، رغم أن الصحراء خارج البص كانت على وشك الاشتعال، مضى النهار الطويل بسرعة كأنه يسابق البص نفسه، حتى انتبهنا إلى الشمس التي كانت تغرق في الصحراء. بدت لنا كأنها ترفع يدها مستنجدة بنا أن ننقذها قبل أن تغرق في جحيم الظلام. كان صعباً علينا فهم مرور الزمن، فقد بدت لنا الشمس الغاربة جزءاً من الجمال الأبدي الذي يغرق الكون كله. تعالى صوت عزف على آلة الطنبور، مضى بعض الوقت قبل أن نتبين خيوطه من بين هدير الجمال من حولنا. كان الرجل الذي أحضر الحلاوة الطحينية هو أول من تنبه للفتى الجالس في مقدمة البص يعزف لحناً حزيناً مثل تلك الشمس الغاربة، بدا لنا اللحن نفسه وكأنه يستنجد بشيء مجهول حتى لا يضيع وسط أمواج السحر الذي يغرق المكان.

ثم بدأ الفتى يغني، كان يغني مقطعاً وتغني الفتاة الجميلة مقطعاً آخر، غرقنا تماماً في سحر الغناء الذي شعرنا كأننا نطفو فوق أمواجه. رأيت القمر يقترب من النافذة، جذبه صوت الغناء الجميل. تمنيت في تلك اللحظة أن يتعطل البص أو يحدث زلزال قوته عشر درجات على مقياس هذا الحلم الجميل لنبقى غارقين فيه إلى الأبد. حين أخلدت الجميلة إلى النوم، انقطعت فجأة نغمات الطنبور، نام العالم كله، بدت حتى الصحراء نفسها كأنها وُجدت في تلك اللحظة كغطاء سحري لنوم الجميلة. لم يكن يصدر عنها أية صوت أثناء نومها، كأن العالم نفسه توقف عن التنفس، كنت الوحيد الذي بقي مستيقظا فيما صوت البص يزأر في سكون الصحراء مثل أسد هزمه الجوع. فيما كان القمر الحزين لا يزال واقفاً في النافذة، ومن خلفه صف طويل من الكواكب في انتظار خبز الوجه النائم الساحر.

وحتى لا أشعر بالسأم لأنني لا أخلد أبداً للنوم أثناء السفر حتى وإن كنت أسافر في قارب يهدهده الموج وضوء القمر، فكرت في ممارسة هوايتي في قراءة أحلام من يخلدون للنوم حولي. لم أر شيئاً في البداية حتى حسبت أن سحر هذه الجميلة عطل كل مواهبي في اقتحام ذاكرة النائمين، فجأة رأيت الهواء داخل البص مليئاً بأنفاس أحلامها. لابد أن للجميلة النائمة سحراً يجعلني لا أقرأ أحلام النائمين في ذاكرتي مثلما كنت أفعل، بل أشاهد كل شيء معروضاً أمامي في الهواء.

رأيت وجوهاً معلقة في الفضاء مثل النجوم، رأيتها تجلس مثل الملكة الكنداكة فوق عرش من النور، ثم بدأت شلالات الضوء تتدفق من عرشها تعبر مثل سيل من النور فتهرب أمامها جيوش الظلام، فيصبح العالم كله كتلة من الضوء. لابد إن الجميلة انتقلت فجأة إلى نوم عميق فقد اختفت أحلامها من الهواء، رغم أن بقية خيوط شلالات ضوء عرشها كانت لا تزال تضئ العالم. رأيت أحلام الرجل الذي أحضر الحلوى الطحينية للجميلة، دهشت لأن أحلامه يغلب عليها الجشع، كان جالساً بلحية طويلة تلامس الأرض، في متجر ضخم مكدس بالبضائع من كل نوع، كل ما يحلم به كان معروضاً للبيع، حسبته من حادثة الحلاوة الطحينية يملك قلباً كبيراً حتى أنه اختلس نقود صديقه بدافع الحب، لكن أحلامه أوضحت أنه يمكن أن يختلس نقوداً لدوافع أخرى. رأيت أحلام الفتى الصغير الذي كان يعزف على الطنبور، وجدت فيها بقية الصور التي ضاعت من أحلام الجميلة حين غرقت في لجة النوم العميق. الوجوه المتناثرة مثل نجوم تائهة في الفضاء ومواكب النور، التي تصعد في رحلتها إلى أبد السماء. رأيت أحلام رجل يجلس في مؤخرة البص، عرفت من أحلامه أنه لص فقير لا يجد حتى ما يسد رمقه. كان يسرق في حلمه قصراً منيفاً لرجل يملك سلطة ومالاً. كان اللص جالساً أرضاً يحصي أكداساً من العملات الصعبة التي عثر عليها في القصر. تمنيت ألا تشرق الشمس أبداً، إن تضيع في الفضاء وتنسى أية عالم سيتعين عليها إيقاظه بأشعتها الحارقة. وأن اظل الى الأبد جالساً في أطياف أحلام هذه الملكة.

فجأة بهرني بركان ضوء الفجر المتدفق في المكان، حسبت أن الضوء قادم من الخارج، حيث العالم بدأ يصبح أشبه بالفضة الذائبة، وتراجع إلى الفضاء القمر الواقف في النافذة وصف الكواكب من خلفه. قبل أن أكتشف الفجر الصاعد من أحلام الملكة النائمة، مواكب من النور وسيولاً من البشر التي تهدر في الشوارع، في الرحلة الطويلة نحو الشمس.







# نعـــوش



**عبدالله النور مهدي - السودان**

«بليغ محمود من أفضل الموظفين».

عبارة كثيراً ما يتبادلها الزملاء في غيابه أو في حضوره، لكن هذه العبارة كانت تزعجه وتمثل عبئاً ثقيلاً على كاهلٍ تثقله الكثير من الهموم الأخرى أصلاً!

كان يعرف تماماً أنه مميز ومتقن لعمله، ولا يملأ فراغه سواه، ولذلك كانوا ينقلونه من مكان إلى آخر كلما دعى الداعي لتبييض وجه واحدة من الإدارات وإعادة الحيوية لها بعد أن تكون قد أنهكتها تثاؤبات العاطلين عن الموهبة ، لكنه كان في ذات الوقت يدرك أن ليس كل ما تبديه الألسنة يعبر عن صادق المشاعر في القلوب. تجاربه مع بيئات العمل المختلفة، بل المتباينة في كثير من الأحيان، أعطته فكرة معقولة عن قراءة ما يجول بخواطر الزملاء والزميلات بمجرد نظرة عابرة لوجوه الرفاق! دراسته المتأنية لفرضيات «البرمجة اللغوية العصبية» أكسبته المزيد من المهارة في إدراك لغة الأجساد، وسيما الوجوه والعيون.

تقاسيم الوجوه، ونظرات العيون بصفة خاصة، توحي له بأن ليس كل ابتسامة دليل على الرضا والصدق في التعامل ونقاء الدواخل، بل أكثرها نظرات حسد!

كان بليغ ممن نحتوا جدران حياتهم بأظافر لا تعرف الملل والضعف.

«كان يهز جذوع الكفاح..

تساقط فيه جنيّ ثمار حدائقها..

قوياً كما الصخر كان وما زال ينبض بالحب قلباً دفيئاً..

جميل الوداعة والكبرياء..

يعاف البذيء من القول والقصص الفاحشات..

يغازل أوراقه كلما لاح في دربه عبث اللا تأقلم بين الرفاق...

فيكتب في كل حرف قصيدة..

بليغٌ بليغُ المعاني نقيّ السمات برغم الجراح».

كان يجرجر أذيال الرهق المتكاثف ركاماً يكاد يغطي روحه ونفسه، بيد أنه يجتر الأمل من دواخله كل يوم ليكون بعض زاده ويطفئ جذوة الألم المحبط المحيط.

رئيسه في العمل، أستاذ الفاضل، كان كتلة من الطاقة المشحونة بالسلبية وحب الذات والدوران حول مصالحه المتكاثرة، وأطماعه اللا متناهية للحصول على المقعد الذي يشغله الشخص الذي يرأسه، يحاول التسلق والتقرب بكل الوسائل التي تخدم غرضه، لا يجاوز وعيه بالذات المتقوقعة بعيداً عن الغيرية ولو بقدر ما تقتضيه أمانة العمل.

أما الذين يعملون تحت إدارته فلم يكونوا بالنسبة له كائنات بشرية حقيقية لها آراء وأحاسيس ولحم ودم! فقد كان استاذ الفاضل يظن جاداً أن الغرض الأساس من تعيينهم هو أن يملأوا فراغ المقاعد التي يديرها، لتكون له صلاحيات وسيارة ومكتب وثير. لذلك لم تكن الفروق الفردية بينهم، وقدراتهم، ومؤهلاتهم تعنيه في شئ!

الغرض الأساس من أدراج المكتب – حسب الواقع – هو الاحتفاظ بالمبادرات والمقترحات التي تطور العمل بحيث تكون بعيدة عن الدخول في حيز التنفيذ!

التدريب والتطوير وبناء قدرات العاملين ضمن إدارة استاذ الفاضل كان حلماً بعيد المنال، رغم ما كانت تجود به إدارة التدريب بالوزارة من منح يتم توزيعها على كل الإدارات بالتساوي، لكن الفاضل كان يتعمّد إقصاء منسوبيه عنها، إما استهتاراً أو خوفاً من أن يتأهلوا فتتفتح عيونهم على عوالم جديدة من الحق والخير والجمال!

«كان قميئاً..

كما البؤس والانكفاء على الذات..

كان فراغاً عريضاً بلا غاية غير ذات مريضة..

يفاوضُ أشياءه المدلهمّة لا يرعوي عن فساد!

رفوف بضاعته يعتريها الكساد..

تفاصيله لم تكن غير كل النكوس عن الخير..

كان دنيئاً».

لم يكن أستاذ الفاضل يرغب في أن يكون بين الموظفين الذين يعملون تحت إدارته من تواصلٍ إلا في إطار ما يمكّنهم من إدراك قصور بعضهم البعض، من أجل نقل وشاية لملء فراغ الوقت، أو للتقرب نحو المدير بذات المنطق الذي يدير به علاقته مع من يعلونه درجة.

أراد لهم الفاضل أن يكونوا مجموعة «ألفوات»، كل ألفة منهم يتبرع بكتابة أسماء المهرجلين من حوله ليرفع قائمتهم قبل رفاقه. بذلك يستطيع أن يقطع الطريق أمام ما يمكن أن يكون بذرة للتواصل بينهم فيكوّنون رأياً يقصيه عن كرسي القيادة الذي لن يضمن العودة إليه في ظل وجود الدرجات الموازية له والذين يتطلعون لما في مقعد المدير من مخصصات ومأموريات مربحة، وهالة من التعظيم والتبجيل.

«أيها العاملون الكلاب!

انتم اليوم حاشيتي..

أنتم المستجيبون لي..

كل ما أنا قائلُهُ فاسمعوه:

أريد القطيعة بينكم دون أن تتساوى الكتوف..

انهشوا بعضكم ما استطعتم سبيلاً لذلك يا أيها البائسون..

اخفضوا كل أبصاركم عن شموس الحقيقة..
سوف تحرّقكم إن نظرتم لها..
حسبكم أن تناولوا فتات العطاء، فلست لكم كافلاً!
لا يهم إذا مات من جوعه بعضكم ..
لا يهم العمل..
فأنا غايتي أن أكون الزعيم عليكم!
فلا توقظوني من سكرتي بالسمات الرفيعة للمترفين!
هلموا إلى بعضكم واقطعوا كل ما بينكم من صلات..
احذروا الأنس والضحك فهو يدل على أنكم ضعفاء..
وانشروا الغبن والجبن بينكم..
واعطشوا واشربوا من بقايا السراب!».

وبليغٌ يراوح مكانه في المكتب المخصص له، يحاول قدر إمكانه ألا يحتك بمن معه وكبيرهم الذي علّمهم اللاشيء! درجته الوظيفية تساعده على الانفراد، فأكثرهم في درجات قيادية، وهو لا يزال فتىً غريراً في مدارج الخدمة العامة. والبعد عن مثل هؤلاء سيكون أصفى لذهنه وأجدى لمستقبله، وأفضل لشغفه بالقراءة.

قياديّة ؟؟؟ نعم.. هكذا تسمى درجاتهم في سلم الخدمة! بيد أن القيادة علم وفن، بل وموهبة في كثير من الأحيان.

بالرغم من تميز بليغ المشهود إلا أن مديريه لم يصرحوا له بإعجابهم بتميزه، بل كان أكثرهم يستدعون أقصى ما تحتمله الوجوه من التقطيب ويحاولون ارتداء القناع العبوس القمطرير! ولكنه لا يريد منهم جزاءً ولا شكوراً سوى أن يكفوا عن محاولة اقتناص الهفوات لكسر ثقته التي لم تكن مُفرطة بمحض الادعاء الكذوب.

أهمّ الأوراق في الإدارة هي أوراق الحضور اليومي، تلك التي توثق أعظم الإنجازات التي يريدها المديرون! مجرّد الحضور! يلي إنجاز الحضور في الأهمية؛ خروج الموظفين نحو الدكاكين القريبة البائسة، والجلوس على صناديق المياه الغازية الفارغة، لتناول الإفطار، ثم العودة إلى مكاتبهم بعد ما يربو عن الساعة، في انتظار الإنجاز الأكثر أهمية في نظر الموظفين وهو العودة إلى البيوت وقد أثقلت الأجفان بالنعاس بعد أن فعل فول الإفطار أفاعيله في الأجساد.

الأيام متشابهة، والتفاصيل تكاد تكون متطابقة. الشوارع والطرقات تهيئ نفسها كل يوم لاستقبال ذات الوجوه غدواً ورواحاً.

ورقة الحضور يتم رفعها في تمام الساعة الثامنة، وعلى الذين يتأخرون عن ذلك الموعد أن يلحقوا بالورقة في مكتب شؤون العاملين، عسى أن يوقّعوا أسماءهم قبل أن يتم رصد الحاضرين في جهاز الحاسوب، ثم تُرفع الأقلام وتجف الصحف.

بليغ كان يصل مكتبه في وقت مبكر، ونادراً ما يتأخر. وعلى شاطئ الأحلام كان هنالك من يتمنى أن يتأخر بليغ كل يوم لدقائق معدودة ، ليحضر إلى مكتب شؤون العاملين!
ليس حسداً وحقداً، بل حباً وهياماً !
إنها (عفراء عدلان)..
«خلاسية الحسن..
فيها من الفونج عزة نفس أبيّة..
ومن الشيخ تعويذةٌ لا يجاوزها الفاجرون..
مضمّخةٌ بعبير النسائم مثل الحقول تماماً!
ترى؟
أم تفوق الحقول؟
يمانيةُ الأصل أقبل أجدادها للتجارة في كردفان..
وطاب المقام لهم..
واحتموا بالحَمَر..
وتزوج جدّتَها جَدُّها بايزيد..
أنجبا من تُشابهُ حسن القمر..
وأتى وافدون من الشرق،
من جنبات الرصيرص، كي يشتروا بقرات سمان..
فاستضاف اليمانيُّ والحمَرّيةُ تلك الجماعةَ بالكرم الحاتمي..
ذبحا نعجةً لم يكن لهما غيرها..
أم عفراء تلك الفتاة التي أحسنت طبخها..
وأعدّت لأضياف والدها خير مأدبة للكرام..
فأسرّوا لوالدها نيّةً للمصاهرة العاجلة..
وتزوج عدلانُ – نجلُ الضيوف – وطاب المكان..
والأهازيج عمت هنا، واحتفى المهرجان..
والدلاليك أفخم من حفلات المدائن وسط الزحام..
إنّ عفراءُ جاءت نتاج التواصل بين المحبة والخير عند جسور السلام..
«عفيراء» كانت تدلّلها أمها دون أن تتنازل عن حسن تربيةٍ لتخرّجها للحياة..
وتريد لها أن تنال الرفيعَ من الدرجات، تفوقُ الأوائل في كل عام».

(بليغ .. هل تعلم ما في قلبي تجاهك؟ هل في قلبك أنثى أخرى؟ هل أنا جزء من اهتمامك؟ هل يحق لي أن أسألك؟ هل وهل وهل؟؟).

تنتهي تساؤلات عفراء وحديث قلبها المعن في السرية، بتنهيدة حرّى تحرص على ألا يسمعها أحد الزملاء أو الزميلات في المكتب. فالمرأة لا تصرّح بأحاسيسها قبل أن يبادر الرجل. لذلك ظلت تمنّي نفسها ولو بابتسامة عابرة من بليغ.

«فؤادي يذوب..
فهل عن غرامي أتوب؟..
وعقلي لرشدي كيف يثوب؟
ولو جُسّد الحبُّ كان «بليغاً»..
ولو نطق القلبُ نادى « بليغاً»..
أرى الحسنَ في كل ما لامسته يداك..
أراك وسيم الملامح..
أخاف عليك من النظرات..
ومن كل شئ..
من الغاديات، من الرائحات، من الحاسدات، من العاشقات..
أريدك لي لا لغيري..
أريدك للقادم المنتظر..
أريدك للدهر ذخراً..
وللبيت فخراً..
وللروح عطراً..
أريدك أنشودةً في المسار..
تخفّف لذعة شمس النهار..
أريدك ظلّا ظليلاً..
ومجداً أثيلاً..

رأيتك شهماً أصيلاً..
أريدك ملء الخواطر والذكريات..
أريدك لي يا جميل الصفات..
أريدك... آآآآه .. أريدك
لستُ أصرّحُ بالعشق بل أحتمي بحياء البنات!».

بليغ مشغول في هذه الفترة بدراسة الدكتوراه في الإدارة، يرغب عاجلاً غير أجل في الخروج من السودان بحثاً عن حياة أفضل توفر له الدخل المناسب الذي يستطيع به أن يقابل التكاليف الشخصية والأسرية التي تتزايد قيمتها كل حين بسبب التضخم وانهيار العملة وتوقف عجلة الإنتاج.

قاطع التلفزيون تماماً لعدة أسباب: الأخبار الكاذبة، وفراغ البرامج، وحذلقة المذيعات، ورقصة المشير البشير فوق رؤوس المقهورين.

أكمل بليغ دراسته للماجستير بالكورسات المكثفة، لذلك لم يكن يملك الكثير من الوقت للاجتماعيات التي قل منها كثيراً، ووجد الكثير من اللوم جراء ذلك في مجتمع يضع المجاملات والثرثرة اللامتناهية على رأس قائمة الأولويات.

بعد نهاية الكورسات اختار مجال رسالته التكميلية للماجستير التي كانت بعنوان: «أثر إصلاح الخدمة المدنية في زيادة الدخل القومي». وحصل فيها على تقدير ممتاز.

وبعد أن أشاد به المناقشون والمشرفون العلميّون بالكليّة، قدّموا له نصيحة، فأضمر تنفيذها على الفور.

بعد أن أكمل رسالته طبع منها عدداً من النسخ لإهدائها إلى قيادات رئاسة الوزارة التي يعمل بها، حسبما نصحه المشرف والمناقشون، سيما وأن هنالك توصيات قابلة للتنفيذ الفوري بدون تكلفة مالية أو كثير جهد أو زيادة كوادر. طبع أكثر من عشرين نسخة لتعميمها على جميع مديري الإدارات وبعض الأشخاص المؤثرين، لعلّها تصادف من يوافقه في الإيمان بها وبمدى ما يمكن أن تحدثه من تغيير حسبما أظهرته الدراسة الميدانية التي أجراها بدقة عالية. كان يرجو أن يجد فرصة كافية للجلوس مع «القيادات» بوزارته التي يعمل بها لتوصيل فكرته وتنزيلها بالصورة المثالية داخل رئاسة الوزارة، عسى أن تنفعهم أو يتخذونها منهجاً لتجديد روح العمل بما يزيد الإنتاج بأقل التكاليف. ثم تكون تلك التجربة بمثابة بداية لنشر المنهجية الجديدة في بقية المؤسسات المشابهة.

اختار بليغ أن يبدأ بمديره المباشر، طبعاً برغم علمه المسبق بسايكوباتية أستاذ الفاضل وتقوقعه حول الذات بعيداً عن تطوير العمل، لكن لا بد من العبور من خلاله وفق مقتضيات البيروقراطية الجامدة. وظل ينتظر اللحظة المناسبة التي تكون فيها الحالة المزاجية للمدير في أبهى صورها. ولكن كيف يعرف تلك اللحظة؟

«لابد من تحديد مقياس موضوعي للحالة المزاجية للمديرين!».

بدت له تلك الخاطرة مضحكة نوعاً ما، فابتسم، لكنه اعتمدها! وبعد استعراض عدد من مؤشرات المزاج الصافي، اختار أن يعتمد مقياس الابتسامة. نعم، سيناقش استاذ الفاضل ويشرح له تصوره عندما يراه مبتسماً.

وهكذا أصبح يترقب تلك اللحظة الباسمة، ولكن طال الانتظار!

أسبوع كامل لم يحضر المدير إلى العمل أصلاً، لا مبتسماً ولا متجهّماً! بداية الأسبوع التالي، جاء المدير إلى مكتبه وجمع بعض الأغراض الخاصة به، وذهب قبل الإفطار دون أن يسلّم على أحد من العاملين تحت إدارته، ودون أن يبتسم!

وفي نهاية ذلك الأسبوع جاء مرة أخرى إلى مكتبه الوثير، وبقي لساعتين دون أن يبتسم طبعاً، دخّن خلالها أربعة سيجارات، تسلل دخانها المزعج إلى أنوف – وربما رؤوس – كل العاملين بالإدارة بمن فيهم «نهال» المصابة بحساسية مفرطة من الدخان والأغبرة، فاضطرت أن تخرج من مكتبها إلى أقرب فضاء حتى تنقشع تلك السحائب النيكوتينية.

بعد أن أكمل سيجارته الرابعة نادى الفراشة المخصصة لخدمته، وهي امرأة مسنّة، أنهكتها السنوات العجاف. طلب منها كوب من القهوة بالجنزبيل، فأومأت بالإيجاب، وأحضرت القهوة سريعاً. وقبل خروجها من المكتب، سمعت صوته الحاد المتحشرج يلاحقها:

- هذا المكتب متسخ ومغبر، لماذا لم تقومي بتنظيفه؟
- ظللت أنظفه باستمرار طوال فترة عملي.
- لكنه الآن متسخ كما ترين!
- نعم.. ظللت أنظفه كل يوم ولكنك لا تأتي إلى العمل بصورة مستمرة، فأوقفت النظافة لأن المكتب يظل مقفلاً حتى يتغبّر مرة أخرى، ففضلت أن أنظفه بعد حضورك!
- ليس من شأنك أن تتابعي حضوري أو عدمه، مهمتك هي التنظيف والترتيب في كل الأحوال. مفهوم؟ «صرخ غاضباً».
- حاضر.

«أآه يا من تصيح بوجهي في كل حال..
آآه لو كنت تعلم شأني وسط القبيلة قبل الجفاف ببلدتنا..
قبل أن أصل العاصمة ..
جئتُ لا رغبةً في السكون بأطرافها،
بل لأطعم أطفاليَ الجائعين الطعام الحلال.
جئت أحملهم بالقطار الذي كان يعزف بالعجلات نشيد الحنين لتلك التلال..
جئت ألبسُ ثوب «الزراق» وأحمل بخسة دخن قديم لأزرعها ها هنا..
ضحك الناسُ منّي وظنوا بعقلي بعض الخبالْ!
كنت أزرع منذ الطفولة..
أجري مع والدي حين كان يداعب وجه التراب «بسلّوكةٍ»..
وأنا معه نبذر الوعد في خاطر الأرض خيراً وفال..
وما كانت الأرض تلك الأليفة تقهرنا! بل وكانت ذلولاً حنوناً..
وعند منابعها كم شربنا المياه الزلال..
وكنت أسير على الرمل تلك الوديعة..
يدغدغني الرمل كنت أسير بغير نعال..
كانت حياتي..
وكان شبابي..
وكان زواجي..
وكان الصغار يحومون حولي..
ونضحك ملء الوجوه بغير ملال..
وكنا.. وكنا.. وكنا..
وآآآه من الذكريات..
وآآه من الدهر..
آآآه من القهر واللاجمال..

ولكنّ حمداً لربي..
أبنائي الآن في الجامعات..
وهم نابغون بكلّ مجال».
ظلت الفرّاشة «حاجة كلتومة» عابسة حزينة واجمة على غير عادتها، ظلت شاردة الذهن طوال اليوم، كلتومة فاكهة الإدارة ومهرجان الفرح المتحرّك.
وكظمت غيظها، بيد أنها أضمرت أمراً جللاً!
ظلت الدموع تنهمر من وجه حاجّة كلتومة بلا انقطاع، وتغيّرت ملامح وجهها بالغبن الدفين الذي لو وزّع على ألف امرأة لكفاهنّ.
جلست وسط الصالة تبكي بصوت متحشرج وزفرات حارقة، فاجتمع حولها الموظفون ما عدا استاذ الفاضل الذي بقي في مكتبه كأنّ شيئاً لم يكن!
توجّه بليغ نحوها:
• مالك يا حاجّة كلتومة اليوم على غير العادة؟!
• «............».

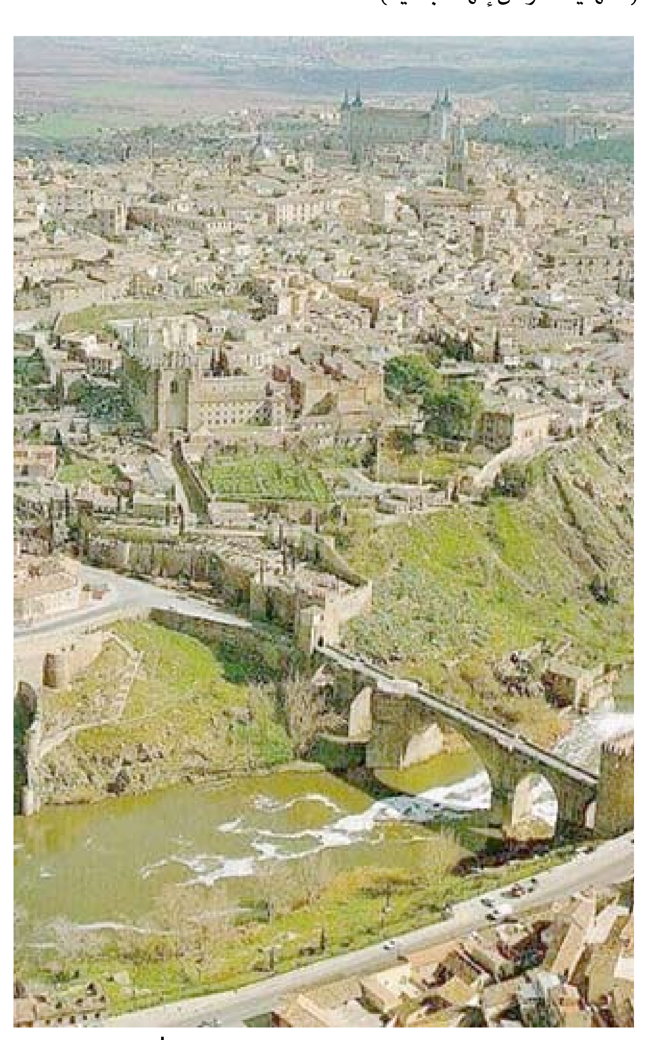
• هل أنت غاضبة من أي أحد منا؟
• أستاذ الفاضل.
«ونزلت منها دمعات تكاد تجرح خدّها المكدود سيماه».
• لا عليكِ.. حاولي تجاوز الموضوع، ولا تكوني حساسة.
«هكذا قالت لها روضة، تلك الموظفة الرقيقة الوريفة الحس».
إلا أن حاجّة كلتومة حسمت أمرها بعبارات صارمة:
• كفاية عليّ ذلّة ومهانة! أنا شغالة هنا قبل أن يأتي الفاضل، وأنا عارفة قصّته من البداية. وأعرف كيف جاء بورقة من أحد النافذين وتم تعيينه فوراً في وظيفة أكبر منه. قبلها كان شغال مراسلة في شركة صغيرة.
• معليش يا حاجّة كلتومة، الأوضاع كلها سوف تنصلح.
• أنا كبرت يا أولادي، وما باقي لي كثير من المعاش. والمعاش ذاته لن أنتظره، أريد أن أستقيل!!!
• لا.. لا.. لا يا حاجّة، لا تفكّري هكذا لا تنهزمي بسبب شخص مهزوم.
• حسناً.. انتم تعلمون أنه مهزوم وتسمحون له بإدارتكم؟
• يا حاجة، الأمر ليس بهذه البساطة، لو بأيدينا فلن نسمح له بإدارتنا.
• يا ولادي، أنتم متعلمون، وهذه البلد تنتظر منكم الكثير فلا تفرطوا فيها. أنتم يا شباب أرى فيكم أمل كبير أكثر ممن سبقوكم في التعيين. قبل عدة سنوات من تعيينكم كان الفاضل وجماعته مسيطرين على كل شئ، ويوجهون المديرين الكبار لظلم الناس، كما أنهم أكلوا مال النقابة كله دون أن يحاسبهم أحد.
• معقولة يا حاجة؟؟ كل هذا كان حاصل؟؟
• نعم.. وأكثر من هذا.. لكن الأمل فيكم لإصلاح الحال، فأنتم لا تزال أياديكم نظيفة.
انتقلت إلي بليغ عدوى الحزن الغاضب، أو الغضب الحزين. بقي صامتاً في مكتبه، وترك الرواية التي كان قد بدأ قراءتها، جانباً. شعر بالظمأ، فتوجّه نحو حافظة الماء بمكتب زملائه المجاور له، شرب قليلاً، ثم جال ببصره فيهم قبل أن يرتوي، وفاجأهم قائلاً:

• عندي سؤال يا شباب. هل يبتسم أستاذ الفاضل؟ ومتى يبتسم؟
رفعوا عيونهم وأصابعهم عن الهواتف النقالة، ونظروا إليه باندهاش ليعرفوا مدى جدّيّته في السؤال. بعد برهة صمت، أجابه أحدهم بسؤال:
• هل يبتسم الديناصور؟ ومتى يبتسم؟
• كنت أحسب أن الديناصورات انقرضت!
• لكنها عادت بصورة أخرى، كائنات بشرية بنفس الفكر الديناصوري!
• هل يعني هذا أننا نعيش في العصر الديناصوري؟
• في السودان؟ في عهد الإنقاذ؟ نعم، نحن في عصر الفكر الديناصوري السوداني.
خطر لبليغ أن هذه النظرية تتطلب إعادة النظر في اختيار قياس المزاج الخاص بأستاذ الفاضل، أو تغيير الخطة كلياً ومناقشته حول توصيات الرسالة بغض النظر عن حالته المزاجية، وهذا ما حدث فعلاً.
• السلام عليكم.
• وعليكم السلام، تفضّل.
• إن لم تكن مشغولاً فعندي ما أناقشك حوله.
• خير؟؟
• طبعاً أنا أكملت الماجستير قبل ثلاثة أشهر.
• هل تريد إضافة الشهادة في الملف للحصول على علاوة الماجستير في المرتب؟
• لا، ليس هذا الموضوع الحالي، لكن الرسالة نفسها بها توصيات يمكن أن تخدم طبيعة العمل في الوزارة.
• « ... ».
• هذه نسخة من الرسالة يمكنك أن تطّلع عليها، وفي ختامها التوصيات التي يمكن أن تسهم في تغيير إيجابي.
• تمام.. لكن هذا الموضوع ربما يحتاج إلى زمن طويل وإجراءات. هنالك الكثير من التجارب التي قدّمها زملاء لي منذ عشرين سنة ولم نتمكن من تنفيذها.
• لعل توصياتي لا تحتاج إلى وقت ولا مال ولا زيادة كوادر عاملة.
• يبقى ما تقوله حلم! الأحلام وحدها هي التي لا تحتاج إلى وقت ولا مال، ولن أقول لك لا تحلم. على كل حال سوف أقرأ رسالتك وأقدّم لك رأيي لا حقاً. هل هنالك موضوع آخر؟
• لا. هذا فقط ما كنت أريد قوله.
• طيب، أرجو أن تجهّز لي مطبوعات الاجتماع باللجنة الفنيّة، والذي سيقام في نهاية الأسبوع القادم.
• أغلب الأوراق جاهزة ومنسقة، وسأكمل البقية خلال اليوم إن شاء الله.
• « ....... ».
«لك الله يا وطني ..
لرفعة شأنك كم قد سهرنا أنا والرفاق..
فكنّا نذاكر..
نراجع كل المقالات كل المقرّر في الجامعة..
ظللنا نتابع كل جديد..
مع فوكاياما، وديمينغ، وبيتر دراكر..





مع كل ما كتبوه بعلم الإدارة..
يأخذنا للنجوم الزواهر..
فهل ضاع ذاك هباءً؟
لك الله يا وطني!»
بليغ وصل إلى نتيجة كان يرفضها ويغالط حولها في كل نقاش: «هذه البلد لن ينصلح حالها في القريب العاجل، وما تعلمناه سيظل فيها أضيع من قمر الشتاء الذي لا يتسامر الناس في لياليه».
نحن غرباء في بلادنا، نحن محكومون بالفكر الديناصوري!
المرتّبات الشهريّة لأصحاب الدرجات الوسطى في الخدمة المدنية لا تتجاوز ما يساوي أقل من ٤٠ دولاراً أمريكياً.
امتلأ عقل بليغ بفكرة واحدة، الهجرة!
أصبح لعدة أشهر في حالة تقشف. يحصل على القليل من المال في عمله في الوزارة، فيضطر إلى العمل الإضافي في تدريس اللغة الإنجليزية بالمعاهد المنتشرة في السوق العربي؛ صار يوجه أكثر دخله لشراء ما تيسر من الدولارات، لتكون رفيقته في أصقاع العالم التي ليس له فيها حنان أم ولا رحمة أب.
في ذات الوقت كان يرسل سيرته الذاتية إلى كل أنحاء العالم عبر مواقع التوظيف، وعبر البريد الالكتروني حيثما وجد إعلاناً؛ حتى جاء اليوم الذي وجد فيه رسالة من شركة عالمية تعمل في جنوب افريقيا تعلن اختيارها له في وظيفةً براتب يزيد عن عشرين ضعف راتبه الحالي، على أن يوقع العقد خلال فترة لا تتعدى شهرين فقط.
واحتار بليغ في كيفية تجهيز نفسه في هذه الفترة الوجيزة، وليس له من يقترض منه مالاً، وظروف أكثر الناس الذين يعرفهم لا تسمح لهم بمعاونته ماليّاً. وعندما أسرّ بالموضوع لأحد أصدقائه قدّم له فكرة أن يستقيل ويطالب بفوائد ما بعد الخدمة عن كل الفترة التي قضاها بالوظيفة. والخطير في هذه الفكرة أنها لن تترك له خطّاً للرجعة لوظيفته إن عاد للوطن.
قضى ليلته مؤرّقاً، وبعد أن نال رضا والديه واستشار إخوته بما فيهم الأصغر منه سنّاً، ذهب في الصباح الباكر نحو مكتب شؤون العاملين ليبدأ اجراءات الاستقالة وصرف فوائد الخدمة، وليقابلها هناك.
• عفراء.
• نعم يا دكتور بليغ.
• قبل أن أغادر الوزارة إلى غير رجعة، لا بد أن أخبرك بأنني ظللتُ أفكر فيك بطريقة مختلفة.
• كيف يعني؟
• بصراحة.. آآآ.. تفكيري بك لا يشبه تفكيري بأي شخص آخر.
• «........».
• أحبّك يا عفراء، وسأعود لك وحدك، فهل تقبلين بي؟
• بليغ!!!!!
لا تذكر عفراء أنها سكبت في حياتها دموعاً مثل ذلك اليوم بأحاسيس الفرح باكتمال دائرة الحب، والحزن على فراق الحبيب.
وعلى شاطئ الأحلام أمست عفراء عدلان في قمة الشوق، إن كان للشوق قمة!
«سأظل أهدهد عشقي له في الضلوع ..
وأحمله فكرةً لا تراوحني في المدى..
صوته سيظل الوحيد الذي يتردد في خاطري كالصدى..
سأظل أواري الشموع لألمس دفء الغرام بقلبي هنا مُوقداً..
فالغرام نعيم..
وقلبي يهيم..
سأظل أفكّر فيه طوال النهار وليلي البهيم».
ومضت السنوات..
بليغ حالياً في مدينة كيب تاون، لا يزور أجفانَه النومُ حتى تكتحلَ عيناه بمكالمة الفيديو مع زوجته الحنون وطفليه التوأم الذين يعيشون في الخرطوم.
• بليغ.. اليوم سأل عنك الزملاء بشدة، افتقدناك في احتفال مرور عام على الثورة.
• يا سلاااام.. الغربة ابعدتني عن كل هذا الجمال.
• تم تكريم حاجة كلتومة.
• كيف حالها؟ أرجو أن تكون قد تحسنت حالتها بعد الإصابة التي تعرضت لها في موكب يناير؟
• بخير.. مبتسمة رغم كل شئ، وراضية بقضاء الله.
في أثناء مكالمة عفراء وبليغ، تردد صوت ابنيهما التوأم (محمود وعدلان):
• صدتت ما صدتت صابينّا.. حتى لو صدتت صابيّنا.
يضحك بليغ وعفراء بملء الحب والشوق.
• أتعرفين يا عفراء؟ هذه الثورة المجيدة لن تتوقف حتى تشيّعَ أخر نعوش الفكر الديناصوري إلى خارج تاريخ السودان وجغرافيته.
(النهاية.. أو قل إنها البداية).



# يقظة...



لبنى حسّاك - المملكة المغربية

تقاذفت الأفكار إلى رأسي مثل قطيع يندفع نحوي محاولاً افتراسي... تساءلت معاتباً نفسي، كما اعتدت أن أفعل دائماً، لماذا عدت إلى هنا؟ ما الذي ذكرني بهذا المكان؟ لقد انقطعت كل أواصر الوصل بيننا بعد وفاة والدتي. ولهذا السبب كنت أرفض العودة، حتى أنني لم أزر قبرها إلا مرة واحدة منذ وفاتها. لست ابناً عاقاً، لطالما أحببت والدتي، واعتقدت على حين غرة أنني هالك بعدها لا محالة، لكنني شخص معتوه وجد طريقه بعد فقدان أسرته... انقطع الرابط الأخير ثم ذهبت بعدها إلى حال سبيلي. شعرت أنني أحب الحياة أكثر من ذي قبل، وأزعجتني فكرة أن يباغتني الموت وأتلاشى في العدم، بعدما رحبت بي الحياة ورحبت بها، وتماهينا مثل جسدين منتشيين إثر بلوغ ذروة اللذة. هي تمارس غوايتها وأنا أمارس فحولتي بكل التهور الممكن رغم علمي أنها ستغدر بي. تسمّرت بجانبها ككلب ضال، هزيلاً وبلا وجهة، ففتحت لي نافذتها عطفاً عليّ... فقفزت إلى الداخل ولم أشأ بعدها المغادرة مطلقاً. نعم لا زلت حياً، ولا زال جسدي يرتجف من ثقل فكرة الموت... لكنني ضللت الطريق من جديد، لعلني لذلك عدت إلى هنا، من حيث انطلقت إثر ما اعتبرته ولادتي الثانية، باحثاً عن كل السبل التي قد ترمم أعطابي... هل سأنجح هذه المرة أيضاً؟ لماذا أشعر اليوم أن جراحي قد تعمّقت أكثر من أي وقت مضى؟ لم أكن مكلوماً بهذا القدر حتى في أكثر محطاتي بؤساً وقتامة. بدا رأسي كأنه يدور وازدحمت الاحتمالات أمامي، دون أن أجد سبباً واحداً شافياً يفسر هذا الارتجاج الذي أصابني. وددت لو يسير الزمن قدماً دونما التفاتة، لكنه بدا كمن يجرني عنوة إلى الخلف. كان قوياً جداً، أقوى مني بكثير ومع ذلك لم أجد بداً من المواجهة... سأمسك بطرف آخر فرصة لي أملاً في الخروج ناجياً من هذا الازدحام الشقي.

تسير قدماي بي إلى حيث لا أدري لكن أفكاري تستمر في وخز جسدي لأتوقف عن الحركة... هل أدنو من الجنون؟ وأي جنون هذا الذي ينذرني باقترابه؟ كيف تغدر بي الحياة بهذا اللؤم والعنف البالغين، رغم أنني سألقى حتفي في النهاية شأني شأن الآخرين؟... لست شخصاً استثنائياً. إنني الشخص المعتوه نفسه الذي هرول إلى الحياة كطفل جائع، لكنني الآن عرضة إلى الزوال، بعدما أدمنت التعاطي إلى الحياة... إنني أرفض الموت، لماذا إذا يحرص على مطاردتي ولماذا أصر على تفاديه؟ زحفت رغم انهياري صوب الخمارة التي اعتدت ارتيادها، كانت خطواتي بطيئة جداً، كأنني أجر خلفي أعباء كونية لا أحد بوسعه جرها غيري، وكأنني الكائن الوحيد الشاهد على مثالب الوجود. بدا العالم من حولي كتماثيل غير قادرة على الحركة أو الشعور، وكأن الحياة تسحب نفسها شيئاً فشيئاً في هدوء تام لا يخلف أثراً يذكر... لا عويل ولا صراخ ولا مقاومة، نأتي إلى الوجود كومضات سريعة الزوال، لا أحد منا يشعر بالآخر عندما يدركه دوره، ويضمحل شيئاً فشيئاً إلى أن يتلاشى، فليس مسيرنا الجماعي إلا حدثاً عابراً قبل وجوب الانفصال... انزويت في ركن داخل الخمارة التي بلغتها بعد دهر طويل، أريد لهذه الليلة التي تبدو لا نهائية أن تنقضي بسرعة. طلبت قنينة ويسكي أملاً في ذلك، اعتدلت في جلستي لأطرد الأنظار القادمة نحوي. تمنيت لو أنني كنت كائناً خارج الزمن، شخصاً لا مرئياً بوسعه نزع ملابسه والاستلقاء فوق الأريكة، مكتفياً بمشاهدة المترددين على الخمارة.

لم أكن أعي شيئاً من حولي على الإطلاق، كنت حاضراً بجسدي لا غير. غرقت في ذكرياتي حتى شارفتُ على الاختناق، فكيف أهتدي إلى سبيل الخلاص؟ كنت أدرك بين وبين نفسي جيداً جواب هذا السؤال لكنني كنت أشد وهناً من أن أواجه الحقيقة اللعينة، وربما الحقيقة الوحيدة التي لا يمكنها النضوب مهما كبرت أكاذيبنا. ليست الخمارة في الواقع ولا الويسكي إلا امتداداً لهذه الأكاذيب، مثلما لسنا جميعنا إلا امتدادا لبعضنا البعض عندما يتعلق الأمر برهاب الموت. وحده الموت يذكرنا بحجم هشاشتنا وتعاستنا وعجزنا كلما ألهتنا الحياة عن ذلك، وحده الموت ينبهنا إلى مدى تشابهنا مهما اتسعت الفوارق بيننا، وحده الموت يشكل خلاصنا. يا للمفارقة، ترى ما الذي لا زال يربطني بهذا الوجود على نحو يجعلني أرفض فكرة الرحيل؟ ما أشبه اليوم بأمس عندما فقدت والدتي وبدت الحياة وقتها مشلولة عاجزة عن الحركة وأنا مستلق فوق جثتها وجسدي يرتجف من بشاعة المنظر. انكمش الزمن طويلاً داخل هذا الحدث المشؤوم بينما تبدّت تفاهة الوجود صريحة ووقحة أكثر من أي وقت مضى، كم هي حياتنا مهترئة وآيلة للسقوط. انتبهت كمن استيقظ لتوه من غيبوبة إلى أن المكان ضجّ بالزبائن الذين ارتفعت أصواتهم في غمرة أحاديثهم، واصطفت قنينات النبيذ كشاهد على بؤسنا... كم تكرر هذا المنظر أمامي لكنه اليوم تلبس معاني أخرى، فأنا لست الشخص نفسه الذي أتى إلى هنا أمس أو الذي سبقه، مثلما لم أكن منبوذاً من الحياة مثلما أنا منبوذ اليوم... ما أشد هذه العزلة التي تجعلني أتآكل وأنشطر إلى أشلاء، حتى إنني لا أقوى على لمّ أشلائي وأمضي جانب الحياة مكسوراً مطأطأ الرأس معلناً انهزامي.

كان الجميع مستغرقاً في الحديث، تماماً كما أنا مستغرق في محادثة نفسي، فحتى وإن كنا نتشارك المكان نفسه لا أحد منا يكترث للآخر في الواقع، لكل منا معاركه ووحدها معاركنا الخاصة قابلة للإبصار، مثلما أنا جالس هنا أتصارع مع أفكاري بمفردي لا أرى أحدا ولا أحد يراني. أنا

أيضاً شخص نرجسي أقاتل من أجلي، من أجل أن أخرج من العتمة، من أجل أن أتحرر من أعبائي، من أجل أن أحيا... كل شيء يتعلق بي، وفكرة العدم ترعبني بالقدر الذي تريحني به، لكنني لست على استعداد، فمتى يتحقق ذلك؟ أتساءل كيف بوسعي ألا أكون مستعداً للموت رغم يقيني بأن وجودي ليس إلا انحدارا صوب اللا وجود، وأن موتي لن يهز شعرة من الوجود مهما كان دراماتيكياً، ثم سأمحى داخل النسيان. نعم، لن يشكل غيابي فارقاً يذكر، ستمضي الحياة على جثتي وجثث رفقائي من الموتى دون أن تحزن لفقداننا، فلماذا كل هذا التمسك بها؟ ليس وجودنا من عدمه في الحقيقة ذو قيمة إلا داخل مدارنا، وخارج هذا المدار لسنا إلا كائنات ضئيلة تصارع من أجل البقاء، شأنها شأن باقي الأنواع، حيث لن يكون اندثارنا لسبب أو لآخر إلا مشهدا مكروراً لن يتسبب في تعطيل الزمن ولن يتوقف الكون على إثره عن الحركة.

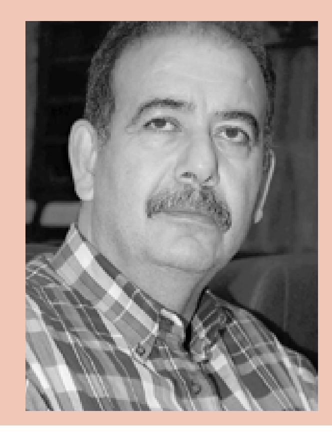
عقارب الساعة تزحف ببطء شديد، والخمارة توشك على غلق أبوابها بعد انصراف معظم الزبائن... لا أذكر من تفاصيل هذه الليلة إلا القليل القليل، وسط شرودي وذكرياتي المثيرة للشفقة. لم أكن أرغب في العودة إلى المنزل لكنني كنت منهكاً جداً وجسدي يوشك على السقوط. أنهيت كأسي الأخير، ودفعت الفاتورة ثم مضيت إلى حال سبيلي. ترى متى يأتي الصباح رأفة بي أنا الذي لطالما كررت على مسامع الآخرين كوني كائن ليلي؟ ها أنا ذا الآن أتوسل إلى الليل كي ينقضي، مثلما أتوسل إلى هذه العزلة الثقيلة بأن تمنحني قسطا من الراحة. كم أتوق إلى التحرر من هذا التيه الذي يملأ كل أجزائي والعودة إلى اندفاعي وجموحي قبل أن يهوي بي إيماني ويضعني على حافة الهاوية. أدركت وقتها حجم وحدتي، وأنه لا مفر لي من الغرق في هذا التيه بمفردي، لا أحد منا يشاطر الآخر تعاسته، فحتى المواساة نفسها ليست في الواقع إلا تعبيراً عن المسافة التي تفصلني عن غيري... لا شيء يغير حقيقة كوننا نواجه في نهاية الأمر مصيرنا فرادى. شعرت بأن كل رغباتي بدأت بالأفول الواحد تلو الآخر، وددت لو كان بوسعي أن أخلص نفسي من هذه اللعنة التي ألمت بي، وأنا موقن بأن ذلك لن يكون ممكناً إلا بإطلاق الرصاصة الأخيرة للانتقال إلى حالة الأفول الأبدي.

ألم يكن من الأفضل لي لو أنني لم أوجد على الإطلاق؟ يا لغائلة الوجود الذي أخرجني من العدم دون أن أملك حق الاختيار، فما الجدوى من وجودي؟ ها أنا ذا الآن أقف قبالة الحياة، والموت في ظهري ينتظر اقتناص فرصته للانقضاض عليّ، فماذا أنتظر؟ ها أنا ذا الآن أملك حق الاختيار بالفعل، ومع ذلك لا زلت أتمسك بالحياة كمن يمسك بيديه حبل المشنقة الملتف حول عنقه محاولاً إزالته عبثاً.

إنني لا أختار الموت، وبهذا فأنا لا أقوم سوى بتأجيل نهايتي، فإن لم أضع هذه النهاية بنفسي سيتسلل الموت إلي على حين غرة بعد أن ألتئم وأعود للانهماك في الحياة، ثم أتبدد ببساطة متناهية تدعو إلى التساؤل إذا ما كنت موجوداً بالفعل.

بلغت المنزل بالطريقة نفسها الذي بلغت بها الخمارة بداية هذه الليلة، فتحت الباب ودخلت، لم أشأ أن أشعل النور واكتفيت بالضوء الخافت الذي تسرب من مصابيح الشارع إلى غرفتي، نزعت سترتي واستلقيت على السرير جسداً مضنى يستجدي هو الآخر طلبا للراحة... فكرت أن هذا الألم الحاد بوسعه أن يزول بجرعة زائدة من العقاقير فحسب، لكنني سخرت في الوقت نفسه من اختياري الأقل خطورة من بين السبل الأخرى الممكنة التي تؤدي إلى موت محقق، كأن ألقي بنفسي من مكان شاهق العلو ينعدم معه احتمال نجاتي، أو أن أقفز قبالة قطار سيفتت جسدي لا محالة... رأسي يكاد ينفجر، ماذا لو أنني أقطع وريدي وأنزف وحيداً حد الموت؟ فحتى وإن لم أكن وحيداً لا شيء سيغير مصيري. ما الشيء الذي تغير وأنا بجانب والدتي ساعة الاحتضار، لم يكن بوسعي فعل شيء غير الشعور بالعجز واليأس، دخلت حالة من الذهول وأنا أعيش هذه التجربة للمرة الأولى، دون أن أكون قادراً على استيعاب هذا الغياب الذي لا رجعه فيه. تراجعت كل الصور القديمة عن والدتي بينما علقت بذاكرتي لحظة احتضارها فحسب، اللحظة التي دقت المسمار الأخير في نعشي، ثم لم تنقض إلا بضع هنيهات حتى أنجز الموت مهمته دون اكتراث لنحيبي وللألم الذي كان يمزق أجزائي من شدته. خيل إلي تحت تأثير الويسكي الذي لم ينسحب بعد كلياً من جسدي أنني أسمع نداء أمي وأشعر بوجودها في غرفتي... تملكني الخوف وأنا أحاول التحقق مما يجري حولي، تساءلت في قنوط هل دقت ساعتي؟ تسارع نبضي وشعرت ببرودة محسوسة تسري في كامل جسدي، أغمضت عيني واستسلمت لهواجسي، لا مفر لي إلا المواجهة... أنا مجبر على دخول المعركة وإن كنت موقنا بأنني سأخرج منها خاسرا رغم انتصاري... نعم سأنتصر أخيراً لكنني سأخسر في الوقت الذي سأنتصر فيه...





# محاولة استيعاب

علي بنساعود - المملكة المغربية

لم أصادفها على سلم العمارة، ولا في المصعد، منذ أكثر من أسبوع... تركْتُ لها بضع كلمات بعلبة رسائلها، عند المدخل، أسأل عنها، متمنياً أن تكون بخير...

في اليوم الموالي، وأنا خارج للقيام بجولتي المسائية، وجدت الأنيقة البشوشة، المقيمة في الشقة قبالتي، منذ سنة أو يزيد... تركت لي رسالة جوابية، تشكرني لاهتمامي بأحوالها، وتقول إن التعب منعها من الخروج، وتدعوني لزيارتها متى سمحت ظروفي بذلك، وضمّنَت رسالتها رقم هاتفها...

فتحتْ لي الباب، كانت تبدو متعبة، رغم ماكياجها الخفيف، وفستانها المشرق الفضفاض...

وأنا أسلم عليها، لفحني عطر دافئ أنيق، طوح بي بعيداً في غيابات جب طمره رماد التجاعيد...

سارت أمامي متثاقلة نحو الداخل. كانت شقتها جميلة بديكور بوهيمي الأثاث والألوان، تجلس على حافة كنبة بشراشف، فأجلس على الكنبة يمينَها... تتأمل باقتي، وكانت وضعتها في مزهرية، أمامها، عند المدخل، وقالت: ما أجمل ذوقك، باقة بيضاء في نقاء سريرتك!

رددت على إطرائها: ذوقك أجمل سيدتي، والحمد لله، أني وجدتك بخير...

أجابت وموسيقى هادئة تعطر المكان:

هي مجرد وعكة سأجتازها كما اجتزت أخريات قبلها...

بادرتها: جميل ديكور شقتك... من أين تقتنين هذه التحف؟

ردت: بعضها إرث عائلي، والباقي حصيلة أسفار في الداخل والخارج...

انحنت قليلاً، على مائدة خشبية صغيرة، عليها صينية من نحاس، صبت لي قهوة مُرّة، كما أشتهيها، وقدمت لي الفنجان في صحن، وكانا متناسقين حجماً ولوناً...

رشفَتْ من فنجانها، وواصلت: وَعْكَتي هذه، يا صديقي، محطة في رحلة طويلة مع المرض، ولأنني أقوى منه، أخرج من مبارزته، دوماً، سالمة معافاة...

أكيد، سيدتي، قلت، إرادة المريض وحالته النفسية حاسمتان في علاجه...

تصور، أضافت، رحلتي مع المرض أطفأت، قبل أسبوع، سنتها السادسة والعشرين... رأت علامات الدهشة على محياي، فواصلت:

قبل ست وعشرين سنة، كنت طالبة جامعية، وفي آخر أيام امتحانات التخرج، تعرضت لحالة اختناق لم أعرف مثلها من قبل، توجهت إلى الطبيب، أجرى لي تحاليل وأشعة، بعدها استأصل الفص الأيمن من الغدة الدرقية، وأخضعني لجلسات علاج بالأشعة...

اقشعر بدني...

بعد سنتين، واصَلَتْ، اكتشفت إصابة الفص الأيسر، فتم استئصاله بدوره، وخضعتُ لجلسات الإشعاع ثانية، بعدها بسنة، ظهر ورم خلف القفص الصدري، استأصلته أيضاً، لكنه انتقل لينتشر في الغدد اللمفاوية بالرقبة، فاستأصلت المصابة منها، فانتقل إلى المبيض ومنه إلى الرحم... واصلتُ المعركة ضده، وكنتُ أقوى منه...

بعد تسع عمليات أجريتها، اكتشف الطبيب، أخيراً، ورماً جديداً في شريان القلب الموصل إلى المخ، ونسبة نجاح استئصاله ضئيلة جداً...

طبعاً، أكدَتْ، لكل واحدة من هذه التجارب ندوب لا تُمحى، ناهيك عما أعانيه من ألم وإرهاق وغثيان وقيء وتساقط الشعر وضيق التنفس...

حاولت ألا تظهر علي ملامحي علامات التأثر، لكن عيني اغرورقتا، فقالت: آسفة، صديقي، أنني أثرت شجنك...

اتضح لي أن السيدة تريد أن تفضفض، وتفرغ ما يقلقها ويثقل عليها من ذكريات ومشاعر، فقلت لها: قلبي معك سيدتي، والجار الحقيقي ينبغي أن يكون سنداً لجاره، وإلا لما قيل: قبل أن تسكن منزلاً، استفسر عن جارك... واصلي، قد يخلصنا الكلام من بعض ما يضايقنا ويوتر أعصابنا...

تحملني أرجوك، قد...

لم تُكمل جملتها، استرسلت:

كنت أتوقع وقوف أقرب الناس إلى جانبي في هذه المحنة، لكنه لم يفعل! بل إنه، بمجرد ما علم أن الورم الذي أصابني خبيث، تغيرت معاملته لي، وظهر وجه آخر أخفاه عني طيلة سنوات ارتباطنا...

كان رحيله أقوى حافز لي لأقاوم المرض، لأتشبث بالحياة، ولأثبت له ولنفسي أنني، وإن كنت أحببته، يوماً، أستطيع أن أواصل حياتي دونه...

في هذه الأثناء، أدار مفتاح قفل الباب، دخل ستيني بقوام وزيّ رياضيين، وقفَتْ مندهشة:

أهذا أنت؟ ما أجمل مفاجآتك! وارتمت في حضنه...

استكانت لحظة، وهو يمسد شعرها، ثم استدارت نحوي تقول له: دعني أقدم لك جارنا اللطيف هذا...

تصور، جاءني بهذه الباقة الحمراء يطلب يدي...

وابتسمت لي قائلة:

أصدقتني الآن؟ هذا زوجي، كان مسافراً، وعاد للتو...

لا أذكر إن كنتُ سلمتُ عليه حين مد لي يده...

وجدتني في شقتي، تحت رشاش ماء بارد، أحاول استيعاب ما حدث، وحين نظرت خلفي، اكتشفت أن لا انعكاس لصورتي على المرآة!

تساءلت: أين اختفيت!؟

في الصباح، سألت البواب عن سكان الشقة قبالتي، فقال:

إنها الشقة الوحيدة التي لم تُسْكن قط في هذه العمارة!!!

# في القطار



حسن كشاف - المملكة المغربية

كعادتي وصلت إلى محطة القطار متأخراً، حتى أني كدت أضيع الرحلة، لولا الألطاف وبراعة سائق الأجرة. ركبت أخيراً هذا القطار الذي مللته، غير أنني أفضله على السيارة.

جلست قبالة رجل وزوجته، كان لهما ابنان، الأول قد يكون في السادسة، والثاني رضيع في شهوره الأولى. وضعت محفظتي بجانبي، وشغلت نفسي بتأمل الصغير، الذي كان يدحرج كرته قبل أن تنسل من بين رجليه، كان الحنين يعاتبني على عدم تكوين أسرة، تملأ علي الدنيا مطالباً وصراخاً، قاومت متمسكاً بموقفي من الزواج والإنجاب.

انتبهت إلى نظرات الصبي نحوي، إشاراته المتكررة فرضت علي الانحناء لإخراج كرته من تحت الكرسي.

- تفضل ها هي كرتك أيها البطل..

- شكراً عمو، هلا لعبنا سوية؟

يصدر الأب أول ردة فعل، ممسكاً يد الصبي، جاراً إياه إلى الوراء حيث مقعده.

أحسست بالحرج.. فدعوته لكي يسمح له بذلك، وأني سألاعبه بسعة صدر.

ابتسم الأب، ونظر إلى زوجته التي كانت ترضع صغيرها، واصلنا اللعب لمدة قصيرة، وأحدثنا جلبة كبيرة ذكرتني بطفولتي.

كانت الزوجة قد أحضرت معها وجبة الأرز بشرائح الدجاج، دعاني الزوج إلى مشاركتهم الأكل، كان لذيذاً وذكرني بأكلات الوالدة رحمها الله، كان الرجل ينظر إلي بين الفينة والأخرى وفي فمه كلام، ثم نطق أخيراً:

- من أين أنت يا سيدي؟

- أنا من فاس.. أشتغل طبيباً بالدار البيضاء.

- تشرفنا سيدي الطبيب، أنت إذن تسهر على صحتنا، قالها وقد اعتدل في جلسته، ورتب هندامه، وكأن الألفة قد زالت بيننا.

همست زوجته في أذنه، فابتسم بخبث: زوجتي تتساءل عن المستشفى الذي تشتغل فيه، فهي تكاد تعرفها جميعها بسبب مرض أخيها.

أخبرتها باسم المستشفى، فبدأت تحكي عن عشرات الزيارات لهذا المستشفى، والجفاء الذي كانت تجده من كل مكوناته، إلا من السادة الأطباء، حفظهم الله.. هكذا علقت ممتنة.

أحسست بالانتشاء الذي ينتابني كلما كنت راضياً عن نفسي.. وكان عليّ أن أعيد كسر جدار الجليد، الذي أقامته مهنتي مع الزوج فسألته:

- هل تمارس الرياضة يا سيدي..؟ تبدو رشيقاً، ابتسم.. فارتحت لانفراج أساريره:

- كنت أمارس رياضات كثيرة قبل الزواج، أما الآن فأنا أمارس الجري فقط..

- جميل.. هذا أمر جيد، أحسنت اختيار الجري، يبدو أنك تعلم أنها رياضة يستفيد منها الجسم بأكمله. كنت أثني عليه بجدية، في الوقت الذي كانت تنظر إليه زوجته باستغراب، وهو يخفي ابتسامة شيطانية، ثم انفجر ضاحكاً:

- أجري يا سيدي وراء الخبز هي.. هي..

لا أعرف كيف ارتسمت الابتسامة والضحكة على محياي، ولكن خدعته كانت جميلة، وانطلت عليّ الحيلة.

الابن يتعلق بيدي ويقول:







- عمي هل لك ابن لكي نلعب سوية؟

رمته أمه بنظرة تأنيب، غير أني انحنيت وأجبته مجاملاً:

- ليس لدي أبناء، لكن يمكنك أن تزورني ونلعب سوية..

تسارع والدته إلى التساؤل: إذن ليست لك زوجة!!

- لا، لا أعتقد أن الأمر ضروري، أنا أعيش وحدي..

ترمقني المرأة بنظرات استغراب: ألا تشعر بالوحدة؟! ألا تريد أن يكون لك أبناء يخلدون اسمك في المستقبل؟؟

لم يكن لكلماتها أي وقع على نفسيتي، كان هذا ليحطم قلبي سابقاً، لكن حوادث الأيام جعلتني أكثر تمسكاً بقراري يوماً بعد يوم. كانت الزوجة في انتظار ردي، فأردفت:

- لا.. لا على الإطلاق، لا أحس بأية وحدة!

حدق في الرجل بجفاء، وكأنه يتأمل آلة، فأخرجت هاتفي وتلاعبت بأزراره، بينما كنت أنتظر أن يكف عن تلك النظرات، وأخيراً نطق:

- مهنة الطب صعبة للغاية كان الله في عونكم..

- صحيح.. لكننا نحبها.

- لا أعرف كيف تتحملون ذلك!! أنا أهتز كلما رأيت دماً، أتعجب كيف تملكون القدرة لإجراء عمليات معقدة.

- لقد اخترنا هذه المهنة، ونحن نقوم بذلك بشغف كبير..

- ألهذا يقال أن أفئدة أغلب الأطباء صلبة، ويصعب التأثير فيهم، وابتسم وكأنه كان يعنيني تماماً.

بادرت بابتسامة مصطنعة، كنت أريد إفحامه لهذا استهدفت جانبه النفسي: تخيل معي لا قدر الله أن ابنك هذا يحتاج لعملية جراحية في القلب، هل كنا سنجريها له بالعاطفة والعناق الحار هي.. هي..

تخترق الزوجة هذا الحوار الذي بدأ يتوتر بعض الشيء:

- أعتقد أنك تحتاج إلى الحب، زواجك وإنجابك للأطفال سيغير الكثير من هذه الآراء، أراهنك !! قالتها والخجل يرتسم على وجنتيها..

أجبتها بطريقتي في التفريج عن المرضى قبل أو بعد أي عملية: لن أراهنك أبداً يا سيدتي.. هي.. هي.. لن أقع في هذا الفخ، لدي أسبابي الشخصية..

كانت تبتسم وتجهز لي سؤالاً آخر، غير أن صراخ الرضيع أنقذني من هذا التحقيق، فتنفست الصعداء.

غادرت الزوجة، أعتقد أنها قصدت المرحاض، بقيت مع الزوج، كنت أقرأ في عينيه عشرات الأسئلة، لكنني أبديت عدم اكتراثي، غير أنه ترك مكانه واقترب مني، مزيلاً المحفظة واحتل مكانها، ثم قال بصوت خافت:

- أخبرني يا صديقي، ما هو هذا السبب الشخصي المحير..؟ علمت أنك لم ترغب في الحديث أمامها.

وجدني أنظر إليه باستغراب، فاستدرك:

- أحب أن أعرف، هذا إن لم يكن لديك مانع؟!

قادني إلحاحه إلى البوح، كنت أريد التخلص من أسئلته على أي حال، فسألته بعد أن التفت إلى الصبي، فوجدته يغط في نوم عميق، ثم صفعت صاحبنا: هل أنت متأكد أن هذين الطفلين من صلبك يا سيدي؟! فاستشاط غضباً وحدجني شزراً، ثم تغيرت ألوان وجهه تباعاً، حتى استقرت على الصفرة، وبدأ العرق يتصبب من جبينه رغم أن القطار كان مكيفاً، كانت عيناه مفتوحتين، إلا أنه غادر بتفكيره إلى مكان آخر، تكلم أخيراً وبهدوء قاتل:

- ماذا تقصد إذن..؟!

كنت أعلم أنه يبحث عن سر هذا السؤال الخطير، فأسرعت إلى التبرير:

• لا أخفيك علماً يا سيدي أن تجربتي في مجال التطبيب جعلتني أقف عند مجموعة الحقائق، لنقل أنها شكلت صدمة قوية بالنسبة لي، بطلاتها نساء ماكرات خادعات. فكثيراً ما اكتشفت أن ما يحتضنه الآباء على أنهم فلذات أكبادهم، ليسوا إلا أبناء زنا وشهوات عابرة مع عشاق كثر، حتى أن تكرر قصَص من هذا القبيل أنساني عددها.

في الوقت الذي كان الرجل يجلس بقربي مشدوهاً شارد التفكير، عادت زوجته وأخذت مكانها، فشرع ينظر إليها بغرابة تخفي الريبة، وهو الذي لم يصدر منه أي سلوك معاد لها منذ أن تعرفت عليهما..

كنا قد شارفنا على الوصول.. لهذا ودعتهم، وحملت حقيبتي لكي أكون أول النازلين، شققت طريقي عبر الممر، فإذا بيد من خلفي تمتد إلى كتفي، وتردد إلى مسمعي صوت خافت:

• دكتور.. دكتور أستسمحك عذراً، هل لي أن أزورك في مكتبك؟ أريدك في خدمة..

حركت رأسي بالموافقة.. وغبت في الزحام.





# قصص قصيرة جداً



محمد المساوي - المملكة المغربية

## نوستالجيا

كان يتعلّم فن الرسم في بلاد بعيدة وباردة،
وكلّما شدّه الحنين لوهج الصحراء،
صار يخلط قطيرات من دمه برائحة النفط؛
فتتشكل دلتا حزينة
- على القماش -
وتظهر مدن وخلجان فاسدة.

## القصة / القطة

استلّ سلاحاً للصيد من صندوق تركة العائلة،
وأعاد حشو خزّان البندقية برصاصتين،
ثم أطلق النار...
طلقة في صدر القصة،
وطلقة في رأس المؤلِّف.
- تبًّا! لا تموت القصص بسهولة..
- لها سبع أرواح.

## طلسم

امرأة تحبّ...
كلما أربكها تمنّع رجل، حكّت ذقنها، ورسمت
خطوطاً - بالسّماق - على شيَة من جلد ضبع،
تنادي رجلها باسمه وباسم أمه...
فيقع!



## حبّ لا يموت

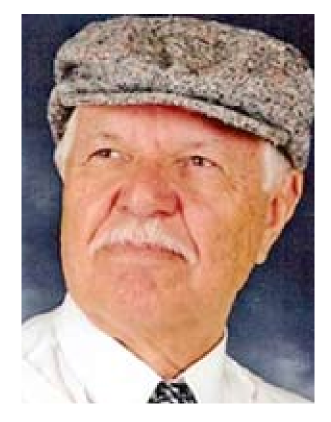
للذكرى:
أدمن التردّد إلى مكان دفنها؛
يدقّ جدار قبرها طَرقات متتالية،
ثم يتلفّت بحذر مشوب
ويطلق ساقيه للريح...
قبل أن ينفتح الباب!



## أسطورة

هكذا كانت حياة «آدم» ستكون:
كرة تنس، تنطّ فوق الشبكة وتتداولها المضارب
في كل اتجاه.
فقط الأفلاك ترقُب سقوطه المحتوم...
لكنّها «حواء» أربكت - بغنجها - رتابة الكون!

# صعلوك



**نازك ضمرة - فلسطين**
(قاضي وأديب توفي في ٢٩ يونيو ٢٠٢٠)

غرفة على شارع عام غير معبد، يكثر التراب فيه والغبار، وباب عيادة الطبيب مفتوح، أدخل وأرد السلام، يجلس خلف منضدته قرب المدخل، يحادث الطبيب نفسه دون أن يتنبه لي، يشير إليّ بيده للانتظار في غرفة في آخر المبنى مروراً بممرّ سيئ الإنارة، غرفة بلا باب ولا جدار فاصل عن مكان عمله، حاولت الوصول إلى كرسي في الزاوية البعيدة، أواني معدنية ضخمة كانت في الطريق، جربت تحريك واحدة منها، لكنها كانت ثقيلة، تذكرت أن قريبنا ظلّ ينتظر خارج المبنى، أما الطفل فظل ممسكاً بيدي، بل شددت قبضتي على يده لأضمن عدم مغادرته، فهو نشيط لعوب متوقد الذكاء في العبث والأمور التي تتعلق باللعب، يحب أن يعرف أي شيء يراه، ولأنه الأصغر فهو مدلل ومعظم طلباته ملبّاة، مع أننا لا نلبي له معظم طلباته، في منطقة سكننا لا توجد أشياء مدهشة (فانسي كما يقولون) ولا حتى ثمينة أو مزعجة، طلباته لا تتعدى الحلوى أو الفواكه أو حذاء أو لعبة ميكانيكية صينية الصنع، ولا تعيش مثل تلك اللعبة أكثر من يوم أو يومين على الأكثر.

زوجتي وأنا تناولنا جرعة من نفس الدواء، كان ذلك مساء الأمس، ثم تناولت هي جرعة ثانية من نفس الدواء صباح اليوم التالي، اشتكت زوجتي من مغص في الليل وقرقرة، حاولت الوقوف صباحاً فأحسّت بدوار، ومع ذلك تناولتْ جرعة الصباح، معتقدة أن الدواء سيخلصها من الآلام التي أقضت مضجعنا في الليلة السابقة، تراخت أكثر بعد الجرعة الثانية فلزمت الفراش، وبعد عصر ذلك اليوم خشيت الليل وآلامه، فقررت الذهاب إلى الطبيب شاكياً من آلام في أمعائي، دعوتها إلى مرافقتي لزيارة طبيب سبق وزرته مرات من قبل، وألمي لم يتوقف، حاولت زوجتي إقناعي بعدم زيارة الطبيب، لكنّ إصراري كان أقوى..

نهضتْ زوجتي أبكر من العادة يومها، وبرغم آلامها أعدت فنجان قهوة الصباح لي، لم أتنبّه لما تفعله، وإذا بفنجان قهوة على صينية فضية اللون، تقشر دهانها في بقع صغيرة متناثرة، واحتوت الصينية كأس ماء وطبقاً صغيراً به قليل من البسكويت، أما هي فقالت إنها لا تشتهي القهوة في ذلك اليوم على غير عادتها، قالت إن طعم الدواء ورائحته تنفرانها من أي شيء، كانت ما تزال بلباس نوم خفيف زهري، يكاد يمتزج مع بشرتها. كاشف أعلاه، وهفهاف أسفله برغم قصره، تراخت وترهلت، تمنيت لو آتي بحبتي الرمان اللتين حفظناهما في الثلاجة منذ زمن بعيد، يقولون إن عصير الرمان يشفى من المغص اللعين، سألتها عن موضع الألم الذي تحسّ به، فأمسكت يدي، وقالت هنا أسفل الصرة، شربت نصف فنجان القهوة، واثنتين من البسكويت. نسيت يدي على موضع الألم، أحسست بعطش فأتيت على كأس الماء المتوسطة ، سحبتها ومسحت فمي من الماء البارد، سألتها إن كانت ما زالت موجوعة، حاولت الابتسام لكن الألم غيّب



البسمة، أنّت وأنا أمسك بذراعها، نمشي صوب غرفة النوم، الوقت صبح وكنت مستعداً لمغادرة البيت، أنعشتني القهوة قليلاً، وتنتظرني أشغال أخرى لا بدّ من إنجازها بعد زيارة الطبيب، تقول زوجتي قبل مغادرتي

• لا تنس الهاتف النقال. قبل الابتعاد عن الباب، رأيت قميص نومها أقصر من ذي قبل، يلزمني جرعة دواء ثانية، تمر سيارة (همَر) مهيبة لامعة مسرعة، تثير غباراً في شارع مترب، سعل الطفل وتضايقت أنفاسي، ابتعدت عن البيت وأنا متكدر من الجو الخارجي. لا أدري لماذا أقنعت ابننا ليرافقني، يلتصق بي طفلنا الصغير حسب رغبة والدته، طلب قريب لي يكبرني كثيراً في العمر أن يصحبنا، كان ضجراً يبحث عمن يسليه، أخاطب نفسي، ليتني فعلت مثلها، تذكرت الدهاليز التي سنقطعها، والمصاعب التي ستلاقينا، سألني رفيقنا إن كنت أخاطبه، فأجبته:

• أشكو من ندرة الخضرة ومن ارتفاع أسعار الدخان ومن فساد الهواء.

• إذا عملنا أكثر حصلنا على دخل أكثر. لا أدري كيف فهم طفلنا موضوع حديثنا فقال في عناد:

• أنا أحب الآيسكريم كل يوم ولا أستطيع الاستغناء عنه يا أبي. أجبته:

• كل أسرتنا تحب الآيسكريم وأنا من ضمنهم. مع أنني أعاني من غازات كلما أكلت الآيسكريم، ظننت أن ما يجلبه أصحاب المحلات التجارية في منطقة سكننا نوعية رديئة أو غير مبرّد جيداً، جربت شراء أنواع أخرى غالية مستوردة من أميركا، ومن محلات كبرى يرتادها مالكو سيارات الهمر والمرسيدس والرولز، فعانيت نفس المشكلة، بل زاد الريح انطلاقاً وقوة وبأصوات يصعب إخفاؤها، وربما لكثرة المكسرات والملونات التي تضاف إلى آيسكريم الأغنياء، الغريب أنهم لا يحصل معهم كما أعاني، ومع هذا لا يهمهم الأصوات المزعجة والريح العاصفة، حتى لو رافقتها روائح كريهة.

في غرفة انتظار الطبيب جلست على طرف كرسي صغير أمام حواجز معدنية، احترت في أمر تلك الحواجز، ظننت نفسي في مركز أمن، قال أحدهم: أن تكون خلف الحواجز نصف العلاج، تمنيت أن يأتي دوري بسرعة، لأسأل الطبيب عن أسباب وجود الحاجز المنيع المكلف، ألمح الطبيب يمسك معصم ولد مراهق، مغمضاً عينيه كأنه حالم أو نصف نائم، فظننت أنني سأكون جالساً على كرسي في المقهى المجاورة لعيادة الطبيب في مثل هذا الوقت بعد شفائي بيومين أو ثلاثة، مقهى شعبية واسعة في ساحة واسعة فيها متاجر أخرى، قلّ مرتادوها من كل الأجناس، قال قريبي الذي ظل مصراً على مرافقتي حتى للطبيب:

• المحطات الفضائية، سواء في المقهى أو في الدكاكين، والجهة الغربية ما تزال مقفلة أمام العين، والشمس تحجبها غيوم كثيفة، والغبار كما يصفونه في نشرة الأخبار الجويةً يزيد أنفاسي ضيقاً، المذيعة الرفيعة البديعة تزيد همومك، تجعلك تقشعر وهي تشير إلى خارطة الثلوج والأعاصير القادمة، ننشغل كلنا بحكّ أعيننا. تلاحق طفلك وهو يحاول التحرّي في غرفة الانتظار الصغيرة.

في المقهى العريق قبل يومين يجلس قريبك الذي يكبرك على كرسي قصير من القش قديم، لم يأت أحد من العاملين في المقهى كي يسألكما عن الشراب، أكثر من نصف ساعة مرّت. ينادي الطبيب بنفسه علينا وبصوت أجشّ مكتوم، استغربت حين سألني عن اسمي، اهتز المكان بسبب رعد خفيف، جعلني أتلكأ في إجابتي، لكنه طبيب، ويزوره الكثيرون كل يوم، لم أعبأ بأفكاري وذكرت له اسمي، كتبه في مفكرته في تردد وبطء وبمهنية، يجسّ نبضي عند معصمي ثم يقول:

• ما الذي يشغلك أو يؤلمك؟

• سبق وزرتك عشرات المرات من قبل يا حكيم، ألا تذكر مزاحنا وأحاديثنا عن الشراب والحلوى والسمنة والأمراض التي تسببها، ألهذه الدرجة تراني تغيرت؟

• آآه، تذكرت، لم أكن متيقظاً لحظة دخولك. ثم أكمل قائلاً، أحب أن نراك باستمرار، لنهتم بصحتك، سألني عن الدواء الذي أتناوله للنوم.

• لا يهمني النوم يا طبيب، ثم أكملت، ننسى الدواء، كما ينسى الأطباء المرضى، استعجل الطبيب بتوديعي حين شاهد امرأة عجوزاً تتكئ على عصا تتجه صوب عيادته.

• نفس الدواء الذي صرفه لي قبل أربع سنوات. قال قريبي.

• هو طبيب وأدرى منا بعمله.

• إننا سعداء في حارتنا لأن حافلة ركاب النقل العام تصلنا، وتنقلنا إلى أي مكان داخل المدينة، أو إلى مدينة مجاورة.

• نحسب الوقت بالسنين والشهور في حارتنا، لاحظ قريبي شرودي.

قريبي الذي يسير بمحاذاتي يحب الكلام في مختلف أنواع المواضيع، سياسة، نقد، ترفيه، ذكريات، وحتى أنه يتغزل بعجائز بدينات أحياناً، لم تصادفنا امرأة واحدة في طريقنا الطويل في ذلك المساء، كنا نمشي ثلاثتنا، ولم تمر أي سيارة بعد مغادرتنا الطبيب، والشمس تجري لمستقرها الليلي، بل غاصت في البحر الغربي، تذمّر رفيق دربي وقريبي الأكبر مني سناً، لكنني أحب المشي وقد اعتدت عليه، يقولون إنه يقوي القلب، ويطيل العمر، وصلنا بقالة متوسطة الحجم، تدخلها امرأة متوسطة في العمر، متوسطة في الطول وفي الوزن وفي نوعية لباسها، بمشية معتدلة لا تلتفت يميناً ولا يساراً، كأنها روبوت يسير ببطارية شحنت لتوها، اقترح رفيقي أن ندخل لنرى موجودات البقالة ومن فيها، لكن طفلي الصغير سبق رغبة الرفيق، جذبني صوب البقالة كأمر محتوم، وحيدة في مبنى طويل قديم من طابق واحد، لا أبواب فيه ولا نوافذ إلا بابها الصغير، وربما كان باباً لمصلى أثري أو معبد، رجل كبير في السن يغادر المكان من المدخل إياه، قد يكون ذلك الشخص كفيفاً، وإلا فهزيل أو ضعيف بصر أعيته السنون، سأل قريبي صاحب البقالة عن أغراض دون نية في الشراء، ثم طلب مني طفلي الاستعجال بشراء ما يريد، علينا المشي السريع لأكثر من ساعة للوصول إلى حارتنا الفريدة، إذا غربت شمسنا يطبق الظلام علينا بسرعة، اشترى طفلنا ما أراد، لكنه اقتصر على الموز، وبعض الحلوى الصغيرة الصلبة، حمل ثلاثاً من الموز، قال واحدة لي وواحدة لك يا بابا وواحدة لماما، فاشتريت أربعة قدمت لرفيقي واحدة، ذكرني بالهاتف النقال، فاتصلت بالمنزل لأطمئن على زوجتي، فصاحت مولولة، ولدي أين ولدي؟ اختطف ولدي الهاتف النقال من يدي:

• هاي ماما، آي لوف يو، أنا آكل موزة، وأحضرت لك موزة معي، أتناول الهاتف وأسألها، هل شفيت وتحسنت حالك؟ فأجابت:

• (عمر الشقي بقي)، أظلمت الدنيا ولماذا تتأخر دائماً حينما تغيب؟

• آمل أن نكون عندك بعد ساعة أو..

• أو ماذا، هل ستبيت خارج البيت، قلت في نفسي، سأنام ملء جفوني الليلة.

• طمنيني عنك! أتيت لك بدواء.

• شربت الكثير من الماء والميرمية والبابونج، ويبدو أنني بدأت أتحسن، لكنني توقفت عن شرب دواء الطبيب القديم.

• هلو هلو... انقطع الخط.

أحسست بالجوع، تمنيت لو أن لدي مالاً كافياً لدخول مطعم نظيف، وصفوا لي واحداً خلف الحارة التي نسير عبرها، رن الهاتف النقال، فأقفلته نهائياً حتى لا يعمل ولا يرن.
حين دخلنا البقالة لم نعثر على المرأة التي شاهدناها تدخلها، والمحل واسع ومتشعب، ولا يوجد إلا زبون آخر، شاب يبحث عن دخان أصلي أي أجنبي، بعد خروجنا أدركنا أن الدقائق أصبحت مهمة، حلّ الظلام على منطقتنا بسرعة لم نكن نتصورها من قبل، والسير فيه صعب ومخيف، المهم أن نجتاز هذا الظلام، تشعبت المسالك، جادلني رفيقي أي فرع نسلك، فاختلفنا، وسلك كل منا فرعاً، واتفقنا أن ينادي الواحد منا على الآخر إن وجد منفذاً سليماً، ضاع رفيقي وغاب، مات رحمه الله، ربما كنت أحلم أو أنه مات منذ زمن بعيد، فهل يمكن أن يعود، ولو في يوم عيد؟، ارتاح ولن يعود، أنا ضائع ومشكلتي الكبرى وجود الطفل معي، والدواء السائل في جيبي أصبح يضايقني، يملأ زجاجة كبيرة منتفخة وثقيلة.
يلتصق الطفل بيد والده، لا يحس خوفاً من ظلام أو من انقطاع كهرباء، لكنه جفل مرة لأن قطاً كان مختبئاً ينتظر فأراً، وما أن خرج الفأر حتى هجمت عليه القطة، لكنه تأكد أنها قطة من نور ضعيف بعيد، وهو يحب القطط كثيراً.
أكل نصف قرن موز حتى تلك اللحظة، وصار ينوء بحمل النصف الثاني ويتذمر، يتناولها والده منه ويقضم ما تبقى منها. وجد الأب وطفله نفسيهما على سطح عمارة تتصل بمباني أخرى، والشارع الذي كانا يسيران فيه أُقفل بركام من حصى وتراب، ظنها الرجل عمارة انهارت فوق قاطنيها فأقفلت ذلك الدرب الضيق، كان يكفي لمرور سيارة ولشخص ماش بجانبها، ثلاثة أمتار أو ثلاثة ونصف، اضطررتما للمرور عبر ممرات ودهاليز ضيقة وملتوية، لا بد من المرور على سطوح منازل قديمة رجراجة، مقامة على أعمدة خشبية متآكلة أو معدنية صدئة، والمشي تحتها أو قربها أو فوقها خطر ومخيف، والطفل مشكلتي الكبرى، يتنبه الطفل المحمول المتشبث بعنقي إلى نافذة صغيرة، يبدو نور ضعيف من خلالها، تهلل وفرح، يستند الأب على جدران وعوارض خشبية هزيلة وقضبان معدنية صدئة، حتى بلغا النافذة الثمينة، لاحظ كتابة فاهية على خشب النافذة، جاء فيها (نحن عراقيون) أطل منها شبه إنسان ينطق بلهجة عراقية، سمعته يقول، (مختبئون في هذا الكهف لسنين)، لم أفهم قوله، بل ازددت تخوفاً واضطراباً، سألني طفلي إن كان يكلمني، لم أجبه، نظر خلفه ليتأكد أن لا أحد من جماعته يرقبه، ثم أكمل، لو كنت أعلم أنكما تستطيعان الوصول هنا ثانية لما ظهرت لكما، لكنه الطفل، نعم، الطفل فقط، ومن أجل الطفل، وحين لاح وجهه لنور السراج الضعيف، بدت عظام وجهه ناتئة، لكن شواربه طالت، مسدها وفتلها رفعها على الطريقة التركية، سقطت سِنّان من جانب فمه العلوي، فأثر ذلك على صحة نطقه قليلاً، لكن ثقته بنفسه عالية، والنخوة بدت جلية عليه والتفاؤل، سبق الطفل أباه في طلب المساعدة، ليدلنا العراقي على منفذ كي ننزل عن سطوح المباني القلقة، قال الطفل له: لا أحب أن أمشي على سطوح مباني متهاوية يا عمّ، فهل ستساعدنا؟ ترك الأب ابنه بتكلم على هواه، وحين توقف أضاف الأب:

- لا شك أن زلزالاً أو مصيبة حلت بتلك البيوت، ألا تحس باهتزازها، كلها آيلة للسقوط، فهلا ساعدتنا يا بني كي نسرع الخروج. ثم عاد الطفل يقول: أكره الاهتزاز يا عمّ؟

كان شاباً لا يزيد عن الخامسة والثلاثين عاماً. نحيفاً لكنه صلب عنيد، عيناه نجمتان بعيدتان مشعتان، لم ندر كيف خرج، ولا من أين خرج، لم يخرج من الكوّة الصغيرة التي كلمناه من خلالها، نظرنا إلى الجانب الآخر، فإذا به ينبثق من باب صغير كفتحة سرداب، أبقاه مفتوحاً، تقدمنا عبر طريق متعرج، أوصلنا إلى مناطق أعرف سبلها، هبت نسمة هواء باردة، أعقبها برق ضعيف، لاحت شجرة منخفضة جداً، وضعيفة النمو، تتساقط أوراقها وهي تقاوم، وتعبث فيها الريح، قال، طريقكم طويلة.
وأنت تنأى عنه، تحاول عدم الالتفات إلى الوراء، ولا إلى كل ما صار، قلت لنفسك، لا تدري أن الطريق طويلة أمامك أم خلفك.

---

نورث كارولاينا في ١/٩/٢٠٠٤.





# ڤالْ- دُو- فُونْتُونِيهْ

**تسنيم طه - السودان**

- انظري إليه كيف يسعل! يا إلهي، كم هذا مقزز!

تضجرت ذات الشعر الأحمر وهي تخفي أنفها الطويل بوشاحها الأبيض. فردت عليها جارتها الشقراء وهي تغطي أنفها الصغير بطرف وشاحها الأزرق:

- وانظري إلى أنفه كيف يسيل، وعينيه كيف تدمعان! يا إلهي، كم هذا فظيع!

ثم صمتت الفتاتان عندما لاحظتا التفات الأعناق نحوهما.

فقد كان القطار مكتظاً بالبشرِ كعادته في كل صباح حيث يملأه سكان الضاحية الشرقية المتاخمة لـ«ديزني لاند» وهم يأتون إلى أعمالهم في باريس. لكن سريعًا ما انكسر الصمت عندما أطلقت ذات الوشاح الأزرق، اللعنات جزافًا على هذا الصباح المقرف، قبل أن تستفهم باستنكار عن السن التي يمكن أن يكون قد بدأ فيها هذا الطفل مهنة التسول ليصبح محترفاً وهو لم يتجاوز السابعة من العمر، فعقبت عليها ذات الشعر الأحمر باستنكار  آخر من أن يكون في داخل فرنسا، وهي ثالث الدول الكبرى في العالم، أطفالاً لا يذهبون الى المدرسة لأن أهاليهم انتهكوا حقوق طفولتهم وزجوا بهم إلى التسول، فعقب الشقراء، بسؤال آخر عما إذا كانت ظاهرة تسول الأطفال بين أروقة القطارات محصورة على الغجر والرومان أم أن هناك مهاجرون آخرون يفعلون نفس الشيء ولا يكفيهم ما تقدمه لهم الدولة من إعانات فيراعوا حق الطفولة ويهتموا قليلاً بأمر النظافة وبأمر التعليم.

ولم تكترث الفتاتان لنظرات فتاة شابة سمراء، من أصول أثيوبية، وهي تطالعهن بتعجب استنكارًا على أصواتهن العالية التي حرمتها من التركيز في قراءة كتابها، واستغرابًا من انسجامهن في الحوار، وكأنهن ليستا مجرد راكبتين التقتا صدفة على متن قطار، وإنما صديقتين مقربتين تعودتا تبادل الشكوى والفضفضة من فظاظة المدراء في العمل، أو من مشاكل الأزواج في البيت، أو حتى من المعاناة بسبب ازعاج الجيران في الطابق الأعلى.

لكن الصمت عاد يخيم من جديد، مع اشتداد فوحان رائحة الطفل الذي كان قد أصبح بمحاذاتهن، فأسرعت الطالبة الأثيوبية بإخفاء وجهها خلف رواية «أَسْمَرة، والقضايا الخاسرة» للكاتب الفرنسي جان-كريستوف روفان، بينما أسرعت ذات الشعر الأحمر بفتح حقيبة يدها الجلدية، لتخرج منها منديلًا ورقيًا، بعد تمثيلها اصابتها بالزكام وافتعال عطسة أعطتها الحق في إخفاء أنفها  الطويل دون إحراج من أن تترجم حركتها على أنها ابداء فاضح للشعور بالاشمئزاز، فإذا بجارتها الشقراء تقلدها وتخرج منديلاً ورقيًا ومعه محفظة نقودها انتقت منها عملات معدنية زهيدة، مدتها بحذر شديد للطفل الذي كان يطالعها بنظرات خالية من البراءة، فالتقطتها دون قول كلمة «شكراً»، ثم راح يجول عربةً القطار المزدحمة بصعوبة بسبب كثرة البشر المتكدسين في الممرات تكدس السمك داخل علبة السردين.

ولكن، ولما لم يجد أحداً يعطيه مثل ما أعطته الشقراء ذات الوشاح الأزرق، عاد أدراجه مرة أخرى ليرجو ذات الشعر الأحمر أن تعطيه مثل جارتها، فطالعته الفتاة العشرينية بنظرات تنضحُ اشمئزازًا، ثم أشاحت بوجهها عنه لترمي ببصرها خارج النافذة عله ييأس ويتركها وشأنها، لأنها لم تكن من الذين يتصدقون بسهولة، بل من أولئك الذين أرعبهم شبح النظام الرأسمالي المستنزف لمصادرهم الاقتصادية بالضرائب (ضريبة الدخل، وضريبة السكن، وضريبة التلفاز، وضريبة امتلاك العقار، وضريبة القيمة المضافة على البضائع)، فعلمهم أن لكل «سنتيم» قيمة ويجب أن يُصرف في محله.



لكن الطفل لم ييأس، بل ظل واقفاً متسمراً أمامها يحك رأسه تارة وتارة أخرى يدخل اصبعه في أنفه ليعبث بمخاطه الأصفر المخضر. ولما طال تشاغلها بالنظر خارج النافذة، باغتها الطفل بمد يده اليسرى حتى كاد يلمس وجهها، فتراجعت بحركة تلقائية إلى الخلف، خشية أن تلتقط قملاً من شعره المنفوش أو أن تُصاب بالعدوى من سعاله الجاف، ثم أسرعت بفتح حقيبة يدها الجلدية، وهي تكتم أنفاسها، لتخرج على مضض، أول قطعة معدنية لمستها أصابعها، سلمتها إياه بحذر شديد خشية أنْ تلمس يدها أصابعه التي عاثت في أنفه المقرف، قبل أن تعود لتشيح بوجهها عنه، وهي تقاوم الغثيان وتتحسر على ضياع علمتها المعدنية التي خرجت بدون تخطيط مسبق.

استدار الطفل ليواصل تسوله في العربة المجاورة، ثم عاد ليقف هذه المرة أمام الفتاة الأثيوبية ليستجديها، مستعملاً نفس سلاحه لإثارة قرفها هي الأخرى، لكن الفتاة السمراء المليحة لم تكترث له كثيرًا وظلت تواصل ادعاء انهماكها في قراءة رواية « أسمرة- والقضايا الخاسرة»، ولما طال وقوف الطفل حدجت ذات الشعر الأحمر الطالبة السمراء بنظرة ناقمة حقودة لعدم اسراعها في إعطاء الطفل ما يدفعه للابتعاد عن المكان، وطال عذابها وهي تحبس أنفاسها وتقاوم الغثيان، خشية أن تستسلم وتفرغ محتويات معدتها أمام الركاب، وجاهدت وهي تعد إلى المائة في انتظار وصول القطار إلى المحطة القادمة، التي ما توقف فيها، وفُتحت الأبواب لتبادل حركة نزول وصعود الركاب، حتى انتصبت ذات الشعر الأحمر واقفة، ودافعت الواقفين في الممرات لتشق لها طريقا وسط الزحام وتلقي بنفسها خارج القاطرة.

وما أن وطئت قدماها أرض المحطة، حتى تحررت أنفاسها وانفجر القيء.

لحظات مرت عليها كدهر وهي منحنية تفرغ معدتها، قبل أن ترفع رأسها لتلفت حولها باستحياءٍ لتستبين إن كان هناك من يراقبها ويلعنها في سره، لكنها اطمأنت عندما لاحظت ألا أحد يعيرها اهتمامه.

ففي هذا الزحام الصباحي الكل مشغول بأمره: هذا مع موسيقى تعطل سمعه عما يدور حوله في العالم الخارجي، وذاك مع مشهد فيديو على «يوتيوب»، وآخر مع كتاب أو صحيفة يخفي فيها بصره، ولأن الأنف هي العضو الوحيد الذي لا يمكن اخفائه، ستظل الروائح الكريهة من أقوى مشتتات الانتباه، إلى أن يأتي زمان ينتشر فيه وباء كرونا، فيفرض على الباريسيين فيه لبس الكمامة في الموصلات العامة، فيتفننون ليس فقط في انتقائها قطنية زاهية الألوان، ولكن أيضًا في تعطيرها بعطورهم المفضلة، ليفشلوا بذلك كل محاولات ابتزاز المتشردين للركاب بإثارة مشاعر الاشمئزاز والقرف لديهم لكي يتحصلوا منهم على صدقات بخسة.

مسحت الفتاة فمها بمنديلٍ ورقي، ورفعت رأسها وهي تواصل لعن هذا الصباح المقزز وجميع المتسولين، لتشيع القطار وهو يبتعد بقلق، ثم نظرت إلى ساعتها بتوتر وأدركت أنها لم تخسر يورو واحداً فقط، بل خمسة أو عشرة «يوروهات» أُخَر، لأن مديرها الجلف لا محالة وأن يخصم من راتبها اليومي بسبب تأخرها، فتفاقمت حالة إعيائها مع تنامي يأسها من أن تصل إلى عملها في محطة «شارل ديغول- إيتوال Charles de Gaulle - Étoile-» قبل الساعة التاسعة، ولكي تسترخي، نفسًا عميقًا، وذكرت نفسها أن مدة انتظار قطارات هذا الخط «RER A»، الأسرع في أوروبا، لا تفوت الثلاث دقائق في لحظات الذروة، لكنها لم تهنأ بتلك الطمأنينة التي انسلت سريًعا من حنايا نفسها الهلعة مع صدوح صوت نسائي رقيق عبر ميكرفونات المحطة ينوه بأن حركة القطارات لهذا الخط قد توقفت بالكامل بسبب نزول شخص على سكة القطار في محطة «تُوغْسي-Torcy»، فأطلقت ذات الشعر ًالأحمر صرخة عدم تصديق وهي تأفف بـ«ميغْدْ!»، أثناء رفعها لرأسها لمطالعة شاشات المحطة، ليتفاقم تشاؤمها وهي تصغي للحوار بين شخصين استنتج أحدها أن يكون سبب توقف القطارات محاولة انتحار لشخص آخر من السكارى أو المتشردين أو اليائسين من الحياة، وما أكثرهم في إقليم باريس، وعقّب الآخر مؤكدًا أن تمتد فترة الانتظار لأكثر من ساعة إذا ما تأكدت شكوكه.

تأففت ذات الشعر الأحمر بضجر، وجرجرت قدميها بثقالٍ، ثم تهاوت على أحد مقاعد المحطة الشاغرة، وهي تكرر كلمة «ميغْدْ».

ولم تدرك أن اللعنة قد اصابتها بالفعل، إلا عندما لمحته يقفُ على بعد خمسة أمتارٍ على يسارها، يراقبها بعيني نسر يتربص بفريسته، ويحك بيده اليمنى شعره الذي ازداد انتفاشًا، بينما لسانه يلحس من سيلان أنفه الأصفر.

فأصابتها قشعريرة وشعور بالخيبة هي تتساءل عن كيفية الهروب هذه المرة، قبل أن تدرك عدم جدوى السباحة عكس التيار، والصراع مع القدر إن كان قد قضى عليّها أن تلتقي هذا الطفل المقرف مرة ثانية ليعلمها درسًا آخر في هذه المحطة.

فرفعت رأسها تطالع لافتة المحطة بيأس.

•ڤال دو فونتونيه «Val dé Fontenay»، يا لكِ من محطة!، قالت بتعجب.

ثم استسلمت.



# اشتباه



إيناس سيد جعيتم - مصر

داعبت السماءُ الأرجوانية بغيومها الرمادية عينيه وهو يتأملُ ظلَ المسلة الفرعونية الممتد أمامَ قرص الشمس الأحمر، تسللت ابتسامةٌ شحيحةٌ بين تقاسيم وجهِه الذي تلبدَ بعد أن غزته التجاعيدُ وغزا الحزنُ قلبَه المتعب، اعتدل في جلسته على مقعده الخشبي وهو يتأملُ ميدانَ (كونكورد) بأبنيته الفاخرة، هدوءٌ عجيبٌ يعمُ المكانَ شبه الخالي، ذكرته أبنيتُه بأبنية معشوقتَه (سان بطرسبرغ)، أفلحت ذكرياتُه في استرجاع شيئًا من الطمأنينة لنفسه وهو يتذكرُ بهاءَها وجمالَ شوارعها، ووجهَ زوجَته (صوفيا) المبتسمَ وهي متعلقةً بذراعه مداعبةً إياه: حبيبي... خذني لباريس.

• وهل باريس أجمل من مدينتنا!!

فتزيد دلالها، وابتسامتُها الساحرةُ تتولى تغييب عقله وهي تهمس:

أريد أن أتمشى معك على ضفة نهر السين، وأجلسُ معك على أحد مقاهي الشانزليزيه، ألتقط لك صورةً تبدو فيها مستندًا على المسلة الشهيرة، قبل أن يأتي رجل البانتومايم الذي طلى وجهَه بالأبيض راسمًا فمًا ضاحكًا وعينًا واحدةً باكية، ليشير لي بيده ويخرجُ وردةً حمراءَ من قبعته الصغيرة.

- هههههههههه، خيالٌ خصبٌ عزيزتي.

-لا بل رأيته في أحد الأفلام وتمنيتَ أن أعيشَه معك ايفان...

ايفان....ايفان...

مستر ايفان، أفاقه النداءُ فالتفت للرجل الخمسيني ذي البشرة الخمرية الذي يجلسُ على مسافة منه، رفيقه الوحيد في هذه الجلسة:

اعذرني سنيور باولو لقدْ شردت قليلاً.

نطقها بلغة غريبة جمعت بين لغات القارة العجوز ومزجتها في لغة جديدة اعتاد الناجون عليها، رد عليه رفيقه دون أن يرفع عينيه عن شاشةِ جواله بنفس اللغة مع إضافة نكهة إيطالية مميزة:

لا عليك يا صديقي، أرأيتَ عفاريتَ الإنترنت!! الأوغادُ ينشرون صورًا لتجمعات البشر في دول إفريقيا واحتفالاتهم بمرور عشر سنوات على انتهاء الجائحة، تبًا لهم... يسيطرون على الأحداثِ وعرضِها، ارتعش وتهدل جسمُه وهو يقهقه:

كنا نسميهم المهووسين، أبناءُ المحظوظة حمتهم عزلتُهم الاجتماعيةُ من التقاط الوباء.

ارتعشت ملامحُه وبلع ريقَه في حسرة:

ليتني ما نهرته، كنت دائمًا أقسو عليه واطلقُ عليه (دراكولا) وأناديه بعدو الشمس، طالما طالبتُه النزولَ لممارسة الرياضة والاختلاط بالناس، لم أكن أعرفُ أني أدفعُ وحيدي لملاقاة الشرَ الأعظم.

أراد ايفان أن يواسيه لكن ألمَه لفقد زوجته هاجمه بضراوةٍ أكبر هذه المرة فلجم لسانَه ولم تظهرُ عليه سوى ارتجافةٍ رجت جسدَه.

عاد باولو لقهقهته المفتعلة وهو يروي إحدى الطرفات التي رآها على موقع التواصل، من أبادت الجائحةُ الملايينَ في أوربا وفُتحت الحدودُ داخلها، انتشرت الطرفاتُ حول اللغة الجديدة والهويات المفقودة، رفع رأسَه ليرى أثرَ الطرفة على صديقه فانقطعت أنفاسُه واتسعت عيناه وهو يرى انتفاضةَ جسده، نهض مفزوعًا وتراجع خطواتٍ للوراءِ وهو يناديه:

مستر ايفان.. ماذا دهاك؟

قبل أن يجيبُه سقط أرضًا وقد انتابته نوبةٌ من التشنجات العنيفة، رفع باولو الهاتفَ لأذنه بعد أن طلبَ رقمًا محدداً، لم يحتمل الثواني حتى يتم الرد عليه فأخذ يسبُ ويلعنُ حتى أتاه الرد:

أبلغ عن مصاب بالوباء الجديد.

بعد أن أتى الرجالُ في الحلل البيضاء المحكمة لنقل ايفان طلبوا من باولو مرافقتَهم لأخذ عينة لأنه كان آخر مرافقٍ له، كتب على مخبارِ التحليلِ الذي يحوي عينتَه:

(اشتباهُ وباءَ الفقد).







# الحركتان الخارجية والداخلية في قصة «صعلوك» لنازك ضمرة

د. أفنان القاسم - فلسطين

التحليل

سيقارب نقدي المنقود ليس تبعًا لما تقترحه المعاني التي تمتلئ به، لسبب بسيط ألا وهو أن هذه المعاني (وكل العناصر النسقية) تقوم على فراغ يجب عليّ ملئه، لا لأصل إلى فهم هذه المعاني، فهي مفهومة، رغم اختلاف فهمها من قارئ إلى آخر، وإنما لأكتب نصًا مغايرًا للنص الأصلي ومطابقًا له في إطار الممكن. لتحقيق ذلك، سأعرض أولاً للحركة الخارجية في قصة «صعلوك» لنازك ضمرة، بكل تعرجاتها التعبيرية والوقائعية، ثم سأسعى ثانيًا مع الحركة الداخلية من وراء العلامات والرموز لأملأ بها بعض المعاني.

الحركة الخارجية: الوقائع

للوقائع وظيفة انتقالية، ترتبط كل منها بمكان داخل مكان:

«غرفة على شارع عام غير معبد –تبدأ القصة بهذه الكلمات– يكثر التراب فيه والغبار، وباب عيادة الطبيب مفتوح، أدخل وأرد السلام، يجلس خلف منضدته قرب المدخل ، يحادث الطبيب نفسه دون أن يتنبه لي، يشير إليّ بيده للانتظار في غرفة في آخر المبنى مرورا بممرّ سيئ الإنارة، غرفة بلا باب ولا جدار فاصل عن مكان عمله».

ملحوظة أساسية: يمارس السارد لعبة الكلام تحت كل الأبعاد اللغوية والدلالية والنحوية، فلا يربكك قوله بضمير المتكلم «أدخل وأرد السلام» ومباشرة بعد ذلك عن الطبيب بضمير الغائب دون أن يحدد كونه الطبيب «يجلس خلف منضدته»، وفي أمكنة أخرى سيستعمل نفس الأسلوب عن نفسه.

يبدأ السارد إذن بالغرفة، وينتهي بالغرفة، لنستنتج أنه كان في الغرفة، وعاد بالوقائع إلى الوراء: شارع، عيادة، مدخل، ممر، غرفة انتظار بلا باب أو جدار. المكان هو بالأحرى أمكنة مفتوحة على بعضها، مكان هيولي دون أبعاد، وكأنه معلق في الفراغ. تنتقل الوقائع بالمكان، وينتقل المكان بالوقائع.

التعابير

للتعابير وظيفة اصطحابية، يرتبط كل منها بحال تلو حال:

«حاولت الوصول إلى كرسي في الزاوية البعيدة، أواني معدنية ضخمة كانت في الطريق، جربت تحريك واحدة منها، لكنها كانت ثقيلة، تذكرت أن قريبنا ظلّ ينتظر خارج المبنى، أما الطفل فظل ممسكاً بيدي، بل شددت قبضتي على يده لأضمن عدم مغادرته، فهو نشيط لعوب متوقد الذكاء في العبث والأمور التي تتعلق باللعب».

يلجأ السارد إلى التقنية نفسها بخصوص الوقائع، عندما يعود بتعابيره إلى الوراء متذكرًا قريبه الذي بقي بانتظاره في الخارج، حال أولى، وذلك لِيُدْخِلَ عنصرًا بنيويًا آخر، حال ثانية: الطفل، الذي كان هنا منذ بداية القصة دون أن نراه بما أنه ظل يمسك بيده. تصاحب التعابير الحال، وتصاحب الحال التعابير.

الوقائع

تتحرر الوقائع من قيود النص الكلاسيكي، وتسلك نهج التطور اللامنطقي للأحداث كزمان داخل زمان، من الحاضر إلى الماضي، عند الحديث عن القريب المنتظِر في الخارج، ومن الماضي إلى الماضي، عند الحديث عن الزوجة:

«زوجتي وأنا تناولنا جرعة من نفس الدواء، كان ذلك مساء الأمس، ثم تناولت هي جرعة ثانية من نفس الدواء صباح اليوم التالي، اشتكت زوجتي من مغص في الليل وقرقرة، حاولت الوقوف صباحاً فأحسّت بدوار، ومع ذلك تناولتْ جرعة الصباح، معتقدة أن الدواء سيخلصها من الآلام التي أقضّت مضجعنا في الليلة السابقة، تراخت أكثر بعد الجرعة الثانية فلزمت الفراش، وبعد عصر ذلك اليوم خشيت الليل وآلامه، فقررت الذهاب إلى الطبيب شاكياً من آلام في أمعائي».

الحاضر (وجود السارد في العيادة) والماضي القريب (الرجل المنتظر في الخارج) والماضي البعيد –ليس بعيدًا جدًا– (السارد والزوجة المريضان)، زمان كالمكان يتشكل من أزمنة مفتوحة على بعضها، زمان هيولي دون أبعاد، وكأنه معلق في الفراغ. تنتقل الوقائع بالزمان، وينتقل الزمان بالوقائع.

التعابير

كالوقائع تتحرر التعابير من المنطق التقليدي في النص الكلاسيكي، وترتدي الثوب الإشكالي في اللحظة التي تأخذ فيها نهجًا مضادًا في الخطاب عندما نقرأ باقي الفقرة السابقة:

«دعوتها إلى مرافقتي لزيارة طبيب سبق وزرته مرات من قبل، وألمي لم يتوقف، حاولت زوجتي إقناعي بعدم زيارة الطبيب، لكنّ إصراري كان أقوى..».

ذهاب السارد عند طبيب سبق وزاره مرات –لاحظ الإلحاح على مرات كعنصر دال– وألمه لم يتوقف، ومع ذلك يصر على زيارة الطبيب، رغم محاولة زوجته إقناعه بعدمها، وسنعرف في مكان آخر أن الطبيب لعلاجه وصف الدواء الذي وصفه لصديقه منذ سنوات، فالدواء نفسه لكل



المرضى ولكل الأوقات. إنه المنطق العدمي المرافق للنص من الكلمة الأولى حتى الكلمة الأخيرة، عدمي تحت مفهوم موح لضد عدمي (كينوني)، وفي السياق الذي نحن فيه لانتقال طبيعي خَارجً عالم غير طبيعي. تصاحب التعابير الخطاب، ويصاحب الخطاب التعابير.

تعرجات

بالإمكان مواصلة التحليل بالطريقة نفسها فقرة فقرة حتى نهاية القصة، لكني سأكتفي بمنطق اللامنطق للحركة الخارجية مشفوعًا ببعض الأمثلة، مع ملاحظة أن اللامنطق هنا غير مطروح على الإطلاق كلامنطق، وهذا برأيي سر ثراء النص:

«حين دخلنا البقالة لم نعثر على المرأة التي شاهدناها تدخلها، والمحل واسع ومتشعب، ولا يوجد إلا زبون آخر، شاب يبحث عن دخان أصلي أي أجنبي، بعد خروجنا أدركنا أن الدقائق أصبحت مهمة، حلّ الظلام على منطقتنا بسرعة لم نكن نتصورها من قبل، والسير فيه صعب ومخيف، المهم أن نجتاز هذا الظلام، تشعبت المسالك، جادلني رفيقي أي فرع نسلك، فاختلفنا، وسلك كل منا فرعاً، واتفقنا أن ينادي الواحد منا على الآخر إن وجد منفذا سليماً، ضاع رفيقي وغاب، مات رحمه الله، ربما كنت أحلم أو أنه مات منذ زمن بعيد، فهل يمكن أن يعود، ولو في يوم عيد؟، ارتاح ولن يعود، أنا ضائع ومشكلتي الكبرى وجود الطفل معي، والدواء السائل في جيبي أصبح يضايقني، يملأ زجاجة كبيرة منتفخة وثقيلة».

لنلاحظ أولاً وقبل كل شيء أنهم يدخلون البقالة للمرة الثانية، وقائعيًا يعيدنا السارد إلى لحظة انتهت، لكنه يريد أن يدلل تعبيريًا على عنصر المكان الهيولي الذي يخترقه من أية جهة وفي أية لحظة، وكأنه مكانه الشخصي، وكأن المكان شخصه، إنه يحرجل (يتصعلك) فيما حوله، فيما هو خارجه، وفيما هو داخله، وكأنه يحلم، كما يقول، وكأن الموت والحياة شيء واحد. في عالم على هامش العالم، يصبح الضياع مطلبًا، لكن عبث الوجود يظل مطاردًا لموضوعه، حتى الطفولة تغدو عبئًا، حتى قنينة الدواء يصبح حملها مشكلة عويصة.

الحركة الداخلية: الرموز والعلامات

البطل، أو، السارد، في رمزه، هو نفيه الدائم لأي رمز، إنه اللابطل، ليس بالمفهوم الكلاسيكي للابطل، ولكن بالمفهوم اللغوي، فهو في النص عبارة عن نظام سردي، لا يُرى رغم حضوره الكلي، يملأ ويمتلئ، لهذا يتكلم عن نفسه بصيغة ضمير المتكلم تارة وبصيغة ضمير الغائب تارة، وبهذه الطريقة تنبني السردية، ينبني في السرد. إنه كل شخصيات القصة، هو الزوجة، وهو الابن، وهو الصديق، وهو الطبيب، وهو العراقي، وكل واحدة من هذه الشخصيات لا ترمز لشيء، ولا تمثل شيئًا، رغم أنها مجسمة لعناصر سردية، فتتفجر إنسانيتها بشكل عادي في وضع غير عادي لحركة داخلية عادية للشخصية (للشخصيات) حركة هي في الوقت ذاته حركة النص، أو، بكلام آخر، حركة التحول السلبي/ الإيجابي للنص:

«وجد الأب وطفله نفسيهما على سطح عمارة تتصل بمباني أخرى، والشارع الذي كانا يسيران فيه أقفل بركام من حصى وتراب، ظنها الرجل عمارة انهارت فوق قاطنيها فأقفلت ذلك الدرب الضيق، كان يكفي لمرور سيارة ولشخص ماش بجانبها، ثلاثة أمتار أو ثلاثة ونصف، اضطررتما للمرور عبر ممرات ودهاليز ضيقة وملتوية، لا بد من المرور على سطوح منازل قديمة رجراجة، مقامة على أعمدة خشبية متآكلة أو معدنية صدئة، والمشي تحتها أو قربها أو فوقها خطر ومخيف، والطفل مشكلتي الكبرى، يتنبه الطفل المحمول المتشبث بعنقي إلى نافذة صغيرة، يبدو نور ضعيف من خلالها، تهلل وفرح، يستند الأب على جدران وعوارض خشبية هزيلة وقضبان معدنية صدئة، حتى بلغا النافذة الثمينة، لاحظ كتابة فاهية على خشب النافذة، جاء فيها (نحن عراقيون) أطل منها شبه إنسان ينطق بلهجة عراقية، سمعته يقول، (مختبئون في هذا الكهف لسنين)، لم أفهم قوله، بل ازددت تخوفاً واضطراباً، سألني طفلي إن كان يكلمني، لم أجبه، نظر خلفه ليتأكد أن لا أحد من جماعته يرقبه، ثم أكمل، لو كنت أعلم أنكما تستطيعان الوصول هنا ثانية لما ظهرت لكما، لكنه الطفل، نعم، الطفل فقط، ومن أجل الطفل، وحين لاح وجهه لنور السراج الضعيف، بدت عظام وجهه ناتئة، لكن شواربه طالت، مسدها وفتلها رفعها على الطريقة التركية، سقطت سنّان من جانب فمه العلوي، فأثر ذلك على صحة نطقه قليلاً، لكن ثقته بنفسه عالية، والنخوة بدت جلية عليه والتفاؤل، سبق الطفل أباه في طلب المساعدة، ليدلنا العراقي على منفذ كي ننزل عن سطوح المباني القلقة، قال الطفل له: لا أحب أن أمشي على سطوح مباني متهاوية يا عمّ، فهل ستساعدنا؟ ترك الأب ابنه يتكلم على هواه، وحين توقف أضاف الأب:

– لا شك أن زلزالاً أو مصيبة حلت بتلك البيوت، ألا تحس باهتزازها، كلها آيلة للسقوط، فهلا ساعدتنا يا بني كي نسرع الخروج».

يبدأ السارد بالحديث عن نفسه وولده بصيغة ضمير الغائب «وجد الأب وطفله نفسيهما...»، ثم يخاطب نفسه وابنه بصيغة المثنى «اضطررتما للمرور عبر ممرات...»، ثم يتابع بصيغة ضمير المتكلم «والطفل مشكلتي الكبرى...»، ثم يعود إلى صيغة ضمير الغائب «يستند الأب على جدران...»، وهكذا إلى ما لا نهاية. وكل هذا في جو رؤيوي يتفجر (يتهدم) بالعلامات التي تشير إلى نهاية العالم، وكأن شرط ملء فراغ المكان بهدمه، حتى الشاب المنقذ العراقي الذي يحتاج إلى من ينقذه مما هو فيه يأخذ شكل المكان الذي يعيش فيه (عظامه الناتئة شواربه الطويلة أسنانه الساقطة). كل الفاجعة العراقية تتراءى في هذه الرؤية، كل الفاجعة البشرية تتتالى محطة بعد محطة في هذه التتالية، كل فاجعة النص تنزاح انزياح البنى التي يتشكل منها، أقول بنى لتعدد التقنيات وتعدد الأساليب وتعدد الموديلات، ولكن قمة كل هذا، التي تعيد هدم النص لتملأ فراغ النص من جديد، هي العبارة الأخيرة: «وأنت تنأى عنه (عن الشاب العراقي)، تحاول عدم الالتفات إلى الوراء، ولا إلى كل ما صار، قلتَ لنفسك، لا تدري أن الطريق طويلة أمامك أم خلفك».

أعتبر هذه القصة التي قضيت ليلتي مع شخصياتها من بين أجمل القصص التي حللتها منذ أكثر من نصف قرن، كتبها نازك ضمرة عام ٢٠٠٤، وحتى اليوم لم يتكلم عنها أحد.

الثلاثاء، باريس ٢٥ نوفمبر ٢٠١٤.



# ذكرى المكان
## في رواية بقايا قهوة
### للروائي الأوروغوائي ماريو بينيديتي



**ليليا عثمان الطيب - الجزائر**
(أستاذة جامعية - جامعة الجزائر٢)

اتخذ المكان عند غاستون باشلار Gaston Bachelard مكانة متميزة إذ ليس المقصود بالمكان الموضع الذي ينسب إليه العمل الفني، وليس مجرد أبعاد هندسية تمنح له لتحدد موضعه، ففكرة المكان في العمل الفني كما يطرحها باشلار تتجاوز المكان الذي يتسم بالخصوصية القومية أو يحمل ملامح المدينة المألوفة، إذ أنه يتعلق بجوهر العمل الفني، فهو الصورة الفنية ذاتها التي يتواصل معها المتلقي مما يجعله قادراً على استحضار الصورة المتخيلة لذكريات مكانه الأليف، ومن بين أفضل الروايات العالمية التي تناولت المكان كحاضن للذكرى والطفولة وحنين الأشخاص هي رواية بقايا قهوة للأديب والشاعر الأوروغوائي ماريو بينيديتي Mario Beneditti (١٩٢٠-٢٠٠٩) تدور أحداث هذه الرواية حول الصبي كلاوديو الذي يتحدث عن البيوت التي تنقل فيها مع عائلته في طفولته وذكرياته معها ويصفها قائلاً: «كانت أسرتي تغير مسكنها دوماً، على الأقل منذ بدأت أتذكر الأشياء» ، وشخصيته هي الشخصية الرئيسية والبارزة في الرواية، كما أنها تلعب دور الراوي أيضاً فيها، حيث يسرد في الصفحات الأولى للرواية عن قصة تنقله مع عائلته من بيت لآخر خلال مراحل حياته خاصة مرحلة الطفولة ويقول عن وضعهم في تلك البيوت: «لم نكن قط مالكين، بل مستأجرين دوماً»، ولكونهم مستأجرين لم تكن صفة الألفة حاضرة في كل بيت سكنوا فيه.

إن أول حضور لذكرى المكان في الرواية تبدأ مع حي خوستيسيا إي نوبيا بالميرا، وهو المكان الذي ولد فيه، والمشاعر التي يحملها تجاه هذا الحي لا توحي بأنه عاش فيه ذكريات سعيدة رغم أنه مكان الولادة والمكان الذي رأى فيه العالم أول مرة، ورغم أن البيت كما يقول باشلار هو ركننا الأول وكوننا الأول، إلا أن هذا البيت عند كلاوديو لا يعني له الكثير سوى أنه مكان الولادة، كما نجد حضوراً لأماكن أخرى ارتبطت معظمها بالألم والمعاناة مثل إينكا إي ليما حيث يستحضر كلاوديو في هذا البيت ذكريات المرحاض السيء، ليصف حالته الكارثية: «إذ عندما كان أحدهم يجذب السلسلة، بدل أن تقوم بمهمتها الصحية وهي تنظيف المرحاض، كان الماء يتدفق غزيراً من الخزان ليبلل التعيس الذي قضى حاجته فيه»، وهذه الانتقالات المكانية «البيت بالإيجار» جعلت كلاوديو لا يستطيع أن يحصر كل ذكرياته الحزينة منها والسعيدة فيها، كأن هذا الانتقال هو جزء لا يتجزأ من تركيبه البيولوجي، لذلك أصبح يعامل ذكرى بعض الأماكن بشيء من اللامبالاة أو يتجاهل ذكريات لا أهمية لها.

يواصل كلاوديو: «كان تغيير السكن، في هذه المرحلة، قد تحول إلى هاجس جماعي، تحولت هذه الانتقالات من مرتبة الكوابيس إلى مرتبة الأحلام»، هنا يظهر لنا أن المكان قطعة شعورية وحسية من ذات الشخصية نفسها لذا لا غرابة في أن الروائي يلجأ عند تصميم المكان إلى مطابقة هذا المكان مع طبائع الشخصيات ومزاجها، ويجعله كاشفاً عن الحالات اللاشعورية للشخصيات، ويبرز في هذا الرواية بيت آخر ولكن أحاديث كلاوديو عنه تختلف كلياً عن كلامه حول البيوت السابقة: «إن أول بيت كان ذا أهمية بالغة، على الأقل بالنسبة لي، هو بيت شارع كابورو...»، «من بين جميع البيوت التي أقمنا بها ، كان بيت كابورو أول مكان يعني بالنسبة إليّ عالماً» من خلال ما جاء على لسان كلاوديو في وصفه للبيت نجد أنه يمثل التأريخ الحقيقي لذكرى المكان بالنسبة للشخصية، ونجده لأول مرة في النص يستعمل كلمة (بيتي): «صحيح أن بيت كابورو، بعد أن غابت أمي لم يعد هو نفسه ولكن رغم ذلك بيتي». فحضور ياء المتكلم كضمير متصل بعد اسم (بيت) يؤكد أن كلاوديو شعر في هذا البيت بالانتماء والألفة، حيث أنه احتضن معظم ذكريات كلاوديو الجميلة منها كولادة شقيقته فيه، والمأساوية منها كوفاة أمه في هذا البيت، ويرى دافيد لوبرتون في كتابه أنثروبولوجيا الجسد والحداثة: «أنه في المنزل التقليدي كل تجربة جسدية تكون مستثمرة، إنه مليء بالروائح فهو نوع من جسد لا عضوي للإنسان على حد قول ماركس يحميه من البيئة الخارجية ويشجع على حيوية الأسرة».

إذاً فإن اشتغال ذكرى المكان في هذه الرواية ليس ثابتاً فهي عند الشخصية في مراحلها الأولى لم تكن مستقرة تحت سقف واحد، بل هي ذكرى انتقالات تكاد تكون شبيهة بحياة الغجر والبدو المعروف عنهم اللا استقرار المكاني ولعل خير مثال نذكره هنا هو القصة التي حكاها الروائي اليوناني نيكوس كازانتزاكي في كتابه (رحلة إلى فلسطين) يقول كازانتزاكي: «لقد منع زعيم الغجر شعبه من بناء البيوت، أو زرع الأشجار، لذلك فإنهم ينصبون خيامهم على الأرض لفترة قصيرة من الزمن، مما يجعلهم يتمتعون بحرية الحركة، وذات مرة، بينما كانوا يهدمون خيامهم انحنت فتاة شابة على الأرض، وتلكأت، وحين اقترب الزعيم منها، وجد أنها قد عصت أمره، وزرعت غصناً من الريحان على مدخل خيمتها، وأن هذا الغصن، قد أزهر لذلك فقد انحنت الفتاة الشابة عليه، و أخذت تبكي ولم تعد قادرة على فراقه، فتقدم الزعيم وهو في قمة غضبه، فاقتلع الغصن، وأخذ يدوسه بقدمه، ثم هوى على الفتاة بسوطه، وهو يصرخ: «لماذا عصيت أمري، ألا تعرفين أن من يبني بيتاً سوف يرتبط بالبيت الذي بناه، وأن من يزرع شجرة سوف يقيد بتلك الشجرة».







# «الفتى الأديب والمفكر الشاب عماد البليك»..
## أحد أبرز رُواد النهضة الأدبية في الوقت الراهن وهذه حجتنا الدامغة

مبارك أحمد عثمان - السودان

مدخل:

تسحرني لغة الجاحظ ورصانتها، وسلاسة كلماتِهَا، وحرارة رناتها، وجزالة ألفاظها، ودقة معانيها، لهذا السبب وحده سأرسم بحثي هذا بلغة الجاحظ.. لغة البيان.. فأقول..

إن جميع ما تواتر في كُتب الأدباء، وما تذاكر بألسنة العظماء، وما تناظر عقول الحكماء، إن (رائد النهضة الأدبية) هو من أسهم في تطوير الأدب وما يتفرع منه في تأليف الروايات وترجمتها. وتجديد لغة المقالات وعللها، وإثراء أرفف المكتبات ومراجعها، وتحديث رسائل الصحافة ونمطها، واختراع أدوات الكتابة ونهجها.

كما وجدنا في بحثنا هذا أن (رائد النهضة الأدبية) من يبتدع النقد وضروبه، ويغذي عقل الطالب وبحوثه، ويُغني فهم القارئ وخياله، و(رائد النهضة الأدبية) من له مقدار في النثر والشعر، ونصيب في الفلسفة والفكر، وحظّ في الكتابة والسير، فمن اجتمعت فيه تلك الصفات، وتباينت فيه تلك السِمات كان لقب (رائد النهضة الأدبية) صفة من صفاته ونعتاً من نعوته.

وجدنا، أن الأديب قد يكون روائياً فقط، أو روائياً وصحفيًا، أو روائياً وصحفيًا ومؤلفًا، أو روائياً صحفيًا ومؤلفًا وبحاثًا، أو روائياً صحفيًا ومؤلفًا وبحاثًا وشاعرًا، أو روائياً صحفيًا ومؤلفًا وبحاثًا وشاعرًا وناقدًا. فأما أن يكون الأديب، روائياً وصحفيًا ومؤلفًا وبحاثًا وشاعرًا وناقدًا ومفكرًا وفلسفياً فلم نجده إلا عند الأديب الشاب عماد البليك وهذا مربط مقالنا، ومضمار بحثنا.

إذا سُئلنا كيف اجتمعت تلك الصفات كلها في البليك وتفرقت في غيره من الأدباء، أجبنا بأننا أطلنا الفكر في أسلوب أدبه... وأمعنا النظر في باطن كتبه، فجدنا لكل مادة حجة قوية، ولكل باب برهان دامغ، ولكل فرع دليل قاطع، ولكل صفة شاهدة بيّنة، وسنجيب على ما ذكرنا مسألة مسألة.

وأولى تلك المسائل، تأليف الروايات ما يتفرع عنها من كتب المعرفة وهو القطب الذي يدور عليه الأدب. إذا سأل سائل أن البليك وسائر الأدباء يستوون في تأليف الروايات، ويتشاكلون في تصانيف المعرفة فما حجتنا في ذلك؟

أجبنا أننا أحصينا رواياتهم، وعددنا مؤلفاتهم، وتتبعنا مقالاتهم فوجدنا أن البليك قد تجاوز القياس، وفات المألوف بتأليفه (٢٦) تصانيف ممتعة، وكتب قيمة، وأخرى لم تنشر، ومئات من المقالات الأدبية. فهذا ما لم يجاره في تأليفها أحد، إذا قُورن ذلك مع حداثة سنه (٤٨) عاماً وقرب ميلاده (١٩٧٢) وهذا أبدع من كل بديع. وكان آخر مؤلفات رواية (معجزة بوذ).

فأما مسألة إثراء المكتبات العربية وأرفها، وإغناء فهم القارئ وفكره بين التخيل والتأويل والتثقف، وتغذية عقل الطالب بين النقد والبحث والتجديد. فذلك أمر يعتدل فيه البليك وسائر الأدباء.

وقفنا مبهوتين لتعليل ذلك، بيد أننا وجدنا أن البليك تميز في تلك المسألة وتفرد بها دون غيره، فقد استفاد مبتدؤو تأليف الروايات من



كتابه (الرواية العربية رحلة البحث عن المعنى) فاتخذوه مرجعًا للحبكة، وعوّلوا عليه دليلًا للقصة.
والكتاب نفسه التمسته إحدى الجامعات العربية، فاستحسنته لطلابها، واتخذوه مادة دراسية لحملة الماجستير بعدما وجدوه جم النفع، عظيم الفائدة في غاية الضبط والاتقان، وهذا هو الفرق بيّناً لقولنا.
وإذا أضفنا مؤلفاته الأخرى ككتابه الأشهر (قابوس بين سعيد الأمل المتحقق) الذي وجد صدى مدوي في الأوساط العمانية، ودراساته السياسية ذات القوالب الأدبية (مجلس التعاون مرثيات التكامل) لوجدنا ذلك أغرب من غريب.
ثمة مادة أدبية أخرى، أن البليك من المعدودين المتقدمين في الفكر، فقد بث أكثر من خمسين محاضرة أدبية في يوتيوب عن الفكر، يدعو أن يتحرر العقل من جمود التاريخ، ينفذ إلى منافذ المستقبل، ليكون لا متناهي الحدود للاستنباط وما شاكله، والتفكير وما وافقه. وهو – أي البليك – ليس مفكرًا فحسب، بل عالم بأمور الفلسفة وضروبها. فليس هذا الفكر وهذه الفلسفة إلا عند المفكرين المعدودين وهذا باب لا يقاس به أحد، ولندع هذا الباب جانبا ونتناول آخر.
فمن ذلك أنه ناقد الفكر، وناقد الأدب، وناقد التحليل، وكما نعلم، فلا يخوض الأديب في النقد حتى يكون عارفاً بالنقد والتحليل والفكر. ومن لم يكن عارفاً بمعايير النقد، وأدوات التحليل، ومعاني الفكر وركب في خوض النقد والفكر، وغاص في التحليل، سقط في نظر النقاد المختصين وأصحاب الشأن المحللين سقطة ليس بعدها إقالة. ولكن للبليك في النقد وأوزانه، والتحليل وتصاريفه كلام، وعشرات المقالات في ذلك.
وخصلة أبدية أخرى بانت للبليك، هي أنه يملك معيار قياس اللغات ونمطها، وتجديد المقالات وعللها. فمن ذلك قوله «البعض يجمع حزمة مقالات ويسميها رواية».
وكما يميز لغة الرواية وزمانها، ويعرف فنّ القصة وعصرها التي تصلح لكل مكان وزمان. فمن ذلك قوله «إن لغة [موسم الهجرة للشمال لا تصلح لكتابة الرواية اليوم». لأنها تجاوزت مفهوم اللغة الشعرية، وهذا دليل على ما فسرنا.
وبعدما برع في التأليف والتصنيف، والنقد والتحليل، والفكر والفلسفة، عمد إلى أسلوب آخر لم نألفه وهو تناوله حياة الأنبياء بأسلوب (السرديات) وهو أسلوب مستمد من منظور الأدب، ذلك الأدب الخليط بين التصورات الواقعية والتصورات المتخيلة ويمكن اختصارها ب: (التفكر والمقارنة).
وطريقة (السرديات) التي اتبعها البليك، ممتعة ومدهشة في الوقت ذاته!. فيتراءى للمشاهد كأنه يشرح حياة الأنبياء من باب السير وما هي من السير، أو كأن حياة الأنبياء متصلة بآثار الحفريات وما هي بمتصلة، أو كأنها مُقتبسة من تفسير ابن كثير وما هي بمقتبسة، ولعمري هذا ضرب يضاهي فلاسفة العلماء...
أما في مضمار الشعر والنثر، فله العديد من الدواوين الشعرية غير المنشورة بالشعر والنثر، مثل ديوانه (أبو جنزير ليلاً) و(فراشات الياقوت) و(رقصة في بلاد الموت على شاطئ الذكريات)، وأليس هذا أغرب من كل غريب؟
صحيح أن فوز أية رواية من روايات البليك بجائزة الرواية العالمية للرواية العربية (البوكر سابقًا) كانت ستضفي لوناً من الدليل على ما ذكرنا، بيد أن الجوائز لم تكن يوماً قاضياً بيّنًا وحكماً عادلاً لإنصاف الأدباء. فحتى جائزة نوبل العالمية للآداب، وجائزة الأوسكار للأفلام لم تنصف بعض الأعمال العظيمة، فقد سبق أن فازت أضعف الروايات فنيًا، وأقل الأفلام جماهيريًا.
وجائزة (البوكر) لم ترتقِ إلى مصاف النزاهة في بعض دوراتها بسبب انحياز بعض أعضاءها لبَنى جلدتهم، كما درجت على تقديم الأعمال الأضعف فناً وتأخير الأجدر بالفوز، وصول الروايات التي تعج الأخطاء في القائمة الطويلة، وترشيح الأعمال التي أقرب إلى القصة القصيرة إلى القائمة القصيرة.
خلاصة البحث، من كان أكثرهم تأليفا في مصنفات كتب الأدب، كان له حظ في إغناء المكبات العربية، ومن كان أغنى المكتبة العربية كان له مقدار في تثقيف القارئ العربي والطالب الأكاديمي. ومن اجتمعت فيه تلك الصفات كان أولى ان يكون لقب (رائد النهضة الأدبية) صفة من صفاته ونعتاً من نعوته، وهذا ما اجتمع في البليك وتفرق في غيره، ومع ذلك، لا ننكر فضل جميع الأدباء في إثراء المكتبات العربية وترجمة أعمالهم إلى لغات عالمية فنعرض عنهم صفحًا، فقد دافعو عن الأدب العربي ودفعوا به إلى أفاق أرحب.
وهذه هي الشواهد الظاهرة، والحجج القوية والأدلة الدامغة فيما قلنا، والدليل التام لكل ما سئلنا، والجواب الجامع لكل ما فسرنا.



# الأحلام في مجموعة «ضوء جديد»

## للقاص الأردني محمد عبدالكريم الزيود



موسى إبراهيم أبو رياش - الأردن

تتضمن مجموعة «ضوء جديد» للقاص الأردني محمد عبد الكريم الزيود، أربع قصص قصيرة، وتسع وثلاثين قصة قصيرة جدًا، بالإضافة إلى الإهداء، تنوعت موضوعاتها بين الهموم الإنسانية والاشتغالات الحياتية والاجتماعية، بلغة جميلة رشيقة، وجمل محكمة الصياغة، واقتصاد غير مخل، وحبكة موفقة، ونهايات تثير الدهشة.

وستتناول هذه المقالة، ما ورد في المجموعة من قصص برز فيها الحلم واضحًا، وكان مؤثرًا وفاعلًا، سواء أكانت أحلامًا ترنو للمستقبل، أم أحلام منام ترفو أحلامًا ذوت وتآكلت، حيث حضرت الأحلام في الإهداء وتسع قصص في المجموعة.

يحمل عنوان المجموعة «ضوء جديد»، وهو عنوان قصة أيضًا، حلمًا وأملًا بالنور والضياء، ليعم الكون، وينير طريق العابرين، ضوءًا مشاعًا للجميع، فقد عمّ الظلام، والبشرية تسير في نفق طويل، تبحث عن ضوء، بصيص أمل، يقودها إلى الخلاص، يعيد إليها إنسانيتها وفطرتها وبراءتها. قد نتوهم أحيانًا بضوء سرابي، ولكنه سرعان ما ينطفئ، ولكن الحلم، يبقى مشروعًا، ولكنه مؤكد التحقق ذات يوم، أن يأتي الضوء قويًا ساطعًا لا يخبو، مهما ادلهمت الخطوب، وثارت العواصف، وتكالبت قوى الظلام.

في «الإهداء»، أهدى الكاتب باكورة إبداعه إلى أمه، وهو خير ما يبتدأ به كاتب؛ فالأم بسملة، ببركتها ودعائها تُفتّح كل الأبواب، وتُذلل كل الصعاب. والإهداء إلى الأم مباركة للعمل، واستهلال موفق له؛ فرائحة الأم ترتقي بالإبداع، وتحول عادي الكلام إلى شعر.

يقول عن أمه يهديها ما خطت يداه: «امرأة في الليل تضيء سراج قلبها... وتخبئ كل الكلام... وحينما تأت الشمس... تصنع من حلمها رغيف خبز... وتغيب في الزحام»، وما أجمل هذه الصورة للأم، التي تنكر ذاتها وأحلامها ووجودها من أجل أبنائها، وتقدم لهم كل ما تستطيع، ولا تمن عليهم بشيء، فشيمتها العطاء بلا حدود، فحلمها أن تعطي وتعطي إلى الأبد، دون أن تنتظر جزاءً ولا شكورًا.

الابن يكون حلمًا متجددًا بالنسبة للأم، تحلم به قبل أن تحمل به، وتحلم به أن يولد سليمًا معافى، ثم تحلم أن يكبر ويكبر، حتى يصبح رجلًا تتباهى به وتفتخر، وتدعو الله له بالرزق المبارك، والزوجة التي تسعده، والأولاد البررة، فهو مشروعها وحلمها مهما كبر. والأم بالنسبة للابن هي الحقيقة الساطعة، وربما الوحيدة بالإضافة إلى والده، لكنها الأقرب إليه، والأكثر إيمانًا به، والأدفأ حضنًا، والأكثر سهرًا ودعاءً ورعاية وسؤالًا ودموعًا.

الأمل حلم ممكن، قريب المنال، وليس شرطًا أن يتحقق، وفي قصة «أمل»، يتأنق الشاب، ويدندن مستبشرًا، ويبتسم للجميع، يتصالح مع الكون، فهو على موعد معها في الحادية عشرة، ينتظر بلهفة ثم بقلق بعد أن تأخرت، «الوقت يمر كغزال شارد»، لكنها الساعة الثانية عشرة، «وشمس الظهيرة تزداد توهجًا» ولم تأت. «عاد لبيته... عاد بلا أمل!!». هي الخيبة المرة المحبطة، التي تلقي بظلالها الرمادية على الروح، فتحيلها إلى الكساح، إلى أن تتبدد غيمتها السوداء.

في قصة «انتظار»، الليل، مزرعة الأحلام والأماني، وفيها تنسج وتكبر وتتعاظم وتنداح، وما أن تسطع أشعة الشمس حتى تحيلها إلى هباء إن لم تكن أحلامًا متجذرة، تمتلك مشروعيتها ورحمها الطاهر. «إلى أين يا فتى تأخذك الأيام... وهي تنتظر أن أغازل عينيها لأنسج شالًا من رحم حلمي... ليل طويل وحلم بعيد وانتظار لا ينتهي..!!». ستأخذك الأيام إلى بر الأمان، إلى ما تشتهي، إن أحسنت الحرث، وبذرت قمحك، ولن يطول الانتظار.

الطفلة في قصة «طائرة ورق»، «كانت تلهو بالرمل في الصباح وتصنع بيوتًا وأحلامًا من طين... عندما كبرت جعلت من قلبها طائرة ورق أطلقتها وأضاعتها بين الغيوم ثم ملأت الدنيا ضجيجًا ودموعًا وحزنًا!!!». أحلام الأطفال كبيرة خيالية لا حدود لها، وعندما يكبرون تصفعهم الحياة دون رحمة، وتعيدهم إلى الأرض، إلى الوحل، ولكن قدرهم أن يتمردوا بالأحلام ثانية وثالثة إلى ما لا نهاية، قد لا يتحقق أي حلم، لكن لا نرفع راية الاستسلام. وتتعالق معها قصة «صعود»، حيث «الطفلة التي كانت تحلم أن تصعد إلى السماء لتعد النجوم في الليل... عندما كبرت شعرت أن الصعود إلى سقف الغرفة «عيب»». هو الشعور الذاتي نتيجة للثقافة المجتمعية شديدة الوطأة والإحباط، وهي أكبر العقبات وأصعبها في طريق تحقيق الأحلام، ونادرًا ما يتحقق حلم دون تمرد، بل التمرد هو أفضل السبل لتحقيق الأحلام، وقد يكون السبيل الوحيد.

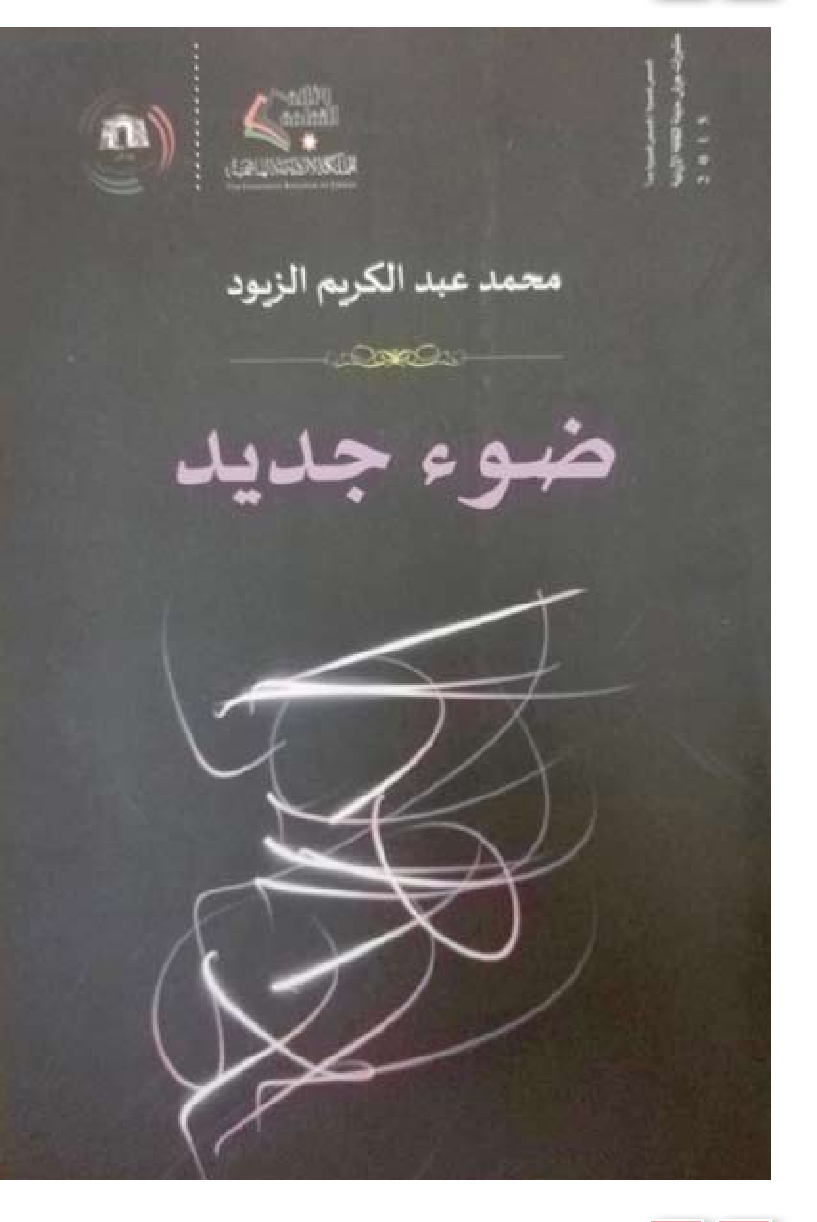
في قصة «قوس قزح»، «الصبية التي انتظرت طويلًا قدوم الشتاء حتى ترسم قوس قزح في دفترها... سقطت في أول حفرة ماء في الطريق إلى المدرسة... لم يبكها أنها أضاعت حقيبتها، بل أن المطر بلل حلمها..!!» عندما أصبح الحلم البريء البسيط في قبضة اليد، تبخر، فقد تبلل دفترها في ماء المطر، وتبلل حلمها، وما أصعب أن يكون المطر وهو الذي





يولد الحلم «قوس قزح» من رحمه، أن يكون سببًا في ضياع الحلم؟! مفارقة كثير من مفارقات الحياة التي لا تفسير لها، إلا من باب المناكفة!!. وفي السياق نفسه، قصة «انكسار»، حيث «الفتاة التي تحلم أن تكون فراشة وتطير فوق الحقول وتحت الغيم وهي تغسل صحون العشاء كل ليلة... انكسر حلمها عندما سقط الصحن... وظلت طوال الليل تلملم بقايا الزجاج وتخبئ دمعها حتى لا تبتل فراشات المخدة...!!». تأخذنا الأحلام أحيانًا بعيدًا عن الأرض، فننسى أنفسنا، وتتعثر خطواتنا، فنخسر كثيرًا. هذه الفتاة الحالمة، كسرت الصحن وهي تعيش الحلم، فتأثرت وشعرت بكسر في أعماقها، وهكذا القلوب الصافية النظيفة، تتأثر بكل شيء، كما الماء النقي الصافي، الذي يبدو كمرآة صقيلة، يموج سطحه لأي حركة تخدش سكونه.

حارس العمارة، في العادة، قلما يلتفت إليه أحد، إلا إذا احتاجه لأمر ضروري، مع أنه أكثر سكان العمارة ارتباطًا بها، ومحافظة عليها، ورعاية لها، وأكثرهم مكوثًا فيها. حارس العمارة في قصة «حارس العمارة»، كانت أمنيته المتواضعة المشروعة، وهو «يشطف الدرج درجة درجة، وعندما يتوقف عند الشقة في الدور الأسفل، يتمنى أن تخرج تلك الفتاة بعطرها وتسأله عن الساعة مثل كل يوم..»، كان يتمنى أن تتعافى ابنته المريضة، وتخرج من فراش مرضها، ولكنها ماتت، وعلى الرغم من قذارة الدرج الذي لم ينظف، إلا أن أحدًا من سكان العمارة لم يلتفت، ولم يسأل، ولم يهتم!! هي العلاقات المقطوعة بين الجيران، وإن في عمارة واحدة، فكل واحد يعيش في جزيرة معزولة، لا يدري عن الآخر الذي يفصله عنه جدار شيئًا!!




المرأة في قصة «بجعة»، فاتها قطار الزواج، وفاجأها صقيع العمر، ولم تجد وسط الثلج الذي يتساقط بغزارة، إلا أن تلجأ إلى فراشها، متمنية أن لا تصحو، وفي المنام، رأت أنها بجعة تختال في طريق تحفه أشجار السرو التي اكتست بثوب الثلج الأبيض، وكان السرو يحني لها هامته كجنود السلطان وهي تمشي كملكة. هي الأحلام، وحتى أحلام المنام، تأتي أحيانًا لتعوض بعضًا مما فات، وتجبر الخواطر الكسيرة، وتهدهد القلوب المتعبة، والأرواح العطشى. وتتشابه معها قصة «خيبة»، فعندما يتسرب العمر، تتبخر الأحلام، وتتواضع، وتخبو وتتلاشى، فالمرأة في هذه القصة فاتها قطار الزواج «لم تعد تقف على الشرفة وتحلم بالطيران عاليًا، بل اكتفت أنه تهبط من غيمتها في غرفة الجلوس... تتشبث بريموت التلفاز وهي تتابع ببرود مسلسلًا تعيش بطلته قصة حب فاشلة..».

وبعد؛ فإن مجموعة «ضوء جديد»، وعلى الرغم من أنها الأولى للكاتب محمد عبدالكريم الزيود، إلا أنها جاءت ناضجة، تتوفر فيها سمات الإبداع، وفنيات القص، وامتلاك ناصية اللغة، بالإضافة إلى ما أثارته بعض قصصها من تساؤلات وقضايا وأفكار، تستحق المتابعة والاهتمام، والنظر النقدي لسبر أغوارها، وإبراز مميزاتها وسماتها، وما لها وما عليها.

ومما يجدر ذكره، أن الزيود، ضابط عسكري متقاعد، يحمل درجة الدكتوراه في إدارة الأعمال، وصدرت له مجموعة قصصية ثانية بعنوان «وحيداً كوتر ربابة»، وهو ناشط ثقافي، ويقدم برنامج «حكايات القرى» من إذاعة القوات المسلحة الأردنية – الجيش العربي، وهو برنامج قراءة وجدانية للمكان الأردني وحكاياته، يستفز ذاكرة المستمع لجماليات وتفاصيل القرى والدروب وتعاقب الفصول عليها.

# الواقعية.. في قطوف جواد الهروس

## قراءة في المجموعة القصصية: قطوف من زمن العطالة

**عمر الموريف - المملكة المغربية**
(قاص وروائي)



في مقولة منسوبة لكازانتزاكيس جاء فيها: «في حال أننا عجزنا عن تغيير واقعنا، دعنا نغير عيوننا التي ننظر بها إلى ذلك الواقع»!.
غالبا ما يسبقنا الحكم على الإبداع السردي بأنه ينهل من الخيال أكثر مما يستند على الواقع، وحتى تناول الواقع باللمسة الإبداعية يجعل من هذه الوسيلة مساهمة في طمس المعالم، وممارسة فن التمويه والتستر أمام الشخوص والأحداث والزمكان.
قد يكون هذا التصور صحيحاً إلى أبعد حدود، لكن هل يمكن استنباط الواقع من السرد الإبداعي بالرغم من كل هذه المحاولات غير اليسيرة في تغيير الكثير من الحقائق؟
نأخذ في هذا الصدد المجموعة القصصية للأستاذ الدكتور جواد الهروس الموسومة ب: «قطوف من زمن العطالة»، والتي نستشف من عنوانها هذا كلمة لها وقع نفسي واجتماعي على الفرد، وليس أي فرد، وإنما فئة محددة من الأفراد داخل المنظمة الاجتماعية، وهي الفئة المتعلمة الحاملة للشواهد العليا، الذين يجدون أنفسهم بعد فناء العمر والجهد في التحصيل العلمي بين براثين العطالة التي تقتل فيهم الأمل والرغبة في الاستمرار، وتجعلهم يحسون وكأنهم وزن زائد على الكرة الأرضية قد كُبلت طاقتهم وحيويتهم وجعلتهم - عنوة - في طابور العالة والمستهلكين، إن الفرد الذي يمر من هذه التجربة ينتابه ولا شك ذلك الرفض التام لأي نظرة مشفقة لحالته، كما يرفض الإقصاء والتهميش وطمر الكفاءة في وحل النسيان والجحود، فالعطالة كتيمة وأزمة مسألة واقعية حاضرة تسدل ظلالها على الفرد والمجتمع معاً، والدكتور جواد الهروس حينما اختار إدراج هذه الكلمة في عنوان مجموعته القصصية، والذي يعد عنوان القصة التي دشن بها هذا المشروع الأدبي الماتع، فإنه يريد - كما استنتجنا ذلك - أن يفصح عن هذه الواقية التي تعرفها باقي النصوص المتناثرة بين دفتي المؤلف، متحركة ومُحرّكة، متأثرة ومؤثرة.. هي نصوص، أو قطوف على حد تعبير الكاتب نفسه، حاضرةٌ وكأنها تعكس تجربة حياتية شخصية، أو لنقل بقليل من الجرأة بأنها سيرة ذاتية نهلت من التجربة الشخصية ومن أحداث الغير التي تعكس بشكل أو بآخر الأنا ومعاناتها، لتصقل لنا صورة واقعية لمسيرة شخص داخل رقعة جغرافية وزمن محددين.
فقد جاء موضوع العطالة مؤثثاً لمشهد درامي واقعي عرفه المجتمع ولا يزال، يتناوله كاتبنا بكل الأوصاف والنعوت التي تعكس حدته، وأثره، ووقعه على نفس تملكها أمل الحلم قبل أن تصدمها مرارة الواقع المعاش، يجعله المؤلف مرتبطة بمفاهيم اليأس، والحسرة، وطغيان المحسوبية والرشوة، وإقصاء الكفاءات.. هذا السيل من الوصف القاسي يكسره الكاتب - على غرار الكثيرين ممن يقاسمونه هذا التوجه - بالسخرية اللاذعة الحاملة لرسائل مبطنة ومشفرة، منها دعوته باستهزاء واضح إلى وجوب «معاقبة القانون الجنائي للحاصل على الشهادة الجامعية بعقوبة سالبة للحرية وبغرامة مالية»! (ص ١٦).
ينتقل د. الهروس إلى سطور قصص أخرى، لكننا نجده مصرّاً على حضور تيمة العطالة وآثارها والتبعات التي تليها وهي تسير جنباً إلى جنب مع الموصوف بها، في قصة التيه التي تذكرنا برائعة عبد الرحمن منيف (مدن الملح)، يحلل الكاتب هذه التوابع متجلية في الفراغ والكفر بالواقع وعدم قبوله، تأتي الصرخة معلنة عن مكنون هذا النوع من الإحساس الذي ينتاب الشخص في هكذا مواقف: «عالم مجنون!.. غابة مليئة بالذئاب» (ص٢٣)، هو نفور ورفض لهذا المحيط، يتطور إلى ممارسة لا واعية للسياسة: «هذه البلاد بقرة حلوب... (اللي جا كيحلبها)»!..وكأنها استمرارية لتمرد طلابي انتقل من بين جدران الحرم الجامعي إلى الحياة الواقعية، بكيانها، بحقيقتها، بقسوتها ومفارقاتها، لتجعل القارئ يعود بعد هذا المسار المربك إلى دوامة التيه بين ردهات أماكن القصة وأحداثها المتشابكة.
حتى عندما أردنا أن نتنفس صعداء التحرر من هذه الوضعية القاتمة، حينما أدركنا أن البطل المتستر في كل الشخوص والأحداث قد تجاوز هذه المرحلة وحقق المراد على حين غفلة منا، حينما أعلن: «لقد صرت رجلا... والأهم أنك موظف» (ص ٢٨)، فحتى في هذه اللحظة يجرنا معه إلى العيش مع الرموز المتطبعة مع حياة العطالة، إدمان السجائر، ضيق الطباع، الغضب والتوتر...القبوع في ركن قصي لمتابعة أحداث دقيقة في المجتمع لا ينتبه لها المتفرغ الفارغ من أمل الاستمرار، يسرد لنا قصة «عيشة بلوطة» ونهايتها المأساوية، يحاول نزع قبعة غير المبالي، إلى رجل همته ظروف مجتمعه ناسيا معها ولو مؤقتا لمآساته الشخصية، صور لنا إذا من خلال هذه التيمة ظلم المجتمع لأبنائه والتخلي عنهم ببرودة لا تطاق، يطلق حبل التماسك فيتركهم بالتالي في أوج حاجتهم إليه، تحضرني مع هذه القصة أحداث مماثلة لمنطقتي التي تبعد عن منطقة الكاتب مئات الكيلومترات، تذكرت معه قصة العجوز «إيجة








تمعذورت» والتي تركها المجتمع أيضا تصارع قدرها الذي سلبها قواعها العقلية، وتركها المجتمع عرضة للعب الصغار، ولشساعة السماء وبرودة الأرض، فكانت النهاية أيضا لا تختلف عن نهاية «عيشة»، وكأننا بهذه المقارنة نتحدث عن مجتمع واحد تتشابه ظروفه وطبيعة الإنسان فيه!.

من هذه الأحداث المتتابعة التي توحي لنا بشيء مضمر من السيرة الذاتية للكاتب، تنقلنا السطور – تكسيراً للرتابة ربما – إلى سيرة غيرية، قصة «العربي الملعون» (ص٤١-٤٤)، يدخلنا الأستاذ الهروس من حيث لا ندري إلى دلالات الغواية التي تأتي من الكلمات الرنانة المصبوغة بالعظة والنصح، «كن رجلاً»، غواية العربي للمعني بالقصة، والنتيجة كانت شتات الأسرة وضياع الحياة... ثم فقدان الرجولة، يجعلنا الدكتور جواد (وهو المتخصص في ميدان الفقه والشريعة) نتذكر قصة إبليس مع آدام وزوجه، فإبليس مارس غوايته عليهما حينما أقسم لهما أنه لهما من الناصحين، فطغت بذلك عظمة المقسوم به على دناءة القاسم، في تعبير قرآني بديع، هذا التعبير الذي حطم هلوسات الإثم والخطيئة المنسوبين للمرأة، لكن تظل العقلية الذكورية متمسكة بها في هذا الواقع الملموس، وكأن بعض البشر لم يستوعبوا هذا الإرشاد الإلهي، لتستمر الأوصاف تمس مشاعر الأنثى وتأذيها ( المرأة ضلع أعوج/ ضرورة القيام بتأديبها..).

في المنتصف، ونحن منهوكين من صخب هذه الأحداث المتتالية، تأتي الفاجعة بقصة واقعية يجعلها د. الهروس وسط الطريق كمن يرغب في جعلنا نتلقى صدمة تنفض عنا غبار الوهن، فتجعلنا هذه القصة نتحسر ونمارس فطرتنا في الضعف والبكاء، قصة مؤلمة، تعمق الجراح وتزيدها نزيفاً، عن زلة رجل أثناء تأديب صغيره، تحت وطأة غضب عابر وعقاب شديد لطفل مارس طفولته كأي صغير غير مميز، حتى ولو عبث بأشياء نحسبها نحن الكبار غايتنا ونتيجة كدنا وتعبنا، تعنيف الأب لطفله بقسوة نتج عنه عاهة مستديمة، خلص إليها الطب من خلال ضرورة بتر يدي الطفل حتى يبقى على قيد الحياة، الطفل ببراءته يتقبل الوضع كأنه يُكفّر عن ذنب أتاه بكامل قواه العقلية: «أبي!..كما ترى لم تعد لي يدي لأرتكب الحماقات، خذني إلى البيت ولا تتركني هنا، أرجوك يا أبي!» (ص ٥٨).. وأكتفي بهذا التعبير الطفولي الغريب، الذي لم يترك للأب مساحة للتفكير، إذ انتحر بعدها مباشرة!!.

حتى وفي القصة التي أفصح فيها كاتبنا على ميوله الخيالي، فقد أبى إلا أن يختمها بالواقعية، حيث ربط القصة بحلم انتاب بطلها وهو يغط في نوم عميق، فبعد الحلم طبعا يأتي الواقع.. هو الواقع ذاته الذي ختم على إيقاعه الدكتور جواد الهروس، فقد صور لنا مشاهد عن حياة الإنسان البسيط وشهامته، شقاوة حياة الطفولة بكل تلاوينها، حياة النسوة وهمومهن الخاصة، الصراعات الأسرية التي نقلها إلينا من خلال أطوار جلسة تفصل في الطلاق للشقاق كأننا نجلس على الكراسي في القاعة.. ثم تصوير وضع قطاع لا يخفى حاله على أحد، فقد آثر أن يختم بالوضع الصحي، ولعله مشهد واقعي عام لنمط العيش والحياة المريرة، هذه المرارة التي رغب مرة أخرى في مزجها بالسخرية الهادفة، حين وصف المكان المعني بكونه: «جناح لولادة النساء والقطط» (ص ١٠٦).

لكن الجميل في مؤلف د. الهروس، حول حضور الاحتفال بالأمل، واليقين برحمة الله الواسعة، ولعله أدرك كنهها حينما يقارن ما كتبه في هذه الأضمومة (والكثير منها خلال التسعينات)، وما يعيشه اليوم من تجربة حياتية فريدة.

# دفاعاً عن الهامش

## تحليل سيميائي وفق ثنائية المركز والهامش



**عبد الهادي اباغـانـم - المملكة المغربية**

تعد السميائيات من أهم الدراسات الوصفية والموضوعية والعلمية المهتمة بمقاربة مختلف أشكال الخطاب، وذلك قصد المعرفة والاطلاع على طرائق أنساق المعنى وتوليده والتوصل إلى البنى العميقة، كونها تمثل الدرجة الأعمق في الوعي المعرفي، وكذا في قدرة الإنسان على اكتساب المعلوم من المجهول، وفي التصنيف الواعي الذي ينظم المعرفة بمختلف أشكالها وأنواعها، بل تتجاوز ذلك إلى فهم الواقع وسبر أغواره، باعتبارها علماً يحتضن الواقع عبر أيقونة تمتص عيوب المجتمع. إنها البحث في ما قبل (الانتاج) وفي الأثر (الانعكاس)، إذ نستحضر الرؤية المنهجية حول العلامة التي نظر إليها

د. «سعيد بنكراد» في أن التجربة الإنسانية تشتغل بمختلف أبعادها كمهد للعلامات: لحياتها ولنموها ولموتها أيضاً، كما أنها تشتغل أيضاً كمصدر لسلطة المعنى المشترك «فلا شيء يفلت من سلطان العلامة ولا شيء يمكن أن يشتغل خارج نسق يحدد له سمكه وطرق إنتاجه لمعانيه ولا وجود لشيء يخلق حراً طليقاً لا تحكمه حدود ولا يحد من نزواته كنسق».

وما دام الإنسان كائناً منتجاً ومستهلكاً فهو يتحرك بالعلامة السيمائية ويخضع لسلطتها وقهرها، وإنه لأمر عميق وإشكالية ثقافية كبرى تضعنا أمام زخم من التساؤلات الهامة، لعل أبرزها مدى بقاء السيميائيات نظاماً معرفياً. يدرس في المؤسسات وهو أحد الأنساق المعرفية الواقعية الاجتماعية التنويرية...

لقد طفت على سطح المجتمع المغربي مجموعة من الاحتجاجات، التي شكلت حالات من الغليان بالمغرب وعلى رأسها نجد الأزمة الضاربة والهجمة القصدية التي توجهت نحو المجال التربوي التعليمي، سببتها عقدة فرضت على جميع الأساتذة، الشيء الذي اتجه إلى تشكل أزمة متجذرة أدت إلى توتر الأوضاع وتدهورها سواء على المستوى المادي أو على المستوى المعنوي النفسي، وذلك نتج عن علامات العنف والقمع الممنهج ضد الجماهير التربوية المسلوبة حقوقها، التي تخول لها شروط عمل موضوعية بعيدة عن ظروف عمل العبودية والاستغلال.

وتمثل هذه الوضعية العديد من العلامات السيمائية وشكلاً من أشكال الاحتجاج الرافضة لما يسمى بالتوظيف (بالكونطرا)، وعدم الرضى بقوانينها وكذا العزوف عنها، باعتبارها فرضت بشكل جذري. إنه الأمر الذي جعل هذه الفئة تثور ضد هذه السياسة القهرية، متدفقة برمزيتها الأخلاقية في رفض شامل لكل أشكال الظلم والإذلال والعبودية والقهر التي تقع على المواطنين من أبناء الأمة أو الشعب، لأن كل احتجاج أو ثورة غالباً ما تكون ثورة المظلوم ضد الظالم، والمغلوب ضد الغالب، والمقهور ضد القاهر، طلباً للعدالة الاجتماعية، وصوناً للحقوق الإنسانية، ورفضاً لكل أشكال التعنت والتغلب والقهر. إذ نجد هذا حاضراً في تصريح «كارل ماركس» حول طبيعة التاريخ الإنساني على أنه تاريخ قائم على الصراع بين الطبقات الغالبة والمغلوبة، أو تاريخ بين الظالمين والمظلومين، وكذا تصريح «ماركوز» أن الاحتجاج بمعانيه المختلفة ودلالاته المتنوعة، كانت وما زالت سبيل الشعوب المظلومة إلى الحرية والكرامة نبذاً لكل أشكال الظلم ورفضاً لكل تجليات العبودية، الأمر الذي يبقينا أمام تأويلات سيمائية مطلقة.

وفي هذا الصدد، ارتأينا مقاربة دلالات هذه الوضعية انطلاقاً من رؤية تأويلية تدخل ضمن تصور وتحليل سيميائي، وفق مبدأ من مبادئ الكون السميائي التي وضعها السميائي الروسي «يوري لوتمان»، المتمثلة في ثنائية المركز والهامش باعتبارها جدلية تحدث صراعاً وتطاحناً مستمراً، حيث إن مفهوم «المركز» هو تصور يقوم على التمايز والتعالي وتقديس الذات وسيادتها باعتبارها مركزاً للإشعاع لأنه ينفي إمكانية التواصل والحوار المتكافئ، على أساس امتلاكه (للقوة) لا يحاور بل يسيطر ويفرض ويهدد أيضاً، ومما لا شك فيه فإن آليات السلطوية كرست نمط التبعية الدائمة لها فزادته سيادة وسيطرة وزادت الأطراف الهامشية «الهامش» تبعية وتهميشاً. إنها ثنائية ضدية معكوسة تشتغل ضمن مجموعة من التناقضات ممثلة (الثنائية الضدية المتصارعة)، كونها من أكثر المفاهيم إثارة للجدل في علم السيميائيات، وكونها أيضاً المبدأ الأساس المتحكم في تنظيم كل كون ثقافي، فالثنائيات واللا تماثل يشكلان حسب «يوري لوتمان» القوانين الجوهرية الضامنة لانسجام كل نسق سيميائي.

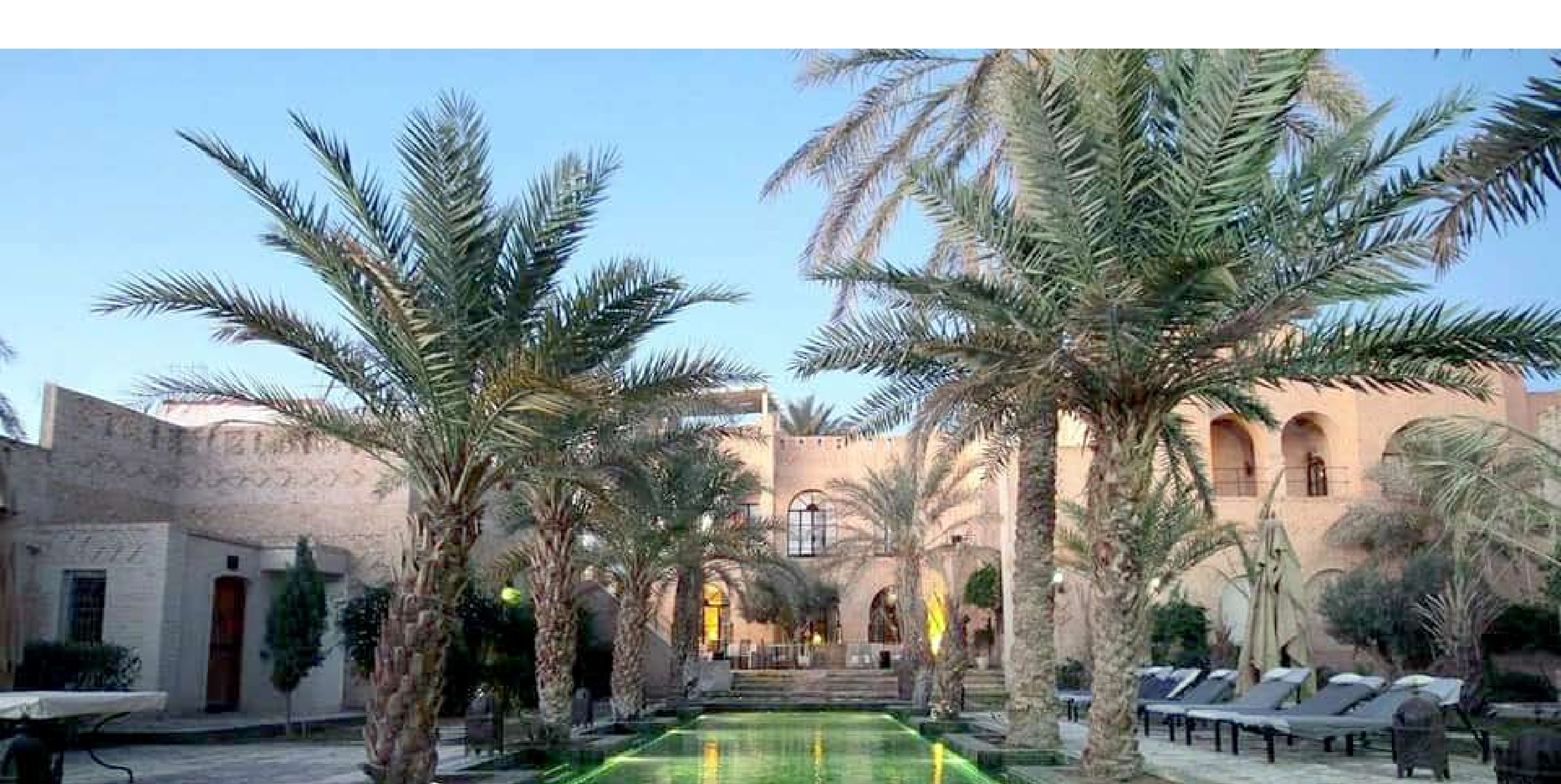
إن تأويل أو وصف أي ظاهرة كالزمن والثقافة واللغة، تكون فيه التقابلات الثنائية المتعارضة أداة مهمة لاختزال الممتد باستمرار وجعله صريحاً مباشراً، وأن التضاد أداة مهمة للمعرفة والإدراك لأن أبسط سبيل لتعريف ظاهرة ما ليست فقط بالبحث عن مرادف لها، بل بالبحث عن نقيضها أيضاً، مشكلاً نقطة تحول بين مختلف الأنساق والبنيات السيميائية الاجتماعية.

فحسب د. عبد الله بريمي «فإن الكون السميائي يتألف من [مركز] نطلق عليه نواة ومن هامش أو محيط، ومعالم كل كون سيميائي هي دائماً معالم غير دقيقة وغامضة تتغير باستمرار، يستحيل معها حقيقة ضبط الحدود، وهل الحد ينتمي لداخل أم لخارج الكون السميائي خلافا للنواة التي يسهل علينا كثيرا تحديد موقعها وتعريفها؟» لذا فإن الانقسام بين المركز والهامش هو في الواقع مظهر من مظاهر الفضاء السميائي الثقافي الذي تتخلله الحدود وتخترقه.

من خلال هذا الطرح يمكن تحديد (المركز) في تلك السلطة المخزنية أو ما يسمى ب«المخزن» الذي أصبح اليوم من بين المصطلحات الحاملة لدلالات سلبية ثقيلة، تعبر عن غياب الديموقراطية، والحرية المطلقة وسيادة الدولة الديكتاتورية، أو حتى معنى الفساد، فأصبح هذا المصطلح يستخدم وبكثرة لوصف أو إدانة غياب الديموقراطية وحقوق الإنسان المرتكبة من قبل القوى البوليسية القمعية، التي تظهر جبروتها وطغيانها البين جليا في هجوماتها العدوانية على (الهامش) المتمثل في الأستاذ الذي يقع موقع ضعف لا قوة له ولا حيلة، فيمارس على هذا الأخير كل أنواع القمع في كل محاولة احتجاج تصدر منه رغم مشروعيتها المطلقة، لأن المركز يمثل ذلك الطاغية المتعالية، وأن الذي يرفض قوانينه أو يقوم بعصيانها، يتعرض للقمع بمختلف آلياته اللا إنسانية المتمظهرة علاماتها في طريقة تفريق المحتجين بل قد تتجاوز ذلك إلى الزج بالبعض في زنازينه، واعتبار كل محتج بمثابة عاص لوطنه أو يريد الفتنة به.

وما يبدي لنا تماماً سمات التناقض بين عنصري المركز والهامش، هو الصراع الحاصل والدائم بينهما، مما يشكل حداً فاصلاً يتوسطهما، يساهم في خلق كون سيميائي خاص، تتجاذب أطرافه وتتضارب في معركة نضال الهامش عن حقوقه المسلوبة من قبل مركز طاغ يأبى من يخالفه أو يعاكسه ويرفض تحريك أو تغيير موقعه، بل الأكثر من ذلك أنه يمثل السلطوية المتعالية لكون سيميائي غير عادل لا قانونياً، ولا اجتماعياً، ولا إنسانياً، ولعله الأمر الذي يضع الهامش داخل وضعية من النفور مردداً كلمة (لا) شجباً لما فرض عليه من قوانين عمل قاسية تمثل له ضرراً وأزمة نفسية عميقة.

لقد كان، وسيبقى الصراع قائماً بين هاتين الثنائيتين المتناقضتين، وسيظل الهامش متشبثاً بموقفه لتحقيق عدالة اجتماعية قانونية إنسانية مطلقة، تضمن له مستقبلاً مستقراً وفق شروط عمل موضوعية في وطن يشاع أنه وطن الحق والقانون، في حين أن واقعه نقيض ذلك، ولعل أبسط ما يمكن أن نطلق عليه هو ما أطلقه عليه «الهامشيون» من أبنائه بالدارجة المغربية الذي نجده حاضراً وبقوة في مخيالنا الشعبي «بلاد الحكرة» كنسق مفاهيمي جديد، يحمل في طياته سمات الاحتقار والاستعلاء والظلم وغيرها من الممارسات التعنتية، التي نجد في دائرتها السيميائية الاجتماعية طغيان القوي البرجوازي السلطوي على المنفي المنسي ابن الهامش، الذي يبقى –حتى حين- عرضة «للطحن» من قبل المركز. إنه الأمر الذي يضعنا أمام ثنائية ضدية تجعل الوطن والمجتمع المغربي في سيرورة سيمائية متنافرة غير مستقرة.



# الزمكان
# في نص الروائي السوداني الطيب صالح



عبد الرزاق دحنون - سوريا

تعوّد البشر في تجربة الحياة اليومية أن يفكروا في عالم ذي أبعاد ثلاثة الطول والعرض والارتفاع، وكل من هذه المقادير يُقاس بزوايا قائمة على سطح البعدين الآخرين. ونحن نستطيع من حيث المبدأ تحديد أبعاد الجسم الصلب بالرجوع إلى النظام الديكارتي للإحداثيات الذي يقيس المسافات في ثلاثة اتجاهات متعامدة بالتبادل. ونستطيع أن نتصور الأشياء الممتدة مكانياً في ثلاثة أبعاد. والغالبية العظمى منا تنظر إلى الزمان بوصفه شيئاً متميزاً عن المكان ولا يرتبط به، شيئاً ينساب قُدماً إلى الأمام بسرعة منتظمة.

إن فكرة النظر إلى الزمان بوصفه بُعداً رابعاً مرتبطاً بالمكان قد تصدمنا بغرابتها، ولكنها أصبحت من المسلمات الأساسية في تفسير البنية الكونية التي اعتمدها أينشتاين من خلال نظرية النسبية العامة. تعتبر طبيعة «الزمكان» أحد الموضوعات المحبوبة جداً في الأدب، وثمة مؤلفات لا تحصى من القصص والروايات والمسرحيات اعتمدت كأساس لها الافتراضات المختلفة حول خصائص هذه القيمة الفيزيائية. ولا ريب في أن أصحاب مثل هذه المؤلفات يستغلون تحركات «الزمكان» بمثابة خلفية تجري أمامها الحوادث، هذه الخلفية تتيح عرض الأبطال في أوضاع غير اعتيادية، ولا بد من الاعتراف بأنها خلفية ذات إمكانيات لا حدود لها حقاً. ونحن نعرف الحكمة الشعبية الروسية التي تقول: إذا فقدت بيتك فيمكن بناء آخر جديد، وإذا فقدت المال فيمكن كسب غيره، وإذا فقدت الزمن فإنك تفقد كل شيء. لقد تجسد في هذا القول المأثور أكثر صفات الزمن تميزاً وهي أنه لا رجعة فيه. فلا يمكن إعادة الزمن إلى الوراء وما مضى لا عودة فيه.

انظر إلى ما فعله الروائي السوداني الطيب صالح في شخصية روايته الشهيرة بندر شاه حيث قدم صورة مدهشة للحفيد مريود وكأن الزمن عاد إلى الوراء فعلاً، وهذه من العجائب المدهشة، يقول الطيب صالح في متن الرواية (... لم يكن عجبنا ينتهي من التشابه الغريب بين بندر شاه وحفيده مريود، فقد كان الحفيد في هيأته وسلوكه مطابقاً تماماً لجده، كأنما الصانع العظيم صنعهما في وقت واحد وقدم لأهل البلد بندر شاه ثم بعد خمسين عاماً أو ستين عاماً قدم لهم بندر شاه مرة أخرى على هيئة مريود. تخيل توأمين تأخر وصول أحدهما عن الآخر خمسين أو ستين عاماً. القامة والوجه والصوت والضحكة والعينين نصوع الأسنان نتوء الذقن القومة القعدة وطريقة المشي. وحين يصافحانك ينصبان على يديك بالجسم كله وينظران إليك لا كما ينظر بقية الناس وجهاً قبالة وجه بل من جانب الوجه نظرة ودودة ولكنها متمعنة متفحصة. وحيث تقف بينهما تُحس كأنك بين مرآتين وضعت إحداهما قبالة الأخرى كل واحدة منهما تعكس الصورة نفسها في امتداد لا نهائي...).

تأمل في هذا التصوير المبدع الذي جاء به الطيب صالح حيث عمل على تحويل البعد الرابع إلى حقيقة واقعة. هنا يتجلى «الزمكان» عبر ضرب من الفن الروائي الرفيع لا تستطيع استحضاره إلا قلة من الروائيين المبدعين الذين يمتلكون هذه القدرة الباهرة على بناء ورسم الشخصيات.

أبادر هنا وأعرض رأياً، قد يكون غريباً بعض الشيء، استقيته عبر سنين طويلة من المتابعة –وآمل أن أكون صادقاً فيما أذهب إليه– أدب كل من يحيى حقي وحسيب كيالي والطيب صالح ينضح من إناء واحد يتمثل في لغة تنهل من تراث عربي عملاق، وهي لغة حية أنيقة رشيقة شاعرية عذبة في جرس كلماتها وإيقاعها وشفافية مضمونها. إننا نعيش في أعمال هؤلاء الأدباء الثلاثة نسقاً من التأليف الروائي المُبدع، وكأن بينهم وبين القلوب نسباً وبينهم وبين الحياة سبباً، بل قل لقد فارت الحياة من بين سطورهم. إنها واقعية فنية حافلة بالخيال الجامح المتفرد. وأُعطيك مثالاً واضحاً عن العبقرية اللغوية الفذة حيث يفتتح الطيب صالح روايته








«عرس الزين» بقوله:

قالت حليمة بائعة اللبن لآمنة -وقد جاءت كعادتها قبل شروق الشمس- وهي تكيل لها لبناً بقرش:

•سمعت الخبر؟ الزين مو داير يعرّس.

وكاد الوعاء يسقط من يدي آمنة واستغلت حليمة انشغالها بالنبأ فغشتها اللبن.

أنظر إلى هذه اللغة الموحية التي تعمل على استكشاف أبعاد الشخصية في لحظة الفعل الإنساني المشبع بالحركة في «الزمكان». فحين تسأل حليمة جارتها آمنة هل سمعت الخبر؟ لا تترك فرصة لآمنة كي تجيب بل تقول مباشرة: الزين مو داير يعرّس. وهذه اللهجة السودانية الحميمة يحملها الطيب صالح على رافعة لغوية قادرة على إدهاش القارئ ولفت نظره إلى جمال هذه اللغة العالية، وأعد النظر في هاتين الجملتين (تكيل لها لبناً بقرش) (استغلت حليمة انشغالها بالنبأ فغشتها اللبن) هذا غيض من فيض لغة عالية ميزت الطيب صالح في مسيرته الأدبية من أول قصصه «نخلة على الجدول». هذا الإبداع اللغوي الفذ يشبه عمل النحات مايكل أنجلو الذي يُبدع من مادة خام صورة تخطف الأبصار وتُعاند عاديات «الزمكان».



يكتب حسن أبشر الطيب في مقال منشور تحت عنوان في الهجرة إلى الطيب صالح (... إن العمل الإبداعي ينبني في شكله وفي مضمونه على درجة كبيرة من الإدراك والفهم المتكامل للظاهرة التي يعنى بها وتلك حالة لا تتأتى إلا بالاستئناس بها وبالتفاعل بما تنطوي عليه من ثراء. ومن هنا يبرز إلى موقع الصدارة أثر البيئة السودانية الريفية في أعمال الطيب صالح. فهو يتمثلها في معظم المواقف شكلاً وموضوعاً. ولعل ذلك يعود إلى ثلاثة أسباب رئيسة: أولها تلك الذكريات الدافئة الحميمة التي التصقت بذاكرته عن سنوات طفولته وصباه الباكر التي نعم فيها بالحياة في قريته تلك الوادعة الهانئة بين أحبابه وأترابه. قرية تماثل ود حامد في الشكل والجوهر. وثانياً: إن غربته لسنوات طوال قد عمقت في ذاته هذا الالتصاق الحميم ببيئته وكشفت اعتزازه بها لانتمائه الصادق لها ولما رأى من تناقضات لا تماثل طبعه وذوقه في بيئات أخرى. وثالثاً: إن غربته قد منحته الفرصة للنظر من بُعد بغية استقراء واستجلاء دقائق الحياة في بيئته تلك البريئة الوارفة الظليلة بعطائها الوافر ومواطنيها الطيبين...).

كلام حسن هنا ينطبق أيضاً وبشكل مذهل على أدب يحيى حقي وحسيب كيالي. هذه القامات الأدبية الباسقة تشترك في هم واحد يتجلى على حد تعبير الطيب صالح في خلق شخصيات ملحمية في سرد قصصي وروائي مُدهش. وقد زعم في عدة مناسبات -وعساه يكون زعماً مقبولاً- أنه حوّل شخصيات المنطقة التي عاش فيها إلى شخصيات ميثولوجية ملحمية على غرار شخصيات هوميروس لأننا كما نعلم شخصيات هوميروس كانت شخصيات عادية من رعاة ومزارعين في بلاد اليونان- ولم يجد الطيب صالح غضاضة من فعل ذلك، أي تحويل شخصياته إلى شخصيات ملحمية على غرار الشخصيات التي عرفها في شمال السودان وإن كان من عرفهم شخصيات عادية. وفي هذا السياق قال حسيب كيالي في لقاء لي معه على فنجان قهوة في دبي: إن الكثير من شخصيات قصصه وحكاياته والتي رسم ملامحها الشعبية بصدق شديد موجودة في بيئة مدينة إدلب وأريافها. ولعل شخصية التوم وسعيد المجنون -مجنون إدلب الشهير- من تلك الشخصيات البسيطة والتي تحولت في نص حسيب كيالي إلى شخصيات ملحمية على غرار شخصيات هوميروس اليوناني.

ملاحظتان قيمتان لا بد من التوقف عندها في أعمال الروائي السوداني الطيب صالح الملاحظة الأولى: مسرح الأحداث لكل أعمال الطيب صالح الروائية قرية (ود حامد) التي تتمثل فيها ملامح القرى الساكنة على شاطئ النيل في الجزء الشمالي من السودان. هذه القرية القصية النائية قدمت للطيب صالح شخصيات مبهرة نابضة بالحياة. الزين في رواية عرس الزين، محجوب سيف الدين، الطريفي ولد بكري، ود الريس، بت محجوب، عبد الحفيظ ود بصير، الطاهر ود الرواسي، سعيد البوم، محيميد، فطومة، مريود وغيرهم في رواية بندر شاه بجزئيها ضو البيت ومريود، ومصطفى سعيد في موسم الهجرة إلى الشمال. وأبادر إلى القول بأن هذه الشخصيات التي رسم ملامحها الطيب صالح بروية وإتقان تتجول في «الزمكان» الروائي تنمو وتتجدد. وهذا يقودنا إلى الملاحظة الثانية: إن الشخصيات في أعمال الطيب صالح تعيش «الزمكان» في جميع أعماله وها هو سعيد البوم في رواية عرس الزين يعود للظهور في رواية بندر شاه في شخصية سعيد عشا البايتات. ولقد تحدث سعيد في مرحلتين مختلفتين من عمره بلسانه وفق زمانه ومكانه. يمتلك الطيب صالح في جميع أعماله رؤية واستبصار فني مدهش مما أهله ليركب ناصية القول بقدرة إبداعية مذهلة وهذا ما يلمسه كل من قرأ أعماله. نعود إلى رواية مريود ونختار هذه الفقرة مسك الختام:



يا مريود أنت لا شيء، أنت لا أحد، إنك اخترت جدك يا مريود، وجدك اختارك لأنكما أرجحُ في موازين أهل الدنيا. وأبوك أرجحُ منك ومن جدك في موازين أهل العدل. لقد أحب بلا كلل، وأعطى بلا أمل، وأقام على عجل وحسا كما يحسو الطائر، وأقام على سفر، وفرق على عجل. حلم أحلام الضعفاء، وتزود من زاد الفقراء، وراودته نفسه على المجد فزجرها، ولما نادته الحياة قلتُ نعم، لكن طريق العودة كان أشقّ لأنني كنتُ قد مشيت.





# شعر وخواطر

بسم الله الرحمن الرحيم

# نعـــي أليـــم

قال اللّه سبحانه وتعالى :

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ/ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ/ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)

(البقرة/ ١٥٥-١٥٧).

ببالغ الحزن والأسى تنعي مجلة «مسارب أدبية» شاعرين شابين من شعراء السودان:

## رماح عبد القادر

## وعبد الوهاب محمد يوسف (لاتينوس)

اللذان انتقلا إلى الرفيق الأعلى في الشهر السابق، غفر اللّه لهما وأسبغ عليهما رحمته وكفنهما بالثلج والبرد وأسكنهما فسيح جناته. وألهم أهلهما وذويهما ومحبيهما الصبر والسلوان.

إنا لله وإنا إليه راجعون

# أمشي وفي رأسي غابة

رماح عبد القادر، له رحمة اللّه- السودان



خفيفٌ في مشيته،
كفأر يسكن بيتاً إسمنتيّاً به عشرون نافذة
عشرٌ منها لا تعرف معنىً للضوء
والعشر الأخرى تفتح كُلُّ واحدةٍ منها في وجه حبيبة. ..الحبيبة الجيدة،
بإمكانها أن تملأ المكانَ بالهواء، بإمكانها أن تُرتّب جوقةَ موسيقى
وترقص في عصبك في آنٍ واحد.
بإمكانها أيضاً
أن تدفنك نهاية الحفل في حرف أغنية فالتة،
وتُغطّي جسدك العاري بالمُبرّرات.
ولأنه يمشي كالفأر،
كنت خلفه أمشي كسيّدةٍ عجوز.
أنا سيّدةٌ عجوز؟
لا أظنُّ أن بوسعي أن أكون شجرة،
لكني حقّاً أمشي كذلك
وفي رأسي غابةٌ.
العجوز تراود الفأر صحبته فهو إن أكلها شهادة ميلادها، لن يترك اسمها كما تفعل الأرَضة.
الأرَضة التي عاهدتني في الخفاء ثم نامت آخر الليل، تسبح بإسمي
وأنا أمشي وهو أمامي
سألهم، وهو يقفز الدرج الأول نحو بوابة خشبية:
دا المدخل ي شباب؟
ضحكوا في وجهي
فهم وأنا، وهو أيضاً،
نعلم جيّدا أنه المدخل،
البوابة فقط هي التي لا تعلمُ ذلك
وما إصرارها على استقبالنا ومغازلة الفتيات
القصيرات والحليقات
واحتضان الشُعراء الصعاليك إلا لمعرفة من تكون!
وأنا كالعجوز الشجرة، خلفه
يطير من قلبي عصفور رمادي،
خرج للتو من شقاوة طفل
مدّ يده نحو البوابة
فصافحته بيدها الجيتار،
البنتُ التي صمّمت وجه البوابة
كانت تعلم أن له عشقاً غجريّاً مع هذه الآلة
الجيتار، امرأة تسكن الأرواح الطيبة
وتحوم في تخومها بقميص مقدود.
البوابة، تصافح الرجال
ومن قبل كانت تَؤمُّ الغابة في صلاة كذوبة –
وتُقبّل الفأس بشهوة حطاب فقير.
نسي وهو يقفز كالفأر إصبعه عند حرف «الري ماينر» عندما صافحَه وجهُ حبيبته الماكرة الجميلة،
ونسيَني أنا أيضاً في بطن الجيتار
ولكني قرّرتُ أن أكون طبلاً
وأن أنسى مشيةَ العجوز في ضحكة هؤلاء.
الطبل في أَحايين كثيرة لا يصافح إلا النساء
– وأنا طبل،
وجلدي بدويٌّ فالت
عبور البوابة قصيدة لم تكتمل بعد
قصيدة تُجابد اللغة لتتحرّر منها،
وأنت وحدك لم تكن حاضراً عندما كتبتها،
أنت لم تكن معنا هناك
كنت وبشقاوة طفل
تُعاتب عصفوراً رماديّاً
لسوء فهمه لعبة الصياد.




# أحنُّ إلى زمنٍ مضى

عبد الوهاب لاتينوس
له رحمة الله - السودان

كل يوم جديد ، كنتُ أنتظر
خلف نافذة
حيث غيوم تصطفُ بارتجال
في صمت كئيب
يبعثُ الرعبَ في قلبِ الليلِ.
كنتُ أنتظر انبعاث الضوء
الذي انطفأ منذ زمن طويل مضى.
في الليل دائماً ما يموت رجل مثلي
بسكينِ الوحدةِ،
دون أن يسعفه الحظ بنجاةٍ
لا تقفل مُطلقاً نافذة الموت.
أحنُّ إلى زمنٍ مضى
كنتُ فيه رجل حماقات لا يأبه
بمصير الكون.
كنتُ فيه رجلاً يجدِّف حتى في
النوم
أو في سرير الحبِّ.
صدقاً، أحنُّ إلى زمنٍ مضى
كنتُ فيه رجلاً يبصقُ في وجهِ كل
شيء.

# سيمفونية الإعلان..
## من ملحمة الرحيل والعودة

د. حنان عواد - فلسطين، القدس الشرقية

(مدير عام مكتب الرئيس الراحل ياسر عرفات ومستشاره الثقافي، عضو المجلس الوطني، مؤسس اتحاد الكتاب الفلسطينيين في الأرض المحتلة، ومؤسس ورئيس رابطة القلم الفلسطيني)

لفعني خيط المساء... ولفعني حنين البحر...
حينما جلسنا على مقعدنا الخشبي نترقب الفجر...
وخبأت رأسي على عجل حتى اقتبس هذا الدفء المشرع من رحلة السماء...
وأحطت كتفي بلحن البردى،
يمسح الهواء البارد بالتفاف الذراع حول الروح،
تخبئها، لتبقى تحتضن البحر...
وتهافت الأشواق مع عطش المساء،
وكان الحوار هادئاً... وظل الحوار هادئاً...
تعذبني الذكرى، وتقلقني الأشواق القريبة والبعيدة...
فعلى أرض البطولات المقدسة، نبني أحلامنا رغم أشواك العبور اليها...
هذا المكان الذي استقينا فيه عصير الأرواح الملتزمة للأرض والحب...
هذا المكان الذي نجلس فيه معاً،
وعلى الزاوية التي شهدت أول لقاء حقيقي بين روحينا،
سيبقى خاصاً لنا.. لنا وحدنا،
لأنه المكان الوحيد الذي شهد الإسراء والميلاد البكر في ظلال المدينة العتيقة المعتقة،
في الرحلة الصعبة الأصعب...
وكلما التفت التاريخ الينا،
سيظل يختال بفارس الليلك الذي لم يتوقف نبضه من مدينة النفي،
ولم يصمت حلمه..
يظل يخترق فضاءات وومضات عيونها وكبريائها..
وكلما اقترب الوعد واللقيا،
استيقظت الأرواح الخالدة لتشهد...
اختمار الذاكرة في كأس وشاح اللقاء الأول
عيون الفارس ترنو، تشتعل بفيض الروح إلى رابعة..
وفارس فلسطين أسطورة لحقيقة خالدة، لا تتجزأ،
بل تتوحد في كل تفاصيل اللقاء.
كم احببت نفسي فيك،
وكم توحّد الحب في عيونك حينما أطلق الإشعاع نحوي.

وتمايلت
خطاك في عرس التجلي، تختال أغنية في حلم لا ينتهي،
في شجيرة للمبتدى المنقوش بأوراق العبير الصوفي المتوّج بإشراقات نحو آلهة الخلود.
كم اكتملت صورتي حينما احتضنتها جنيناً،
حنينا دافئاً موشى بمنثور الأمنيات...
وكم تألقت روحي وهي تطوف حول إشاراتك الإلهية الموجهة من روح الوعد...
أكان الفجر الأول؟؟
وكأنما فجر كل طاقات عبير ارتقاء في الروح المثلى،
أكان الأول، أم بدؤه في احتضان سحر ينساب في بحور الأشواق.
الليلة هادئة، والضباب يلتف حولي،
وخيوط الكوفية تداعب عنقي،
وأغنية حالمة تتردد من صوت ملائكي يشدو بعبير الاحتراق،
واضاءات الروح بشعور مشاعر استشعرت وجودها من فيض روحي أخاذ،
تدغدغ الكلمات روحي وتعبث بها،







كما كانت عندما يبدأ ايقاع الطرب،
وتدنو العربة من موقع الانتظار.
استقل الموكب، أودع المركب وأعبر اليك،
وأغنية واعدة تتردّد:
فدائي.. فدائي.
تتبعها أغنية «لأجلك يا مدينة الصلاة أصلي»،
تغفو كلماتها على أوتار قلبي وأذوب فيها.
الطريق طويل.. قصير،
وهمسات الليل تقترب منها،
ويد هادئة تلملم الأشواق من فضاءات الاغتراب...
هكذا كانت الرحلة بدءاً من ربع قد لا يكون «خالي»،
ومن فرس لا تبيع فارسها،
ومن روح لا تبايع إلا مبادئها،
ومن عيون تلقي نظراتها في مطلق الحب.
هكذا كانت لغة إعتاق الروح المكبّلة...
كم أحلم بالذكرى الأولى بصوت تجلّى في إيقاع التراتيل..
هكذا كانت الصورة والتصور،
يوم أن كان اللقاء الأول وضجيج العربات في شارع المقاطعة.
هكذا كان التواصل مع الوعد الأول في أحاديث جادة ومدلولات،
ونحن على أعتاب المدينة العتيقة،
وأصوات المارة يطرحون السلام بانفجارات العلاقة مع التاريخ المزيّن بها.
هكذا كانت الآلهة تشعل نيران العبادة إليها من قبس وجمر ولهب،
وتدنو كلما التقانا الزمان على حواجز المدينة.
فارس الرحلة تقترب خطاه
كم أحببت نفسي في ألقها في وطن يحترف المجد،
ويحترق في اضاءات رو حية تستفيض عشقاً.
الساعة الثانية عشرة،
أعود من عشاء مخملي محلّى بالشموع،
وايقاعات نبض الليل تتنفس عبير الذكرى..
الصوت المبدع يردّد أغنية لكوكب الشرق:
«أصبح عندي الآن بندقية»
وكأنما كل الكواكب تلاقت
في قصيدة عند أنفاس الياسمين،
والفرقة الموسيقية تبيح استجداءات الغرام الموشى
بالحلم لرجل جالس هناك، ينتظر الأيام..
انتشرت قربه شابة، اخترقت حاجز الصوت والموت،
وبدا تائهاً متحركاً سعيداً... أنظر اليه بفضول.
يجلس قربي رجل آخر يتوه في اللحن، ويسترجع ألحان الأيام،
يكثر التعليق والابتسام، بنظرات موجهة في
طرب الأمنيات.
وأنا أستمع اليه ولا أستمع.
وتعبر روحي بعيداً بعيداً إلى حيث إضاءات من روح الفارس تصل إليّ،
وكأنما المسافات تذوب بعيداً،
ونبض في قلبها يعلو ويتصارع،
ثم تصر الذاكرة أن تعيدني إلى الزيتونة الرومانية،
وكأنما اللقاء الأول يعود ثانية إليّ مخترقاً الذات في مدٍّ بائن من مدرجات عالقة،
إلى التفاف لالتفافات توقظ لحظها عند لحيظاتها.
رموش الدفء تغفو على نظرة عين عاتبة،
معاتبة قدرية الأحزان.
وأمواج حنين الى ماض متوج بالأمل..
الحاجز تشتعل أنواره ثانية،
ابتسامات، تساؤل، وجوم، تشاؤم ثم تفاؤل.
أدير الأرقام بذبذبات من التخوّف،
الصوت يردُّ أيضاً مخاطباً ما خفي منا..
انتظري... لحيظات والرحيل يأخذ عبير غيابه،
تقترب الخطى وتمتد،
وأغنية صامتة كأنما تعلو من أزقة الروح مودعة سلمها..
الشواطئ تغيب وتقترب،
الشعب يتلمس معنى الانتظار.
دقائق ويدنو فارس الرحلة،
ونمتطي عربة الترحال... وتبدأ تساؤلات،
ماذا سيجري في هذا الصيف؟!
الاحتفال تدقُّ نواقيسه،
فارس فلسطين بألقه الطاغي المنتشر يعتلي المنصة..
وأريج دقات الروح يندفع، ليتم اللقاء في حوارات جادة،
نبحث عن مكان حر لا يوجد فيه «رقباء»
وهنالك في ركن هادئ،
نتبادل حديث الروح في دقائق أخفاق احتفاء بملامح الروح في العيون..
الحوار الجدلي يستكمل ليكون صعب الغدر والمغادرة...
تستوقفني الكلمات وتهزني...
ما مدعاة الخوف هنا؟
إنني أفهم،
ولكنني أصر على الفهم المعمّق بالمعرفة القصوى،
ومن هنا كان بدء الإبحار إلى الروح،
ما بين تساؤل للفهم،
وما بين فهم لإطلالات وتجليات توارت عمداً في كنوز الروح،
ليظهر ألقاً ثانية، عند إطلالة البدر في نيسان.
الشمس في اشراقاتها غابت طويلاً...
اقترب موعد الانطلاق في أنس الكون ودلالاته المفروشة في أيار.. وفي تموز..
ترتدي الشمس حريريات خيوط زفافها مع الفجر..
تعبر إليها غيمة صامتة تفر من نظراتها،
وتواري دلالات مقصودة..
ثم تعود إطلالاتها ثانية،
تقفز أخرى تفرش حزناً وفرحاً...
وتغيب الشمس ثانية...
وتبدأ الروح بالتحير المغطس ما بين جذب وانجذاب،
وما بين ارتداد وابتعاد...
والفارس يمضي في أركان الكون في محطات أبت إلا أن تكون صعبة،
ويحمل الشوق والاصرار معه حيث يكون.



# المشي شعراً على بطن أرض مُتحركة

رزيقة بوسواليم - الجزائر

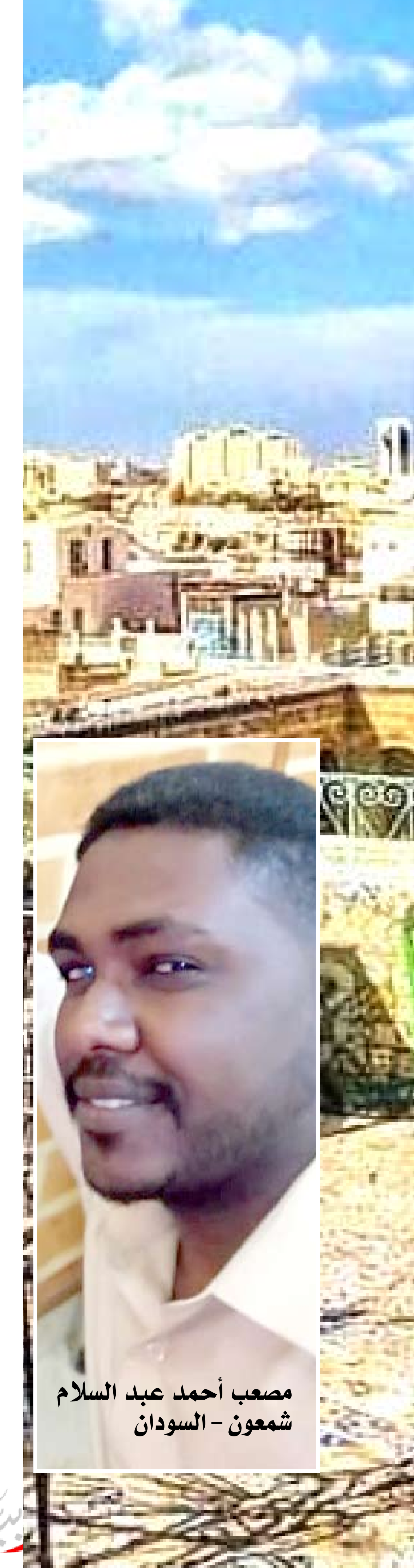
أنكمشُ في حجر المساء
ظهري المتقوّس
جهة الغروب
ووجهُك يرتفع قرصًا نحو الغياب.
في اللّيل
تَدهنُ المومسُ ثدييها بالعطر
وتغسل قدميها بماء الحياة المرّ.
ثم ترشُّ على بابها الحلوى لاستدعاء النّمل الجائع.
لا أريدُ من الكتابة رفعي
سيراً فوق سطح المَاءِ،
المَشيُ
على أرض الزّلازل لهُ مُتعهُ الخطيرة.
منذ ما يقاربُ العقدَ
وقوسي منصوب
على شفة جبل،
ينتظرُ غزالاً شارداً، و بريّةً مُكتظةً بالكلمات والدّهشة وسلال جوزٍ أخضر...عند القيامة الأولى
أَخرجني اللّوحُ المكتوبُ تحت الشّمس اسماً عاريًا
وأنا أعترض سبيل نهر رأيته يُكملُ حفرَ طريقه
مستمعًا ثرثرةَ مياهه السّافرة.
ظَلّتْ واقفة
تنتظر قسمة الحظّ الغاشم
مالت كفّةُ القدر قليلاً
فنذرتْ جسدها لشراهة العابرين.
من يُشبع المرأة ..التّي تريد خبزاً بائتاً،
وقطعة جبن،..وضرعَ حليب مُجفّف فقط لصغارها؟!
___ في المدينة تختنق رئاتُ الشّوارعِ
أغلبُها ممزوجٌ بالوقت السّريع مع أدخنة السّيارات وعجلات المطاط الرخيصة ونظرات بلهاء وتسريحات عشوائية وآذانٍ تلتقط أخبار السّماء
تُمطر حلولاً لمشاكل الطّين.
___ تلك المنازل تموء، تموء،
(الفقر حارس على أبوابها).
جئتُ إلى الشّعر لأزيدَ حرائقي حطباً
نسيت من وضع في فمي أوّل ملعقة جمرٍ، وحَرّض أمعاء موقدي وتركني هنا لأشتعل وحيدةً.
كنتُ وأنا صغيرةٌ ..أخفي وصيّة أمّي في جيبي
(ابتلعي لسانك أيّتها القطة)
(بعضُ الكلاب نُباحها مسمومٌ).

ربّيتُ أظافري
عادةً أهمل قصّها
حتّى أتذكر بعض حيوانيتي اللّذيذة عند ضرورة الهُجوم.
كنتُ عائدةً من حصة أوّل الحُبّ
فتّشت عن شفتي السُّفلى
أفرغتُ جيوب سروالي بحثًا عن مفتاح جسدي
وجدته قد ضاع في زحام قُبلة أنبتت للزّمن من حولي أضراساً شائكة على حواف النّسيان.
___ الرّقصُ شفاء عند الهزيمة،
___ الموت عملية إنقاذ فاشلة،
___ الغناء صوتُ احتجاج الصّمت في الحنجرة،
___ السّعادة مرهمٌ مسكّنٌ لأوجاعٍ مزمنةٍ تثور كلّما تآلفت ابتساماتنا مع جنون الصّدأ.
ناصَبتُ العداء مرآتي
كلّما قفز بي العُمر يومًا تقدّمتُ نحو نضوج رؤوسِ السّنابل.
لا حاجة لي بجملة مساحيق مُبهمة
أدخلُ النص بفكرة
تتنفسني عميقاً رئاتُ الطّبيعة
ثم أسترسل اكتشاف الطّبقات المتحركة الغامضة لجيولوجيا الكلمات.
كانت تقول لي الغيمة:
___ أنا أمٌّ عازبة.
كانت تقول لي الفراشة:
___ أجنحتي غبار.
كانت تقول لي الوردة:
___ أعضائي الداخلية حساسة للّمس.
كانت تقول لي الغابة:
___ رحمي النّباتي أيضاً تخرج منه الكائنات ذات اللّسان المفترس.
عيناك كانت تقول لي:
(أحبُّك)
وصدق الحبُّ وكذبتْ عيناكَ.
لماذا أكتب الشّعرَ؟!
___ لأضمد للحياة جروحها المفتوحة
في سواحل رُوحي الراكضة.
المصابيح التّي تحبل بالنُّور في أحشاء الظّلام
يُجهضها دائماً سعال كهرباء مفاجئ داخل أكمام الرّيحِ الممزّقة.
مُنطفئة تحت غطاء اللّيل،
مَنفضةٌ ..لرعاف السّاعات ونزف الدّوائر مفتوحة على احتمالات تتناسل بي مع مُخيّلة وسادة مُستطيلة.





# نُصيِّر اللغةَ باترةً للعِلَةِ



مصعب أحمد عبد السلام
شمعون - السودان

البذرة في نمو تحتويها أحشاء الفكرة
لا تضمر السكوت عن حاجياتك
بكُل ما أُوتيت من تردُّد
سلِم نفسك للبوح
الجهر انبثاق لشُعاع يخالجك
كُن دامغاً بالصراخ
فهذا السكون مُوحش
وأنت في معترك اللا مناص
تحايل بحضُورك
ثُمّ انتهك الموجودات بكُل حنو.
عن سُلطة الجمال على جسد الأشياء
ثمة ولوج لخمارة اللقطة
حين يرتشف البصر صبابةً من نبيذ
أول الدهشة جنين ذهول
تتبنى الحواس تربيته على امتداد التسمُّر
ثُمّ تحيله لحضانة الذكرى
والقلب يُشرع نبضاته ترنحاً واحتمالاً.
الصبايا اللائي حملننا جنازةً من اشتهاء
غسلننا بعرق اللحظة والجسد محموم
صبَبن عطر التوادُد علي معين البوح
فارتدَت القصيدة تنورَةً من إغواء
الصبايا اللواتي نشكو لهُنّ بياس ضِلعنا
يخبرننا عن ألم الاعوجاج
فنضيع في كيف الاستقامة
ثُمّ يُهيمنّ علينا بحنو وبعض قُبلات.
تُطلُ النهايات على مرًأى ومسمع يا حبيبتي
فالمُصابون فيهُم أنبياء إنسانيتنا
يحملون عنا رهق المرض
ريثما نحيك له دثاراً من علاج
قد ينقلون العدوي دون إثم
مثلما ينقل الحبر الفكرة للورق
شهد شاهدٌ من رواد السينما
حين صاغ الفكرة علي جسد التمثيل
كانهُ التنبؤ في زمن الإرشادات
حين تُشافه الكتابة تطلُّعات القادم
حريٌ بنا أن نصنع دواءنا من خلاصة القلم.

ما ضاق رحم من اتساع قصيدة
ولا أُجهض حبراً على سطر تآكله الجفاف
على صدر الورق نُمارس الرضاعة
من ثدي الفكرة ننمو باليقين
أيُراودك حدثك
هو انعتاقك من عبودية السكون
حرّك ما شئت من نصوص
على أنامل الفكرة
ثُمّ أرجع القراءة مرتين.
انبثق أيُّها المأهول بالتمني
أشرع آمالك على جُنحة الليل
ما طاب مقامك وانسدال الغياب
يسرج راحلته على لحظاتك
موحش أنت بالتيه

الطريق ضلالةٌ لخُطاك
كم استنشقت عبيرها
أحصيه علي حصالة قلبك
واكتب ذاتك فهرسةً للسراب
هي اللغة موروث لا يطأهُ صديد
تحفر على الوقت انبثاقها
لتطلّ لينة على كُل العصور
أمواجها لا تخطيء الضفاف
نبحر فيها لنرسو على شط القصيد.
نمشي على قيامة الأسى
مُوحشٌ هذا الإثم الذي يأكل نبتة التُراب
فالأرض مرهونة للعلة
نُمارس الحُب من خلف ستار
أسدلَته علينا ملائكة الإنسانية
قالوا لا تخالط الأنفاس بالأنفاس
تيّبست قُبلات على نبض الشفاه
جرس الكنائس بُدل بجرس العُزلة
والمآذن تُنادي يأتيها قلةٌ من مُجيب
هلا غسلت الأكسجين بأوزون
فضفاف الريح عارية
تغري ما علق بها من جَسّ النواح.

# لا حرز للقمر

عليا عيسى - سوريا

أكلما أتبلّلُ بموسيقا اخضلاليَ القمريّ
تشهقُ اسمَك قصيدةً كافرةً تحتَ جلدي..؟!
ويتأجّجُ دمي خمراً فزعاً بالخطايا
كطوفانٍ كظيم لأجسادِ نساء..
طالعات عراياً كأغصانِ الزيتون
مضرّجات بقوامة زيتهنّ المحظور.
أحلامهُنّ عصفٌ مأكول
ذراها البدءُ خارجَ سفينة المشيئة..
منعوتات بعورات عوالمَ سفلى..
وُشِمَتْ سرّاتُهنّ بشره النماء!
مغلولات بخضرتهنّ ..
تَردّدَ دويُّ أغلالهنّ كالخلاخيل، عندما ترنّ أجراسها للحياة
هناك في أعماقي..
أسمعُ في بئرٍ كبت عتيقة..
أثداءً تنضحُ زعافَ السماء..
أولمتْ أنوثَتها لأسرّة وأد حنيف.
حيث زمرة زروعِها مطمورة في خدور.
هناك ..
وأنا معهنّ..
ستغني في دمي الزُّهرة×
فأهربُ كتعويذةٍ ضالةٍ يُسكِرُها نغمُ أنينك الحثيث..
أنين أنثى ملائكةَ حزني..
فرقص في ضميرها الصلصال
ثمّ من قعر خوفي المقدّد
تُنبَشُ سيرتُك..
وتستوي فوق حيرتي معانيك..
نصفَ إله نصفَ شيطان
أعاقرُ جنونَ اقتحام صوتكَ لخلاياي
تُغرقُني في ساقية أضلاعك
أغنيةَ قمرٍ بحنّاء
فتزعقُ بي رعونةُ عشتار
وأُصْليكَ من شمسي خضرةَ المقام.
نتزمّلُ جلبابَ العناقِ
ويَشِمُ زندكَ خصري نجمةَ مساء.

ثم تتجمّرُ في المساس صكوكُ التراب.
تجلدُنا سدنةُ الماء..
ونهوي ملطخينَ بسفسطةِ الجوع المقدس
يرجمونَكَ بالصيام عني
لكن..
قرابين أنوثتي المنذورة لميقاتك،
توقظُ في أنفاسك اليخضور
فيتأجّجُ بين أضلاعك فألٌ...
تفسيرُهُ تفاحٌ حميد.







# جدولٌ برسم الغيم

## (بكاء مؤجل والندامى ينزحون عن الذاكرة)

عدنان العمري - الأردن

١

أعيذيني بك من رفقة ينتعلون القلب

فإذا هم وصلوا

قالوا ضيقة رؤاه..

٢

وقلتِن كنْ

إن شئت مقيمًا

وإن شئنا أقمناكَ..

قلتُ

ذا قلبيَ البريّ يألف السعيّ

في قيظ نهاركن عاشقًا..

يا الوحدك كلهنّ

كلّما نأى عني احتمال الظلّ

أرخي يديهنَ هوادجاً

وعلى عادة المؤانسات ظلّليني.

٣

يداك

يا الفصيحتان..

كأنما وليٌ ويمس صدغ الدوار

يداك نابغتين تمرّان على كراسة الوراءِ..

أو التان تقولان ما أخفى الكلام

وما أوحت الأشياءُ...

يا اليداك

عرّافتان تطالع ما ولّى فيما يلي

كأنما حقيقةٌ ما يَقرأن

خطوط القلب دلالةَ ارتباكي

يا اليداك

كأسان فاضا

ملامسةً لصدري

ففرّ من أعطافه العمر الجريحُ..

٤

ولصوتك الصّوفيُّ لون التائبين

إذا بشوق ينحني ..

ويرى جليًّا

كيف تاريخ الخسارة جرّني

جهة الوجيعة

جاءَ ربّانيّةً قسماتهُ

وعن الخسارة صدّني..

يا صوتك..

جيلٌ من السُّمّارِ في أردانهِ..

مددًا يغنّي

كلّما خرجت رؤاي عن الطريقة

ردّها نحو الطريق وردّني..

٥

وردك

يا وحده

ويا وحدها أفياء صدرك..

ولئلا تجفل فراشةٌ من رفرفتها

وردك

اليوم يا وحدنا

ويا وحدي وأفياء صدرك...

٦

لست على رسلك

أقرأ تفصيلاً

يلمسه سواي ولا يدركه..

ربيعك هناك يا لجوك

وخريفك هنا

يا لتساقطي...

يا صباحان في نهارك

ها هنا صفراء ملامحنا ونهوي..



وهناك يضج بالكلوروفيل صباحك..

٧

تمرّ عربات الليل

تجرح هدأة الأسرة

جسدان تواً من الحبّ

خرجا منكسرين...

٨

لست مصادفة..

أحبَّ أثينا وشعرك

أحب زوائد الحديث واهتمامك

ما يحكّ معدن القلب

ويصقلني

ما يرجعني حديث العهد

بالإمعان والأشياء

كل الأشياء..

لست مصادفةً

اللّه اليعرفني

كأنك سماوية ألقاك

فأتيت رسولةً تنهر الافراط باكتراثي

فأتبعك

وألعن كل أثينا إلا شعرك

وأنهر زوائد الحديث إلا اهتمامك..

لست مصادفة

تحكين معدن القلب

لأمعن باللّه

ويصقلني...

٩

لعل الذي

كدعاية للفراديس هندسك

هندس صدفة لهذا التحت النوافذ

فتلتفتي..

١٠

بسمك اللهم

هذا قلبي

يحبل بالغيم الطائش..

وكلّما نزحت عن خدينها عذراءُ

يلدّ البكاءَ

مواجعاً وأدعية...

# قلبي لا يردُّ على السّجان

نجيب فتاحي - تونس



تخيّلْ شاعراً منسجماً مع مِغْلاق زنزانة؟!
لا يتملّصُ من المعنى
يُرضي غرائزَ السلطة
يُرغِم الرّيشَ على التّراص بانتظامٍ
في مكان الريح
يُريهم طريقَ الصّوَاب العَقيمْ..
في بلاد تُظَلّلُ أقفالَ المهووسين
برموز الحبّ على الجسور.
يتساءل المعتقَلون
مَنْ سبق مَنْ؟
المفتاحُ والقفلُ
كلاهما معًا؟
أَم الشاعرُ؟؟
في متاهة، يتأمّلُ ورطةَ أمّهِ وأبيهِ!
ينزلقُ ليُثَبّتَ المزلاجَ
يُغلقُ البابَ
فيطعَنُ نَفسَهُ!
فتنةُ الأقفال على الألبابِ
أخفَتْ أناهُ...
فلم يعد قلبُهُ مفتاحَهُ
فقَدَ الرغبةَ في التجلي
وأخْفى منْفاهُ
قرأتُ أصابعَ يده العشْرةَ
ليس هنا مكانُهُ
مفتاحُه يثيرُ الحنينَ
كمفتاح بيت في فلسطينَ...
قبل قدوم الأفعى
هذا الشاعرُ..
أعطى السلاسلَ شعوراً غريباً بالحريّة
عفوتُ عنهُ
ليسَ بسَجّانٍ...



# ابن الحي

أمين الجرادي - اليمن

اقتنعت أخيراً بترك الحي
والركض بعيداً..
أجري مع الأيام
وأحمل رائحتها في جيبي
أجد لكل حزن ثقباً في صدري
وأسُد الجهات التي تأتي منها الريح...
بعيداً لا أعرف عنواني
أنا ابن الحي الذي نزحت منه عنوة...
قالت أمي بعد تلاوة سورة من القرآن:
ليكن دربك مفتوحاً...
حين غادرت
قال لي طريق الحي
أخشى ألاّ أراك ثانية
أو نتقابل من جديد...
ضارباً في الهذيان
أشعر أنني لست بخير
أصرخ باستمرار...
وأتوقف ساكناً،
جهتي اليمنى معتمة
واليسرى تتناثر في الأمام..
أُتمتم مع نفسي
وأنظر إلى الطريق
الذي تلاشى
لقد اختفى تماماً..
أعتلي أقدامي
وانطلق بطيئاً نحو وجهة لا أراها...
أبحث عن نفسي في سهول الحي،
وأهبط مع الرعاة حال الظهيرة
أشرب الماء،
وأستريح من رحلة البحث عني...
خمس سنوات مرت
على مغادرتي للحي
وأنا أقف على طاولة المسافة،
قبعتي الصغيرة مسحوبة على جانب رأسي،
ونصفي لا يكاد يتبعني..
ليس عَليّ أن أقف..
أو أن أحوم حول نفسي هكذا بدون فائدة
ولأتجنب الطواف والدوار الذي أكرهه منذ صغري
اكتفيت بفكرة
أن يتعرف بعضي على بعضي..
كل عام..
أتناول يدي مصافحاً نفسي،
وأَشُدني بقوة
وأشعر تجاهي بشعور الغرباء..
عالقاً في مخيلتي
أمشي...
لباسي الرث
ووجهي القاسي الحاد
حاضراً ضمن كل الذكريات..
كل الجدران من حولي
محشوة بالشعارات،
وأخرى بالشتائم..
أجوائي كئيبة،
وجهاتي بدون وجهة
السماء ممتلئة بالأدخنة
والطرق المزدحمة تهرول بالغرباء مثلي
صوب لا وجهة...



# أنتِ أشهى من الموت موتاً في مجازات القصيدة

محمد عويس - الأردن

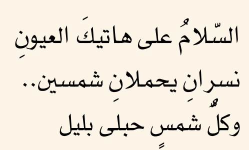
إلى امرأة
في الطرف الآخر من الحزن
أمسكي بقلبي جيداً
لم أرَ اسمي على شاهدة القبر
لحظة ارتداد الجفون
في لُجّة الغسق
وساعي الموت
قاب خطوتين أو أدنى
يخرج من رُدهة في التقويم
الليل يحمل أسفاره
ويمضي عما قريب
أصغي حين يموت
السؤال في فمي؟!
والجواب هو الجواب
أصغي لما تقوله الريح
وما يقوله الموتى
الذين يلتقون فجأة
على دكة الخلود
وأصغي لاحتضار الغيوم
عند حافة الجحيم
وهول الأنام
إذا الصُحف نُشرت
الموت أصغر من غيابك
تزدادين جمالاً
كلما غبتِ

غيبي إذا راودك الغياب
واخلعي نعليك فوقَ
(جسر الماء)
فلا جدوى للبكاء
سوى ما ترتلين من سور الكتاب
ضميني إليك
رأسي على صدرك
موت رحيم
يداكِ على رأسي
موت أطيب
أغمض على ما تبقى منكِ
الروح تخرج من غير سوء
يصبح الموت مشتهىً
ليس محزناً أن أموت
أنتِ أشهى من الموت
موتاً في مجازات القصيدة
يا الله
من أي باب يدخل الموت
من أي حزن يرتوي الشّعر
الذي يمشي على أطراف
الجنازة
الأرض عطشى
وماء الجسد
لا يروي ظمأ الشواهد
يا الله

ما الذي أفعله
في غفلة المدينة
ورفاقي قد رحلوا
وبعضي يودعُ بعضي
وأنا الذي أنفقت عمري
أكابدِ وزر الخطايا
يا الله
ماذا تبقى للموت من خرافة
وأصوات الموتى
السائرون في صفحات النعي
تهز أسوار المقابر!!
يا آخر النساء
هل لكِ أن تضمدي
هذا الجرح
فأكون
يا امرأة يعاقبني الموت فيها
هل لكِ أن تُشيري
بيدكِ
فأصعد عبر صوتك
إلى السماء
يا آخر الحب
يا كل هزائمي
لا تومئي برأسكِ
عند شواهد القبور
فالموتى لا يُلامون!!

# إمامُ القرنفل

سعاد محمد - سوريا



السّلامُ على هاتيكَ العيونِ
نسرانِ يحملانِ شمسين..
وكلُّ شمسٍ حبلى بليل

السّلامُ على رجل..
طوّبني في عائلة الظّباءِ
ثمّ محا الغابة..

على رجل
يسبّحُ بي..
ثمّ يعلّقُني..
تارةً يبخّرني..
وأخرى يضيّعني..
فيبكي ويبحثُ عني!

على قطارٍ مرّ على زنديه..
أخذني لمدينة كلُّ ساعاتِها تكذِبُ..
كل ساعة ستّون لصاً..
سرقوا دنانيرَ الشّمسِ وهربوا نحو الغروب!

السّلامُ على ما كانَ وما لم يكنْ..
على هدهد ضَيّعَ بوصلةَ الأنبياءِ..
وأهالَ العطَشَ على مدخلِ قلبي
حتّى يُشهرَ شمالَهُ الماء!

على رجلٍ..
لقلّةِ اهتمامه بالتّفاصيلِ
حين ذهبَ..
نسي أصابعَهُ عليّ..
لكنّهُ أخذَ الطّريق.

السّلامُ عليكَ يا إمامَ القرنفل..
يومَ صرتُ نرجسةً صرتَ صيفاً..
أملتُ نحوكَ نحري فصرتَ سيفاً!

# تمتمات لامرأة بعيدة

**محمد الخفاجي - العراق**

أفتح ذراعيَ للطريق...
كمن ينتظر صدفة – ما – تأتي بوهج الرؤى
أو عناقاً...
في ذات اللحظة
يجرني الخشوع إلى مدخل بعيد...
أرى امرأة، تصطاد منديلاً بفكيّ يدها،
منديلاً يشبه لون بشرتي، يحاول أن يهرب من قبضتها
أو يقول شيئاً...
منذ عطشين أو أكثر
والجفاف عواء،
أوّلهُ في الخاصرة، أوسطهُ يملأ الصدر
وخاتمتهُ خلود بفم جافّ
حرقة واحتراق
وصراخ يُطلق من برعم يمدُّ رأسه المثقل بالنداء...
كان يعاتب الغيمة المعلقة بأطراف السماء،
كان ينتظر المطر بلهفة طفل
أصابهُ العطش
منذ فصلين وأكثر...
والمشهد طفل يحترق بنارٍ موقدة، ينتظر يقين الماء
لتُنزل الستارة وتغلق خاتمتها...
تعالي
اسْقي القلب وأفيضي بالضوء
وعاودي النبض الى مجراه
تعالي
بأيّ حجة
كومضة ضوء لامع، تربك عتمة الأمكنة،
كأول جواب يفك عقدة السؤال المربوط بلسان الخجل،
كنوبة وَلهٍ تُحرك المعنى الساكن في زاوية الرتابة
أو
كقطراتِ مطرٍ تخمد حرارة الشوق
فقط: تعالي...
تعالي
نعبر كل هذا القحط،
نخلط

وحشتنا الممتدة طويلاً
بما نملك،
ننهب من بين هذا الليل الفسيح
ما أمكننا...
قصيدة ولحن
أو..
أغنية
نخلع عنها ثوب
الخجل،
نلبسها أمنية... بكامل الفيض
وتفاصيل متسعة
من بين هذا الليل
الممتد بعتمته
بما يهب وجهك من عطايا
الضوء
بما يهب عطرك من دليل
بالنداء
بصوتك
للملاذ
للجهة المطمئنة نحوكِ...
ألوذ
وحدكِ
تلفين طرف البُعد حول معصمكِ
تشدّين ردن المسافة إليك
تصطادين الوقت الضائعَ من العمر/ عمري
وتعيدينه نحو الإياب..
وحدكِ
وهذا الطفل الواقف بأسماله القديمة
قرب الباب...
يشهد
تركَ التعب يغفو بعيداً على كتفيه
وجاء هارباً من حافة السقوط،
جاء هارباً من عقوبة الطريق...
فلا أحد إلا أنتِ،
لا وطن إلا أنتِ،
لا مأمن من الخَوف إلا أنتِ،

افتحي الباب على مصراعيه
وخبئيه تحت القميص...



# يدي سفينة

زكية المرموق - المملكة المغربية

لا شيء يربطني بالزمن
لا شيء
سوى ساعة الحائط
الحائط الذي كلما اتكأت عليه
امتلأت يدي بالغبار.
لا شيء يربطني بالمكان
لا شيء
سوى هذه الطريق الممتدة
بيني وبيني
الطريق التي كلما حاولت أن أمسك بطرفها
أضعت دمي.
أن ترى كل شيء
فأنت لم تر شيئاً
أن تعرف كل شيء
فأنت لم تعرف شيئاً
أن تقول كل شيء
فأنت لم تقل شيئاً
كل شيء هو لا شيء.
أيها الحكاء
حينما اكتمل البدر
مات الديك
فماذا ستحكي شهرزاد للفجر.
والسياف غياب
والغياب موت.
أحدق في البحر
فيتحول إلى سفينة
أحدق في السفينة
تتحول الى طوفان
لكني لست ساحرة
أيها الرب
ولا لوح لي ولا شراع
فكيف أصل الضفة
والطريق نسيان
لا ذاكرة؟
كل من يعرف ينتهي
بائعاً متجولاً على الطرقات
يبيع العلك
الصابون
والحزن يا انخليس بوانو.
العلك لإيهام الجوعى بالشبع
الصابون لغسل الذاكرة
الحزن سرير الشعراء.
تقول لي:
أنتِ نجمتي البعيدة
والدليل
وتقول يا كفافيس
إن الضوء حزن آخر
فكيف ندخل العاصفة
دون أن نعرف اتجاه الريح
وكيف نخرج من القيامة
يداً في يد؟
هانذي أغني دون
وتر
فهات العود
أرقص دون قدم
فهات الجناح.
هانذي أمشي إليك
مثل مدينة تبحث عن وردة
بين حجر
مثل حلزون يحمل خساراته
وساماً
مثل طريدة تبحث عن جنة في غابة النار
أمشي
والمشي محو
والمحو كشف
والكشف إنجيل.
فليس للعشاق يا حبيبي
إلا النذور
أو الريح
إني أراك في كأسي
في جرحي
في رمادي
والرماد بدء
هيلاهوب
يدي سفينة
ويدك بحر.





# قُل لي

وداد سلوم – سوريا

قل لي ماذا تفعل بنا الذكريات؟
مغرورة بيقين امتلائها
تسلُّ مخرزها وتقنص عين الراحة
فتأتي مدماة... معماة القادم
تضحك.. وتسخر من آه الرابض في القاع.

×

من أي أرض تأتي؟
ماذا تشرب أقدامها لتضيء مدن السراب
أي زمن يمر هناك؟ وكيف لا يشيخ سكانها؟
تعيش صباها كلما نهضت
تمنح ثديها للحسرة بشبق
وتقتل صورة الأنا المرتعشة في الالتفات
إذ خلعت ثوبها تواً وارتدت ابتسامة الغواية... ابتسا

×

أعطوني دواء يحيلها لليباس
دواء يقتل أذرع الوحش الغامض
أعطوني عشبة تمنحها النوم الأبدي وليس الخلود
وسأحرس بوابة الماضي من أفاعي الندم.
أعطوني مرآة سوداء تمتص وجهها
وتجيب عن حيرة الظلمة.

×

أسمع الريح في سراديبها
أسمع هسيس الخوف
وأشم رائحة القسوة
في اختبار الطين
في اختمار الشهوة
وجرح الضوء في الضرورة
أيتها الأيام الفاسدة لم لا تقطعين حبل السرة
ألم تتلف الأحكام بالتقادم
حتى أعمدة الكلس تعبت من حملك
وأنا تعبت من القفز بين نبوءات وجهك
اذهبي للنوم.. خذي أحلامك.
ودعي احلامي تنام أو حتى تموت
لكن اتركي لي يوماً واحداً للسؤال:

- قل لي ماذا نفعل بالذكريات؟



# بقلب الطير أرى..!

خالد الدامون / المغرب

١

على رصيف مساء صيفي،

تلبدت في أعماق المدينة أجواء الشمس،

جسدي بعفوية رفع مظلته الشتوية،

فيما فمي كان يحصي الخطوات المطفأة

يعد من واحد حتى عشرة،

يعيد الكرة،

لكن في كل مرة أقع أنا مدراراً من سماء تعبي،

ولا يسقط المطر!

٢

أنا الآن، قد تعلمت قليلاً

صرت أروض هواجسي على السفر في صمت،

أنا الان، بقلب الطير أرى

أرى حزني الكثيف دمعة فضية

تذرفها عين غمامة،

أحياناً

تذرفها روحي حبراً على ورق.

٣

ثمة في ممشى الأحزان أحلام نافقة!

نقرات كعبها توقظ الذاكرة،

يداي لحضنها كنت أشرعهما أم للفراغ؟

هي لحظة ممشوقة بالحنين الجارف كانت

أم أضغاث عاشق؟

٤

بين وجع وآخر

رنين ضحكها المقبل من أطلال قبلة قديمة

يربك حسابات القلب،

هل أحلّق؟

أم أضم يدي إليّ؟!

٥

بقلب الطير أرى..

فرحتي

وهم دافئ تحت جناحي،

أخفق به منتشياً

كلما ارتفع منسوب

الشوق في الدم،

كلما تضوعت قرنفلة

قلبي على شرفتها

وهي ظمآى

أنا وهي لحظة واحدة غير منتظرة

يكفينا ذلك الوهم

لنصير سماء واحدة نهطل بنشوة

زخات من حكايات سحب الصيف..!

٦

ولأن دموع

الفرح قليلة هذه الأيام

عيني تحفظ ما أجهشت به من أحلام قديمة

عن ظهر قلب،

ذات ظهيرة،

كان الظمأ سيرة حياة في دمي، رشفة سراب

في لحظة قائظة، كل السماوات ضاقت بي،

فتشت عن أناملها

فلم أجد يدي..!!



٧

منذ ذلك المساء

صرت عاشقاً للميناء،

تدفقت مني نورساً بحرياً

صرت كل يوم أتذكرها والرذاذ يهش علي بالملح،

كم كنت مولعاً بتأمل أناقتها

حين كنا معاً نورسين نتلمس طريقنا في الحب والشعر،

كتبنا اول قصيدة مشتركة

على أمل أن نبقى..

لكن لم نبق..

لست أدري

تلك مشيئة الأسفار كانت؟

أم مشيئة الأقدار؟

أم سوء حظ الحب والشعر معاً على هذه الأرض؟

٨

أرى بقلب الطير..

أتأمل خيبتي في الأجواء بروح رياضية

أسال هديتها الأخيرة لي.. وردتها الجوري في ذاكرتي،

أين الندى؟

•دمعتك الأولى الحارقة بعد الفراق، كل ما تبقى.

أين الأريج؟

•ما نما بين كتف الجبل وأقدام الهضبة من حنين..

أنا ذكراك الوردية في الشوق فتعود على شوكي!!

٩

بروح رياضية تعلمت أن أهنئ خيبتي كل هزيمة،

أن لا أعول على أحد غير قلبي..

أن أكون أحياناً مستعداً

لأستريح في الجحيم! أن أحملني

بعد حفلة الشواء

إلى تربة العدم من جديد

هناك أنمو كلمة كلمة،

حلماً شاهقاً أو شجرة في أرض القصيدة.

١٠

بقلب الطير أرى..

أتطلع إليّ ألواناً شتى تحاور بعضها البعض..

أرى انزياحي

لوحة تجريدية تحتضنها السماء،

أراني منتشياً في ذهن رسام تشكيلي لا يعرفني

يزيح عن سمائي غابة الضباب

يذري وجهي أرخبيلاً

او شتاء يعبر تفاصيل حياة الكون الملتبسة،

رسام يضخ في قلبي نبضات

ألوان تخفق كالأجنحة،

ويذري العالم حولي ميناءً صغيراً..!!

# مدارج الضوء

حسن مستعد – المملكة المغربية




تأبطت قلبي،
وحملت ما تيسر من نبضي
زاداً لمسافر على أجنحة الوجد
رأيتني، أغادر منفاي إلى منفاي
أكابر، صاعداً حنجرة تدلت
من بحة صوتي
غادرت الأبجدية حبالها
وغفت نوارس حبلى بالحلم
على شهقة الأوتار
رحيل ينوء بجثة تشرب قهوة
الصباح، على مدارج الضوء
وظلمة تتمطى، كعروس مبللة
بعرق العراك
حمامة بيضاء تلوح للنائمين
على أرصفة الموانئ
أن حان غد الحالمين،
بفردوس مفقود
أحمل جرحي
ألتحف ألمي
موعدي، مع أملي
خطوة، خطوتين، خطوات
ويد تختلس حلمي من قبضة يدي
وتأخذ مقابله، نصيبا من غدي.

# رجل جبان

محمد سيزيف - السودان

لأنني رجل جبان..
أخاف الأوسمة الذهبية والألقاب..
لست شاعراً؛
لتدعوني بالأخطل الصغير.
لست قاصّا؛
لتدعوني تشخوف العميق.
لست روائياً؛
لتوسموني بكافكا الصغير.
رعديد أنا،
لأرسم بذخ الطُغاة
في لوحة العشاء الأخير.
لست موهوباً
لتنصبوني فنانكم المفضل.
أو سريالياً مثل دالي
لأرسم جنونكم في لوحة الوقت المائعة.
أحب الموسيقى
وأنا لست عازفاً!
أحب السباحة
وأنا لست عواماً.
أحب الأدب،
وأنا لست أديباً.
أحب الحياة،
وأنا لست حياً.
أحب النساء
وأنا لست دونجواناً!.
رعديد أنا
لم أقتل يوماً فراشة
رغم أنني عاشقٌ نزق.
لم أحرق يوماً حديقة
رغم أنني ممتلئ بالبارود.
لم أغتصب يوماً فتاة
رغم أنني رجل قوي!.
جبان أنا يا صاح،
لم أخن وطني يوماً
رغم أنه لم يمنحني سوى التشرد،

لم أمتهن الموت وظيفة
رغم أنني عاطل..
فقير أنا
لم أسرق من جيوب الوطن
فلساً واحداً.
جائعٌ أنا
لم اختلس من مخبز الوطن الكبير
قطعة خُبز.
تباً لي،
رعديد أنا
لأنافس الطغاة في أعمالهم!.



# شيءٌ عاديٌّ جدًّا أن تصحو ولا تجد البحر!

**إبراهيم صبحي - مصر**

البحر صديق قديم
يعشق السحاب المراوغ
ويراني طيِّبًا مثل شجرة بلوط
أراه أنيقًا على هيئة امرأة
ترتاح على كرسي□ا
فيما يتدلى ساقاها ذهابًا وجيئة بالزبد وأمواج الأغاني
قال لي البحر يومًا:
أنت نعمة الآلهة
كنت ألقي عليه القصائد
وقصص العشق
والأمثال التي ورثتها عن أبي
وهو يقبِّل جذوري في الرمل القريب
وينفث وجده قبل أن ينام
(شيءٌ عاديٌّ جدًّا أن تصحو ولا تجد البحر)
ها هو البحر يرهف السمع
لعازف المزمار السحري
ويأخذ في الرقص المميت
يمضي معه مخلفًا غبار الحكايات والقواقع والملح
ها هو البحر ينسى سحابه المراوغ
فيما أكتب الشعر لحبيبتي
وألقيه للريح.







# من أخذَ الخاتِمَ من أصبعِ القَتِيل؟






لن تسألَ الباب
لا يقطعُ الخشبُ رُوحَهُ مُجدّداً بعدَ أن استوَى مدخلاً
يقعُ مرّات كثيرة، إلى الأمام، ويقفُ حين يُذكّرُونَهُ بالغاب
على أقدام بلا جُذُورٍ يقفُ البابُ، وهو وليدُ الحطّاب، وسفينةُ الدُّخُول، وغلافُ الدَّار
لا تسألِ البابَ، كُنْ إجابتَهُ المُسدّدة حين يذُوبُ مقبضُهُ لأحاسيسك وأنت تدلفُ خلالَهُ، كُنْ البابَ.

xxx

اضربْ مسافاتَكَ في عاملِ الزّمن وخُذْ نصيبَكَ كاملاً من الانحناء لالتقاطِ هوامشَ غيرُ مقرُوءةٍ للتّأريخ.

xxx

كُلُّ عابرٍ نُقطةً في المُخيّلة
من الضَّرُوريّ شدُّ سُفُنَكَ
واللُّواذَ بمرافيهَا
فإن حيّدتَكَ خرجتَ لنُقطة ثانية
قد تجدُهَا نُقطتَكَ في مُحيطِ النِّقاطِ.

xxx

أشهِر سلاحَكَ أيها الظّلامُ
لا تدّخرْ وسعاً لقتلي
خُذْ ريحاً وسكيناً ودوّي طائرة...
وابدأ السّحقَ.

xxx

شجنٌ مُتشابكٌ طلعَ من باطنِ اللُّغة
اجتازَ كُلَّ عقبةٍ وُضعتْ أمامَهُ
كُلَّ مُخطّط لدحره
كُلَّ اصطفافٍ...
شجنٌ يومئُ بطرفِ جهةِ النّار
ويشتطُ.. يشتطُ
... حتى يُحيلني إلى غابةٍ

xxx

وإني لا احتملُ بعضَ غناء
يكادُ منهُ ينخلعُ جلدِي كُلّهُ فرطَ الرّعشات
وقلبي، آه عليه
قلبي ينتفضُ مثل عُصفور حاصرَهُ المطرُ
ما أفعلُ بروحٍ طريّة مثل هذه في مُجابهةِ كيدِ المُوسيقى الكلماتِ والأصواتِ اللّدنة كأعنفُ ما يكُونُ
آه لكم أنا وحيدٌ وكُلُّ هذا العُنفُ يتصدّى لي
انقذني - باللّه عليكَ - أيها العالمُ الميّتُ.

xxx

طوّقني أيُّهَا النّومَ بهُدُوئك المُراوغ.

xxx

يا لحزني عليك أيّتُهَا البلاد التي لم يعرفْ بنُوك أنّك طاهرةٌ لم تُدنّسهَا مهاراتُ الموائدِ القذرة.

xxx

يا ربّاه إلى متى نظلُّ نبحثُ عن وطن؟

xxx

من أخذَ الخاتمَ من أصبع القَتيل، وألبسَهُ لقتيلٍ أخرَ
هكذا ببساطةٍ... ثُمّ انتحرَ؟

xxx

ذاهبُونَ إلى حتُوفنَا لا محالةَ بأقدامٍ من عزائمَ ماضية.

xxx

كأسٌ آخرُ من الدّم ويظُنُّ القاتلُ أنّهُ القتيلُ

xxx

نَشيجُ الخجل... تخجلُ المرآةُ أن تقرأك
يخجلُ اللّيلُ من نسياناتك الدّقيقة
يخجلُ الشّجرُ أنْ يظلك
يخجلُ النّهرُ أنْ يغمُرَ جسدك
تخجلُ الرّياح أنْ تتصفّحك
يخجلُ الطّيرُ أنْ يُغرّدَ لأذنيك
يخجلُ النّشيدُ أنْ تتصفّحَ كلماتَه
تخجلُ القديسة أنْ تقبلك
يخجلُ الخطو أنْ يحملك
يخجلُ الشّارعُ أنْ يراك
تخجلُ أمّك أنْ تضُمّك.

## عائشة حسن الشيخ - السودان

يا إلهي...

الشعر الذي الغى المسافة بين الأزمنة والمسافات ليلمس تاريخ فوضى العنف في بواطن حداثة المحو..

ويستعيض عن المعنى المغلق بفعل لغوي ايمائي مفتوح..

(اضرب مسافتك في عامل الزمن وخذ نصيبك كاملاً من الانحناء لالتقاط هوامش غير مقروءة).

ارتكز الشاعر بنية جمالية متكاملة العناصر على الرغم من فداحة الأحداث تحاور الروح والطبيعة وهي تنفذ إلى المعنى قبل الوصول إليه في استعادة الوطن المفقود.. (لا يقطع الشجر روحه مجدداً بعد أن استوى مدخلاً.. يقع مرات كثيرة إلى الأمام ويقف حين يذكرونه بالغياب على أقدام بلا جذور.. يقف الباب وليد الحطاب وسفن الدخول وغلاف الدار.. لا تسأل الباب.. كن له إجابته المسددة.. حين يذوب مقبضه لأحاسيسك.. وأنت تدلف خلاله كن الباب).. إنه جمال العنف الذي صاحب الشباب وثورته المجيدة...َمفردات نثرها الشاعر بكامل المعنى وطناً وأرضاً ومقاومة وخلاصاً فادح الأرواح...

(كل عابر نقطة في المخيلة.. أشهر سلاحك ايها الظلام.. لا تدخر وسعك لقتلي...)، والطالع من باطن اللغة.. السحق، الدحر، الاستطفاف، عدمية احتمال الغناء، انخلاع الجلد من هول ما جرى، التدثر بالنوم هروباً ومراوغة من محزنة الوطن في البحث عنه. وأسئلة هي فاضحة المعاني وأكثر إجابة من إجابتها... من أخذ الخاتم من يد القتيل وإلباسه لقتيل آخر...

نجد الإيقاع لهذه القصيدة الفارهة المنثورة والفارعة في معنى قائم.. في تشظي المعنى ومنسحب الحضور في تناثر.. ولا فرصة للغموض... إذن هو الإبداع يا صديقي الذي يترك ظلاله على السياسي أو على الغيري/ الذاتي.. يتجاوز المشخص ويحوله الشاعر بفضول النص المتعطش إلى موضوع متعدد الدلالات..

امتداد العنف في ثقافة المسكوت عنه وظلاله الظليمة في خنجر خاصرة التغيير.. وكأن الشاعر أراد أن يكشف عما في جزيئات النور التي ترى بالبصيرة وتفضح أسرار المجهول في... مفردة الخجل التي تلتقي عند أقصى المرات المضمرة في خطابها..

ليرفو ما تمزق من حافتها وثقب نسيجها في بطولة منعزلة عن واقعها ومتصلة بجمرة جلد الذات وضيق الصدر وضراوة الفتك الروحي الذي تم في المجزرة وما أفرزه من كآبة وحزن وقتامة روحية قابضة على حرية جذوة الإبداع في انكماش كل البيئة المحيطة.. وهنا في جمالية ينشج المبدع..

(نَشيجُ الخجل
تخجلُ المرآةُ أن تقرأك
يخجلُ اللّيلُ من نسياناتك الدّقيقةَ
يخجلُ الشّجرُ أنّ يظلك
يخجلُ النّهرُ أنْ يغمُرَ جسدك
تخجلُ الرّياح أنْ تتصفّحك
يخجلُ الطّيرُ أنْ يُغرّدَ لأذنيك
يخجلُ النّشيدُ أنْ تتصفَّحَ كلماتهُ
تخجلُ القديسة أنّ تقبلك
يخجلُ الخطو أنْ يحملك
يخجلُ الشّارعُ أنْ يراك
تخجلُ أمّك أنْ تضُمّك).

هنا نجد الانهيار المفاجئ بفعل اللمعة الذهنية الجالدة. بفعل بركان الذهن الخاطف.. السيول الجارفة لصفاء النفوس. هو انهيار الحياة البانية لذاتها لتهدم أسواراً قديمة لأن كنزاً ممسوساً من الإبداع يرقد تحت قشرتها وبهذا الكنز سوف لا يعاد تعمير الأسوار وحدها بل سيعمر نوراً في أعماق الروح وفي وعاء الثورة ورحاب التجربة. وحينها يشتد القصف والعصف الذهني في العملية الخلاقة... وهو وحده القادر على انتزاع الخوف والاسي القائم الذي تولى الكل في هذه الكارثة. وجعل الشاعر يرسل ضوء نفسه الواهن بسبب الحزن.. فينعكس في هذه المرايا احتشاداً متنافراً ومتناسقاً في تركيب المعنى ليبوح بفكره ليروض النفس في مواجهة الواقع.. وفاءً لعاطفة انسانية متقدة للإنسان والوطن والمتعة في مصدة ومصعدة لعناصر الجمال.





# طقوس المكان وتجلياته في رائحة الخريف لبثينة خضر مكي

## «للمطر في سماوات السودان، نداءٌ غامض، يهز أقطار الروح».



محمد عطية محمود - مصر

في «رائحة الخريف» ثمة تعانق بين المكان كجغرافيا لها أبعادها التاريخية والنفسية وموروثها الاجتماعي والثقافي، وتجلياته الدالة على الحياة الخاصة للفرد ومن ثم مجتمعه، وطقوسها المتشعبة المتوارثة والمستحدثة على حد السواء، حيث تؤسس هنا علاقة قوية بين البيئة المحيطة بالعمل الإبداعي على نحو من الالتصاق والاندماج، وهي التي تلعب في المقابل على محور رصد المتغير الثقافي أو النمطي لحياة المجتمع.

تلك التجليات التي تعطي مذاقاً مختلفاً لإبراز صورة من صور الالتحام بين عوامل التأثير والتأثر يلعب فيها المكان دوراً فاعلاً، فلا ينفصل المضمون الواقعي للسرد القصصي، عن تلك الإحداثيات التي يفرضها المكان، بشخوصه المرتبطين به سلباً وإيجاباً، أو بما تسوقه هذه الأحداث من مفارقات وتوازيات وجنوح نحو تحقيق قيمة فكرية أو نفسية أو اجتماعية تصب حتما في معين هذا المعترك الحياتي/ السردي/ النفسي الشفيف الذي ربما أرّخ لحياة جديدة وطقوس جديدة مخالفة أو متفقة مع الطقوس والإحداثيات القديمة للمكان ذاته، والتي تتمحور حول مدى ارتباط الفرد بمجتمعه المعيش، وشجونه وأناته، في مواجهة كل تيارات الحياة ومستحدثاتها المناوئة سواء كان الفرد نموذجاً ذكورياً أو نموذجاً أنثوياً، ومن ثم علاقته بوطنه، سواء على المستوى الجغرافي بالارتباط بالمكان، أو التاريخ كارتباط بالجذور والتراث، أو ارتباطاً بالمفهوم الإنساني ككل، وبحيث تطرح النماذج القصصية التي تستمد مقوماتها من تلك العناصر، إشكالياتها المطلة على محاور المكان وتجلياته عبر تلك الحقب الزمانية المتفاوتة التي لا ينفصل فيها عنصرا الزمان والمكان المرتبطين ليعطيا حسياً بانورامياً بديمومة العلاقة بينهما كطرفين لمعادلة الحياة والوجود، وحيث يعطي متن العنوان كعتبة نصية دالة على التعانق بين عنصري الرائحة والزمان في متن الخريف، اتكاءً على تضفير الزمان وقتما كان، مع عناصر أخرى من عناصر الحياة والوجود دلالة على انصرام جزء من الزمن أو تحرك حقبة زمانية لتتحول إلى رائحة وذكرى ومن ثم مؤثر من مؤثرات الزمان المتفاوتة والمتعاقبة على الحس الإنساني الشفيف، وعلى المكان المتعاقب عليه عنصر الزمان بدوراته، كما سيتضح لنا، مع سبر غور النص الذي يجمل كاهل العنوان الرئيس ذاته..

موروثات ومعتقدات وطقوس:

تتكئ الكاتبة في نص «ليلة الختان» على رصد التفاصيل الدالة على الاحتفاء بالمكان الخاص/ الدار؛ للدخول في حالة استثنائية من الفرح المرتجى، كطقوس تضرب في الموروث الخاص بتلك البيئة في الاحتفاء بالأعراس والموالد والأعياد، وما إلى ذلك من مظاهر الحياة الخاصة والعامة، والتي تتضامن هنا إلى حد كبير مع موروث عملية الختان التي ستجرى للفتاة الصغيرة، كتمهيد، وكجزء من هذه المنظومة الحياتية المائزة.

«اقتيدت البقرة من مكانها وقد تغير مربطها إلى موقع أبعد من الحوش الأمامي واستغرقت نظافة المكان وقتاً وجهداً يماثل طلاء الحجرة والأبواب، وأخذ الصبيان الذين قاموا بعملية تغيير مربط البقرة ونظافة مكانها القديم وردمه بالرمال الصفراء الناعمة ثم رش المكان عن طريق نقل الماء بالجرادل و(الطشوت) والأواني البلاستيكية المختلفة» ص١٦.

ثم تنطلق منها إلى حيز رصد معالم الدار الداخلية التي تمثل نواة لملامح المجتمع السوداني ذات الخصوصية البدائية التي تضرب في أغواره، لتكمل الصورة التي تؤصل الحياة لمحاور ينفصل فيها العنصر النسوي عن العنصر الذكوري بأسيجة وحواجز تجعل المجتمع/ المكان منفصلاً عن ذاته، ربما بوازع من تقاليده المتوارثة، أو إمعاناً في سلطة ذكورية تمتلك زمام الأمور، وتقودها نحو غايات مسبقة التحديد، والتي قد تبدو حتى في التفرقة بين باب الرجال، وباب النساء، كدلالة من دلالات مفردات المكان، وإسقاطها على الذات البشرية المعايشة له ولطقوسه.

«ديوان الرجال يطل على حوش أمامي، منفصل، له باب حديد أخضر يؤدي إلى الشارع. الباب في العادة يستخدمه الرجال والضيوف. هناك أيضا باب حديد لآخر يستخدمه أهل البيت والنساء، أخضر اللون لكنه أقل جمالاً» ص١٧.

تسهم مفردات الصورة الواقعية في رسم الجو العام الذي يؤطر المكان، ومن ثم تظهر بعض طقوسه وملامح البيت السوداني البسيط، كخلفية لهذا العرس، والجو العام/ الخاص الذي يحيط بالفتاة التي تتقابل مع مشاعر وجودها في هذا الحيز، وهذه الحالة من اللا توازن، ومن ثم الدخول في تجربة مع/ ضد إنسانية وجودها، تُقتاد إليها، كما اقتيدت البقرة في هذا المقطع، ولعلها من اللفتات الذكية للتعامل مع مفردات الحياة ومحاولة تكريسها لأداء وظيفية إحالية/ إشارية، للتماهي بين الإنسان المتمثل في البنت، والحيوان المتمثل في البقرة التي من المفترض ذبحها، كدور رئيسي فاعل في استمرار مسيرة الحياة، ومن قبل وظيفتها



كمصدر من مصادر الغذاء والتنمية في المجتمع، وذلك بفعل التقاليد والموروث القبلي المبرر لعملية ختان الإناث من خلال تفاصيل أخرى، هي تفاصيل تجميل الفتاة، وتجهيزها لعرسها الصغير، كطقوس الأفراح أو الاحتفاءات التي تنقل الفتاة/ مجتمعها إلى حالة بلوغ ورشاد، لها مبرراتها الموروثة عقيدياً واجتماعياً:

«في يوم الاثنين خضعت فوزية لعمليات تجميل كثيرة، وكأنها عروس في ليلة جلوتها.. دخلت معها خالتها بتول في غرفة الاستحمام، بعد أن أدخلت إليها الطشت وجردل الزنك المملوء بالماء، وقطعة من الصابون المعطر وليفة كبيرة قطعتها من شجرة الليف الخضراء المتدلية على سطح الراكوبة، قامت خالتها بغسل شعرها ودعك جسدها بالليفة والصابونة المعطرة وتركتها تستحم وتغسل أعضاء جسدها» ص١٩/ ٢٠.

تطل مفردات البيئة الدالة على تميزها، والتي لا تنفصل عن وعي الطفلة التي صارت امرأة تملك ذاكرة من القهر لا تنمحي، هي ذاكرة مجتمعها، وذاكرة تاريخها/ تاريخه تترك أثراً فاعلاً في تأطير الحالة الخارجة من رحم معتقدات ترجمها حقائق ونتائج عكسية، تميط بها اللثام عن أخطاء شائعة ربما ضربت في صميم مجتمع أكبر وأشمل، ربما جاهدت رموزه الجديدة في سبيل حل مشكلة من مشاكل وجوده، تتعلق بحق الأنثى/ الإنسان في الخروج من غيبوبة قد تصيب المجتمع كله، وتماس مع غيبوبة البنت حال إجراء عملية الختان لها والتي يطرح النص أثرها، اتكاءً على مشاعر الأنثى المجهضة في مجتمع قد لا يعترف أحيان كثيرة بحقها وأدميتها:

«ذلك النزيف.. ودماؤها حارة تتدفق مثل نهر الدميرة وتفيض من بين فخذيها الهزيلين، صراخها الهستيري، اختلاجات جسدها المتشنج ولغط النسوة وصوت والدتها تعلو بالنواح والغيبوبة التي لم تفق منها إلا في صباح اليوم التالي وهي ترقد في مستشفى شندي الحكومي. وجه أمها يتلصص على آلامها وغيبوبتها المتقطعة» ص٢١.

وحيث يطفو نهر الدميرة، المعبر عن المكان/ الوطن، كمشبه به لحركة الدماء النازفة من الفتاة - ارتباطاً منها بالمكان، والتي تراق على مذبح التقاليد والأعراف التي يدعو النص إلى مواجهتها ومن ثم التغلب عليها، وكملمح من ملامح المكان المنتشرة على مدار النصوص.

وفي نص «قبر الولي» يبدو المكان الأرحب دالاً على الوقوع في فخ غيبيات قد يسوقها النسق العقيدي الديني الموروث، باختلاطه مع الواقع الشعبي، ليثير حالة من حالات التحول التي يشهدها المجتمع عبر عنصري الزمان والاغتراب عن المكان، الذي يدفع بشخصية النص «مختار» للاستثمار في بلده ذي الطبيعة الخاصة، بعد اغترابه وعمله بالخارج؛ ليصطدم بمفردات تلك الطبيعة والموروث الرافضين للتشويه والدخول في مرحلة من مراحل التحول والتغيير وتحويل المسار التي قد لا تفيد هذا النسق من أنساق المجتمعات المحتفظة ببكاراتها، والتي تتنافى مع المفهوم السائد لتلك البيئة:

«رسا عليه المزاد، لأنه دفع أعلى سعر، وتحصّل على قطعة الأرض المخططة لإنشاء محطة وقود، في وسط مدينة الخرطوم في موقع يعتبر حقيقةً، ملتقى طرق رئيسية. اندهش تماماً عند معاينته للموقع، نصف المكان، كان ضريحاً لأحد الأولياء، وبجانبه شجرة نخيل باسقة. قال له حارس الضريح أن النخلة، غرستها، امرأة وقور، جاءت ذات يوم في الزمان البعيد، من حيث لا يعرف أحد، تركب جملاً أصهب، وتحمل فسيلتها، داخل لفافة ضخمة من الخيش المبلول بالماء» ص٢٦.

وحيث تبرز النخلة كمرادف من مفردات الحياة البدائي البكر، والتي تميز هذه البقعة من الأرض، وكمعادل للأصالة والارتباط بالأرض، والموروث الديني الذي يعظم من شأنها كدلالة بالغة ومؤثرة على وجود الحياة، والتي يعلي من شأنها الحديث الشريف: (إنْ قَامَتْ السّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتّى يَغْرِسَهَا؛ فَلْيَغْرِسْها).

«استمر الحفر لمدة طويلة دون جدوى.. حفر عمال الشركة الهندسية المكان طولاً وعرضاً وعلى عمق كبير من الأرض ولكن ولدهشة الجميع لم يكن هناك أي أثر لجثمان مدفون» ص٢٨.

وهي المفارقة التي يبرزها النص في تجلي صورة من صور الارتباط الديني بكرامات الأولياء التي تحفر مجراها في خارطة الوعي الشعبي والعقيدي، بهذا التجلي العكسي بالهروب أو اختفاء أثر الولي المدفون في تلك الأرض محل التنقيب، ومشروع العمل الاستثماري الجديد، وهو ربما كان دالاً على عمق الارتباط بالأسطورة أو الحكاية المقدسة وتأثيرها على ذاك الوعي المتجذر من خلال الارتباط الضمني بين المكان ومحل القداسة «قبر الولي»، كمعنى يتوارى في مظاهر التبجيل والتعظيم، والتحام المشاعر والأحاسيس وارتقاءها وارتباطها برابط غيبي يربط هؤلاء الناس بالمكان معنىً وتصريحاً، إيغالاً في هذا الاعتقاد الراسخ الذي ربما تأرجحت صورته في هذه المشاهد بين الثبوت والزوال الدالين على حال الأسطورة ما بين اليقين والشك.

«عاد العمال للعمل في تجهيز محطة الوقود، وتفرق المريدون وهم لا يصدقون ما حدث، بل أن بعضهم ذهب بنفسه وأصر أن ينظر في كل المواقع ليتأكد من خلوها من الجثمان» ص٢٩.

وهو ما قد يؤدي إلى استنباط التأثير الدال على غضب المكان أو ثورته الفاعلة التي تتضامن مع ذلك الموروث في كونه عنصر مقاومة لما يعترض الطبيعة البكر والعقيدية المتوارثة ورمزيها المتواليين: النخلة وضريح الولي، ليكون الصراع بين الطرفين غير متكافيء بالمرة، ولكن لصالح الطبيعة/ المكان المستأثر بخصائصه؛ فالنتائج تشير إلى ضياع كل شيء في المشروع الذي يتبنى صيغة التحول من المجتمع البدائي البكر إلى ذلك التغيير الشائه المخالف الاستهلاكي باقتصاديته وتجاريته، بثورته بمصرع «مختار» ابن الأرض/ الوافد إليها من الغربة/ صاحب المشروع، وانهيار هذا الحلم/ الحفل، تماماً في نهاية دالة للنص تنتصر للطبيعة/ المكان الذي فرض تجلياته:

«كان حريقاً عاتياً، مدمراً، وامتدت ألسنة اللهب إلى عنان السماء، مما أدى إلى تحويل محطة الوقود بأكملها، وكل السيارات التي كانت واقفة لتملأ خزانات وقودها منها، إلى رماد وأشلاء متفحمة، بعد أن فشلت كل محاولات قوات المطافئ في إخمادها» ص٣٢.

في النموذجين السابقين تواجه الكاتبة مجتمعها من زاوية تراثية تجمع بين الخرافة/ الغيبيات/ المعتقد المتوارث بطقوسه؛ فالنص الأول يشير إلى بنية داخلية للمجتمع مسكوت عنها، لكنها مؤثرة في داخله انطلاقاً من المكان الخاص/ الدار/ نواة المجتمع، إلى المعنى المتواري والملتبس/ السري، المفتوح على المكان العام كسمة/ طقس من طقوسه المتوارثة، بغض النظر عن صحتها من نقيضه، سواء من الناحية النفسية الصحية، أو العقائدية التي قد تكون مغلوطة..

بينما يتجه النص الثاني نحو إعادة تأصيل مفهوم عقيدي شعبي





خالص يتكيء على الغيبيات، ويحاول ترسيخ مفهوم الارتباط العقيدي بين المكان وعنصري الزمن وما يتبعه من التحول في بنية المجتمع الذي يأبى بطبيعته التأقلم مع مستجدات/ تحولات الواقع الذي تمثله العملية الاقتصادية/ الربحية التي تسم تحولات الزمن وتقدمه على أرض الواقع بمحاولة تحويل كل شيء طبيعي إلى مادي مستهلك، بغض النظر عن ماهية الارتباط بالقديم/ الجذور/ الموروث الثابت على أرض الواقع..

رائحة الخريف، رائحة المكان:

في نص المجموعة الرئيس «رائحة الخريف» يتجلى المكان بصورة أخرى، قد تكون مغايرة، ولكنها مرتبطة حتماً بالجو العام الذي ترسمه الشخصية الرئيسة للنص/ العجوز، بمشهدية دالة على حركة الكون في المكان شديد الخصوصية، وفي زمان محدد بفترة الخريف، سواء كان خريف العمر، أو خريف المكان أو الفترة الزمنية الذي يؤطر المكان بمفرداته، وسماته تلك التي تعطي للحالة النصية هذا الزخم، وهذه الخلفية النفسية التي تتعلق بأجواء الخريف: معنى، والتصاقاً بالمكان ذاته، من حيث طبيعته المغايرة أو العازفة على وتر آخر من أوتار الحياة، وهو ما تصرح به الشخصية متكئة على فضاء مدينتها في خريفها/ خريفهما المشترك، في محاولة للتصالح مع المكان/ الطبيعة التي تنحو منحىً بعيداً عن آمال الشخصية وطموحاتها في مجرد حياة هادئة مستقرة، لكن الصورة هنا ترسم هذا الصراع مع الطبيعة من خلال المكان أيضاً:

«وقفت في صبر، تعجبت منه، وسط الفناء، ذرات التراب الناعمة تنهال على أذنيّ وأنفي وعيوني وغطاء شعري.. أقول لنفسي في نزق: لابد من الاستمتاع بعناصر الطبيعة كلها.. لم يعد في العمر سعة للاستمتاع بمباهج أخرى، مناطق البهجة والمتعة واغتراف اللذة شحيحة جدا، وتكاد تنعدم، في مدينة الخرطوم وليس أمامي غير عناصر الطبيعة أتصالح معها مهما كانت قسوتها، فقد يكون في ذلك ما يذهب بتوتر النفس وأحزانها» ص٦٨.

ولكن الحالات التي يسوقها النص تتأرجح بين ما هو مادي مغرق في تفاصيل حياتية ملموسة، لكنها مرتبطة بتاريخ/ تراث/ سيرة شخصية تمضي في العمر، عبر المكان/ الوطن/ الخرطوم الذي يمثل عمق العلاقة مع تلك المفردات الاستثنائية التي تشكل لحظات فارقة لعلاقة الفرد بالمكان/ الوطن، بالحقبة الزمنية التي يعيشها، ومع ما هو مادي روحاني في ذات الآن تتعانق فيه المشاعر مع الطبيعة مع الروح في صورة تلاحم وجدانية:

«للمطر في سماوات السودان، نداء غامض يهز أقطار الروح.. صوت الرعد يدوي، قوياً.. يتمشى الهوينى بين السحب الكثيفة الملبدة بالخصوبة والنماء.. يتدرج عنيفاً في صوت هادر.. ويسيل فوق كتل الأرض البكر.. تلتحم ذرات التربة الطينية ببعضها البعض، وتتقارب، بعد طول فرقة وتشقق. ذرات الطمي المبذولة وعداً، يلثم بعضها البعض حين يجيئها البرق في لمعان يأخذ بمجامع القلوب» ص٧١.

مع ما تثيره هذه الآمال من ذكرى لحبيب طال بعده، تتسق حكاياته/ ذكرياته، آمال عودته، مع الأمل المتواري بداخل النفس، بعودة الحياة، بمعانقة المكان، بالارتباط بالأرض، وما تحبل به من خير مادي ومعنوي، يتجلى في الرغبة في الإخصاب والإنبات والإشراق من جديد، وهو ملمح أيضا يجنح إلى صوفية المعنى بالارتباط الوثيق بالروح التي تعتلج بها المشاعر وتفور ارتباطا بمكان/ وطن/ حبيب غادر إلى بعيد، لم تحدد اتجاه بعده الكاتبة/ النص، وارتباطاً بمعنى الاستمرار في الحياة على أرضه، وتجليات وجوده..

يتنقل السرد عبر المكان المفتوح على الأفق بآماله وطموحاته، إلى حيث العودة إلى المكان الخاص، أو الانكماش الذي يعود بالنفس إلى طقوسها المعتادة حيث المنزل مأوى بعد سياحة المشاعر والأحاسيس التواقة للعودة للحياة، ولو في خريفها المادي أو المعنوي على حد السواء، مع سعي الأقدام المخذولة للعجوز، والتي تعود بها حذرة من الانزلاق في طرقات المكان المتسع، إلى البيت، وبحيث لا يتخلى السرد عن الاستعانة بمفردات الطبيعة الدالة على المكان، والتي تبرز في التشبيه أو الاتكاء على دلالة التمر المسوس الهش الذي يمثل في عنفوانه قمة نضج الثمرة الناتجة عن شجرة/ نخلة ترمز في الأصل للإخصاب والنماء، ولكن الكاتبة لعبت على الجانب المعطوب من الثمار أو الذي نخره السوس، كإسقاط على حال الشخصية التي تماهت مع الثمرة المنخورة، لتحل الثمرة المسوِّسة هنا، محل العجوز على مستوى الدلالة المجازية للتعبير:

«تحسست الطريق بقدمين ضعيفتين وأنا أستند على الجدار القريب وظللت أحبو، بأصابعي، على الحائط، معتمدة عليه في وهن. صعدت درجات السلم الداخلي في بيطء. دخلت غرفتي وأنا أرتجف، وبوادر الخريف تتناوب الطرق على مفاصل عظامي التي أصبحت في هشاشة التمر المسوس» ص٧٢.

في النماذج السابقة تعتمد الكاتبة سرد الحكي بمنظومته التي تتجه نحو سرد الحالة بخطها الزمني المتوالي الذي يطرح كامل أبعادها التقليدية ليصير النص وحدة زمنية متحركة تحركاً خطياً لا تعترضه حركة الارتباط بالمكان، حيث المكان ثابت ومحدد، ومؤطر لكل الأحداث التي تسردها الكاتبة بمنطق الحكاية، اللهم إلا بعض التنقلات التي يأتي بها السرد بالعودة إلى الماضي بتقنية الفلاش باك، التي لا تظهر كثيراً في متن تلك النماذج السردية للمجموعة، والتي ربما بدت على استحياء في نص «رائحة الخريف»، وإن لم تأت صراحة لولوجها متن النص عبر بوح الساردة، وحالات تعانقها مع الطبيعة.

شعرية الصورة، وظلال المكان:

في حين تتجه الكاتبة نحو التعامل مع نموذج قصصي قصير نسبيا يختزل التجربة الشعورية للأنثى، كما يختزل العملية السردية إلى حد بعيد، اقتراباً من المفهوم المتجدد للسرد الذي يدخل غمار المراوغة بين النص الشعري والقصصي، في نموذجي «كبرياء الفقر»، و«وجه القمر الحزين»، كنموذجين يطرحان قضية وجود المرأة/ الأنثى في ظل المكان أيضاً، حيث تمتد الروح الأنثوية في متن تلك النصوص لتعانق المكان، ولكن بظلاله، وبعض المفردات الدالة على خصوصيته، وإن كانت في المطلق، والتي تتضافر مع تلك الظلال والإحالات إلى المكان كمتكأ/ خلفية/ أرض/ وطن تسعى عليها الشخصية المأزومة بشجونها وأتراحها، التي ترتبط بالحاضر/ الواقع بوشائج وجودها في متنه، وبكينونة وجودها التي تقاوم الفناء؛ ففي نص «كبرياء الفقر» تستهل الكاتبة النص ببداية مشهدية تصويرية تلتحم مباشرة بشجون الشخصية:

«نجمة واحدة بقيت في السماء الصافية. فاجأها اندثار الليل وانتشار ضوء خجول على صفحة الفجر. لكنها تعشق الليل والسكون الهامد، وارتعاش الظلمة عند حد شفرات ضوء الصباح. صوت الديك يجلجل في أذنيها قاطعا غناء قمرية بعيدة تستعد للانطلاق من عشها فوق شجرة

المانجو الضخمة» ص١٤٥.

تتظاهر هنا ملامح المكان من خلال ظلاله ومفرداته الدالة على التوحد في إحالة رمز النجمة الواحدة على الشخصية المتوحدة بذاتها، وبمحاولة الالتحام مع مظاهر الطبيعة التي تحيط بالمكان الذي يطبع في ذهنها بصورة مغايرة، في رصد النص لها على الصورة التي تبدو فيها معاناتها، مع المكان الذي يضن عليها بحياة مستقرة، على نحو الصور المشهدية المتتالية:

- غسلت وشاحها ونفضته كأنها تنفض عنها أدران المدينة الظالمة، توالت النهارات وهي تجول الشوارع. تمشي. تتعثر في مشيتها، وهي تحجل مندهشة، تغرق عينيها في حمأة المدنية الزائفة.
- مركب صيد يخترق غمار الموج، ذيول بيضاء تفور وتفور، رشاش الموج يغسل صدرها ووجهها وساعديها، فتتوثب روحها.
- آه من مشيتها الوجلة الموغلة في جمال الفقر، وكبريائه المتأصل في كبرياء البائعات.

تبدو وحدة النص هنا على نحو جمالي متصل وملتصق بمفردات الطبيعة والمكان الرافض لهذه البائعة التي يتقابل فيها عنصرا الكبرياء والفقر ذلك المرض الإنساني الذي تختزل فيه كل عيوب البشرية ونواقصهم، وحاجتهم الملحة في الخروج من بوتقته الخانقة، وحركات الأنثى الدالة، وبحيث تعطي الإشارات المكثفة من النص، هذا الوميض الكاشف لما يعتلج في صدر المسرود عنها/ المرأة البائعة التي يعرض النص أزمتها على نحو من الشاعرية والشفافية قد لا تتسق مع جفاف معيشتها وانسحابها في دائرة المهمشين حول متن المجتمع الذي يتلصص عليها وعلى جمالها الفاتن برغم الفقر، ولكنها قد تمثل عملية تحليق شاعري مجازي تحاول أن تستعيض بها عن هذه الحالة من الفقر المشرد، وهي المقابلة التي يلعب عليها النص لإبراز جمالية القبح المتواري في مفردات المكان، والسمات الخارجية للشخصية التي ترزح تحت نيرها ظلم المجتمع/ المكان لها، ولما تمثله من شريحة خاصة بعنصرها النسائي، متسعة على شريحة أكبر من المقهورين بظلم طبيعة المكان/ المجتمع لهم، ومن ثم تتلون الحياة لديهم بلون المرض، دلالة على المرض المعنوي الذي ينتاب مجتمعها/ بيئتها/ ظلال المكان:

«وهن يتجولن في فخر زائف، ولا يعرفن من الحياة سوى لون واحد. ماسخ. لون أبيض شاحب بلون المرض، والمستشفى وملاءاته القذرة وحوائطه المبقعة المقشورة الطلاء» ص١٤٦.

هنا يبدو فضاء جديد من فضاءات المكان، الذي يرمز إلى الوقوع في المرض، وهو المستشفى، كنتيجة حتمية للفقر، وكإحالة على حال المجتمع، الذي يتكيء على المكان، الذي حال لونه هو ذاته إلى الأصفر الباهت المتساقط.

تتسق البداية الاستهلالية لنص «وجه القمر الحزين» مع هذا النسق النصي الذي يمهد بالصورة والمشهدية، عملية الولوج إلى النص، بالانفتاح على فضاء آخر من فضاءات تشكيل النصوص، ومن خلال السماء أيضاً التي ترتقي إليها أعين الناظرين، ربما للتطلع نحو سمو العلاقة بالكون، ومن خلال أيضاً الالتحام بين المشاعر الإنسانية ومفردات الكون:

«قمر يمتح الضوء رهيفاً في ظلمة سماء الخرطوم، وجه القمر حزين، مثقل، يلاوح الفرح المنسي في بواطن نفسها وتتذكر كيف كانت في طفولتها تستقبل ضوء القمر. بنت بيتها من بقايا مواد البناء؟ ومخلفات العمارات العالية التي يسرقها الخفراء، ويبيعونها أمثالها في غفلة من أصحاب القصور المسافرين إلى مدن الترف الساحلية» ص١٤٩.

ينتقل السرد هنا من التحليق في فضاء المكان/ سماء الخرطوم، واستحضار الذكرى الدال على مرور عنصر الزمن بحقبه وعقوده على وعي الشخصية، وتسربه في ذات الآن، إلى المكان الخاص وهو البيت/ الكوخ المغتصب من بين براثن الحياة وبقايا حياة المترفين، كمفارقة بين ما تحلق به الشخصية عالياً كأمل، وما تتكيء عليه من أرض/ مكان تقع المقابلة بينه وبين القصور الفارهة التي تقابله في جغرافيا المكان التي تجمع بين الغث والسمين والفقير والغني، لتكتمل صورة التضاد في شريحة من الشرائح التي تظلل المجتمع، والتي تتباين فيها المستويات وتتباعد لتخلق حالة من الازدراء المتبادل بين الأفراد والجماعات:

«تلصق ظهرها بحبال العنقريب المنهكة الخشنة، وهي تلمح سيدة القصر المقابل لكوخها الفقير. تضطهد وجودها إلى جوارها» ص١٤٩.

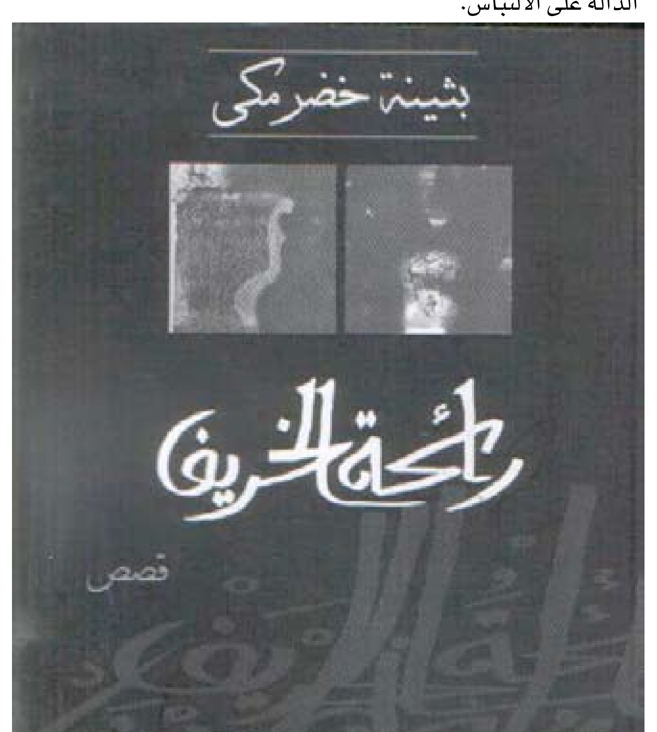
لتنشا هذه العلاقة غير المتكافئة على أرض واقع يجمع بين الضدين: الوجه الشائه الفقير، والوجه الباهي الثري أو الذي يملك مقومات الحياة على هذه الأرض، لتشكل سمة من سمات المكان، ليطرح النص سؤاله:

«ماذا تريد سيدة القصر من القمر. هذه السيدة السمينة المترفة؟ حتى الدعوات يريد الأغنياء احتكارها لأنفسهم واقتسامها مع الفقراء البائس» ص١٥٠.

لتعود الكاتبة لتتكئ على بداية النص، لتضع بها نهاية تعطيه سمة الدوران حول محور واحد والعودة إلى حيث بدأ، لبيان ديمومة هذه الحالة من التحليق والتي تتوازى معها ديمومة العلاقة الخشنة الجافة بين المتصارعين الأضداد على الحياة، والتي تتسق مع خشونة المشاعر، وخشونة المكان على حد السواء:

«وهي تراقب القمر يتمشى بين السحاب حزيناً يمتح الضوء رهيفا في ظلمة سماء الخرطوم».

والتي تنسحب بدورها على العلاقة بين الشخصية والمكان الذي يلوح بظلال علاقته بالطبيعة التي تنحصر في لون الظلمة لتشكل صورة من صور المكان، في وعي شخصياته المأزومة التي لا ترى من الألوان إلا الأصفر والأسود، من ألوان الحياة التي يفرضها المكان، وظلاله وتجلياته الدالة على الالتباس.



# توحّد الوجود وتحقّق الحلم بين ثنايا انفلاتات السّرد (٣/٣)

## قراءة في رواية

# «الرحلة ٧٩٧ المتّجهة إلى فيينا»

# لطارق الطيّب


**نجاح عز الدين - تونس**

(أستاذة اللغة والآداب والحضارة العربية، وباحثة أكاديمية لنيل درجة الدكتوراه)




• آفاق الرحلة.

إذا كان هذا حال واقع المجتمعات الشرقيّة فما الحلّ؟ الحلّ هو – التّفاؤل والاستمتاع بالحلم في الحاضر واستشراف الأمل وإعلاء شأن العقل وإعادة الاعتبار للحب والجنس والفن والجمال.

نصّ (الرحلة) نصّ استثنائي لأنّ التّفاؤل يغذّيه والأمل ينعشه، فالمرأة كلّما تلبّدت سماء واقعها وتكاثفت سحب حياتها اشرأبّ عنقها إلى الغيث المطهّر. وليلى ،حقّقت ما أرادت وما كانت تصبو إليه بعد ما تصالحت مع ذاتها ووفت لأعماقها الدّفينة، فانتصرت على عقلية مجتمعها المتعفّنة، عندما تيقّنت أنّ الحل بيدها وحدها وليس في يد الرّجل وقد صرّحت نور الشخصية الفاتنة الباحثة عن الانعتاق دوما فقالت مخاطبة آدم «المصيبة أنّ أغلب النّساء عندنا يعتقدن أنّ الحلّ في يد الرجال أنا أراه في يد النّساء هل تصدّقني»/ (ص١٢٤). هذا المجتمع الّذي لا يرنو إلى الشّمس، استطاعت ليلى إلى جانب نور أن تتحرّر وتضيء شموع حياتها وتتخلّص من عذابات السّنين، وقد صرّح السّارد معتبراً أنّ لقاء ليلى بآدم هو تجسيد لأسمى معاني التّحرر، هو الأصل وما قبله هو مجرّد تفاصيل فقال، «هو لقاء مؤجّل منذ بداية البشريّة تعذّب من غيابه الكثيرون، وها هما الآن يربطان حبلاً سرّياً أزليّاً ويصحّحان مساراً مؤجّلاً»/ (ص١٤).

كما لم ينس طارق الطيّب أن يستشرف عالماً مختلفاً يُتشبّث فيه بالحلم والحبّ والجمال ويُستمتع فيه بالحرّية فحمّل الرواية بعدا إجرائياً ولم يجد الكاتب أفضل من شخصيتي آدم وليلى نموذجيْن مجسّديْن لهذا العالم.

لئن مارست ليلى عملية تنقية للرّوح والجسد والقلب وهي تبوح لآدم تارة أو تستسلم لخطاب النّفس طوراً آخر متوسّلة بالاسترجاع فتتطهّر ممّا تلبّسها من عفن السنين وما اختزنته نفسها من إحساس بالعناء وشعور بالتيه فإنّها انتقلت بذاكرتها في المكان والزّمان وباحت بأعماقها ففضحت ازدواجية هذا الرجل الشرقي «بدا ذاك الآخر الّذي كان يظهر لها في السّابق فلا تعرف من منهما أخوها»/ (ص٢٤٩). فطبع حياتها بالخواء والحزن، لقد استطاعت ان تهزم تلك المرأة الضعيفة في داخلها وتواجه ذاتها وتتصالح مع نفسها فنبشت في واقع المرأة الشّرقية المكبّلة بالعقليّة الذكوريّة تلك الّتي اغتصبت حرّيتها وحاكمت تصرّفاتها باسم الدين وباسم الأخلاق أو امتثالاً لوصاية أولياء الأمر ودحرتها في مكان ضيّق قصيّ. وظلّت ليلى وهي تسترجع وقائع وأحداث الماضي تتعقّب واقع الإنسان العربي المختلّ في كلّ مجالات حياته ثمّ قرّرت أن تنتصر على الظلم والكبت وتحيا حياة تستمتع فيها بالحرّية وتستنشق الجمال وتعدو وراء الحبّ تقنصه اقتناصاً، فطلّقت ليلى فاروق «أشهدك يا ربّي، أنّني أطلّق زوجي فاروق طلاقاً بائناً لا رجعة فيه منذ السّاعة وأنّني محرّمة عليه»/ (ص٣١٢).

وغادرت ياسين إلى الأبد بعدما طلّقت العالم القديم معانقة فضاء بلا حدود وبعد أن أدركت المعنى الحقيقي للحرية لا كما تعوّد أن يكرّر زوجها فاروق جملته «أنت حرّة» وهو يرد عليها سخرية ولا مبالاة واستضعافاً واستفزازاً مقيتاً لها كامرأة .أيقنت فعلاً أنّها حرّة وأنّ المرأة هي وحدها المسؤولة عن مصيرها دون وصاية من أحد، فالعيش تحت الوصاية لا يمنح الذّات تطلّعاتها إلى أن تفوق المدى الواقعي للتّطلّع إلى الإنساني وقد نجح هذا السّرد الاسترجاعي في العبور بليلى من مرحلة المكابدة إلى التوق للبعيد الغامض واكتشاف الذّات لحقيقتها فتفطّنت إلى أنّ خوف المرأة فكرة وهميّة مزعومة أفقدتها توازنها وشعورها بالأمان، فالمرأة في حاجة لاقتلاع ثقتها بذاتها حتّى تمتلك طاقة رهيبة من الشّجاعة والجرأة وهكذا قرّرت ليلى أن تنغمس في تجربة حقيقية وأن تبصر لذاتها وتداوي نفسها يقول الإمام علي:

ودواؤك منك وما تبصر ودواؤك فيك وما تشعر

وتحسب أنّك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

إذا كان السّرد الاسترجاعي على لسان ليلى مطية الكاتب ليكتشف عالم الرجل الشّرقي الموجود فيفضح ازدواجيته وتناقضاته في علاقته بالمرأة فإنّه كان على لسان آدم مطيته ليفسح المجال للبناء واستشراف المنشود فيرسم شخصية آدم رسما مختلفا فيجعله يبوح في هذا الاسترجاع لليلى بأسراره فيحدّثها حديثاً خاصّاً حمّله السّارد دلالات لا تحصى ولا تعد فتنبهر ليلى بفكره وتنصت إليه بإعجاب فتقول له: «أسمعك بكلّ كياني، كلامك يغزوني وفكرك يبهرني»/ (ص٣٢٠).

بدت شخصية آدم في هذا السّرد استثنائية بتوازنها وانعتاقها وموسوعيّة ثقافتها متخلّصة من عقد الرّجل الشرقي، متصالحة

مع نفسها لا تحمل حقد ولا نقمة على المرأة ولم يكن اختيار السّارد لشخصية آدم اعتباطياً بقدر ما كان انتقائياً فقد نسجها الكاتب في أحسن صورة يمكن أن يكون عليها الرّجل الشرقي.

ويؤكّد السّارد اختلاف آدم عن أغلب الرجال بالعودة إلى ظروف ولادته ومنذ أن كان نطفة ثمّ جنيناً في بطن أمّه حين مشى بقدمي أمّه على رمل مقدّس وقفت عليه مريم العذراء وقفتها الأولى «وحمّمت ابنها النبيّ عيسى الحمّام الأوّل داخل مصر في هذا المكان... وهذا الرمل الّذي يتحوّل لبياض عجيب بعد المطر، كان ملمسه على أقدامها مريحا راحة الجنّة»/ (ص٢١٥).

فقد خرجت قدما آدم من بطن أمّه قبل رأسه ولم يطلق صوتاً بالبكاء حتّى أعتقد أنّه ولد ميتاً. استغلّ السّارد كلّ الوسائل المتاحة وغير المتاحة ليبرهن أنّ آدم رجل مختلف واستثنائي هو شخصية نموذجية وكأنّه لا سبيل إلى تحقيق التوازن إلاّ بوجود هذا الصنف من الرّجال في الواقع العربي، الّذي يعلي من شأن المرأة ويحترم خصوصياتها وقد أوعز السّارد ذلك إلى طبيعة علاقة آدم بأمّه، فهي الّتي علّمته معنى أن يكون سعيداً حين يعرف كيف يحبّ، ومن عظيم ما باح به لليلى ما قالته له أمّه ذات يوم حين كان صغيراً لم تجاوز الحادية عشرة بعد: «قلب المرأة يا آدم ملك أبدي للحبيب، فيا سعد من أسعد قلبها بقلبه فأزهقت روحه بروحها وليس ضرورياً أن تعيش المرأة عمرها كلّه في سعادة، يكفيها أن تعيش السّعادة الحقّة الصّافية يوماً واحداً فباستطاعتها أن تنسخ هذا اليوم وتعيشه في خيالها آلاف الأيّام دون ملل»/ (ص٢٢٤).

أمّ آدم تمثّل صنفاً من النساء القليلات اللائي يفتقدهنّ هذا المجتمع العربي وقد كانت في الرواية شخصية رمزية حمّلها طارق الطيب عالماً من النّساء ينشده ويصبو إليه، فهي الّتي تربّي الجيل ذكوراً وإناثاً وتؤثّر في مساره ومصيره في الحياة وفي علاقته بالآخرين وخاصة في علاقته بالمرأة تقول سيمون دي بوفوار في هذا السياق: «إنّ المرأة لا تولد إمراة ولكنّها تكون كذلك». أمّ آدم تختلف عن شخصية أم ليلى الخاضعة والسلبية، وآدم يعدّ محظوظاً بين الرجال لأنّه تربّى بين أحضان أمّ لا تجد حرجاً حين تتحدّث عن غرامياتها لابنها وهو في سنّ الحادية عشرة.

ينشد طارق الطيب ككاتب وكمثقف - رافض لسلطة الذكر الّتي تهمّش المرأة - عالماً جديداً تكون فيه المرأة صاحبة قرارها وفاعلة في مصيرها فدعاها إلى أن تخوض حروباً كثيرة ضد هذه السلطة الّتي تحمي شرعيتها بغطاء ديني تارة وبالمرأة نفسها طوراً لأنّها هي الّتي تورث المفاهيم المحنطة والمتخلفة للأجيال من الجنسين.

يرى طارق الطيب أنّ المرأة قادرة أن تواجه هذا الفحل الاجتماعي والفحل السّياسي الّذي رمز له بفاروق وياسين وهشام والخالة محاسن والأخت مها وغيرهم كثيرين، هذه الشخصيات رغم واقعيتها بأسمائها وانتماءاتها وتحرّكها في المكان ووقائع موضوعية وتاريخية فهي في الحقيقة هي شخصيات رمزية حمّلها السّارد أبعاداً نقدية فرمز بها إلى كلّ أصناف المجتمع المختلفة الّتي تعرقل تطور مجتمعاتها العربية.

لا يرى طارق الطيب سبيلاً للرقي إلاّ بخلاص المرأة من الوضعية الدونية الّتي تعيشها ولا يختلف طارق الطيب فيما يدعو إليه وفي مناصرته للمرأة عمّا دعت إليه تلك الحركات النسوية العالمية والّتي تدعو إلى تحرّر المرأة والدفاع عن حقوقها وقضاياها في كلّ بلدان العالم وخاصة منها العربية، حتّى تعي كيانها باعتبارها أنثى وباعتبارها عنصراً فاعلاً في المجتمع لذلك بدا السّارد على امتداد صفحات الرواية فاضحاً جريئاً لسلوكيات شخصياته كاشفاً عن الأسباب الحقيقية لما بلغته المرأة من تدن واضطهاد، ولم يكتف بتشخيص الداء بل أشار إلى الدواء فدعا إلى إعادة الاعتبار للحبّ والحلم والجمال متبنيا شخصية آدم الرّجل الّذي اتّصل بالغرب واحتكّ بحضارة وثقافة جديدة استفاد منها أيّما استفادة وقد هيّأته بيئته الأولى قبل ذلك بكثير بعدما نهل من مشاعر الحبّ من معين أمّه فعلّمته حبّ الحياة، لم تكن شخصية آدم مهتزّة ولا متطرّفة بقدر ما تدرّبت على استعمال العقل وحين ارتمى آدم بين أحضان فيينا ازداد استنشاقاً لرائحة الحياة وازداد توازناً ولم يكن الانغلاق سبيله وفهم نقاط ضعف قومه في بلاد الشرق فما كان عليه إلاّ أن يدعو للعقل وجعله إماماً وقبلة، لأنّه لا خلاص من التّخلّف والجهل والتّناحر والحروب والتّطرف الديني إلاّ به. فالشّرق العربي يحتاج إلى الحلم لأنّه لا يحلم ولا يتخيّل ولا يتشبّث بتحقيق حلمه، هو قاهر لكلّ خيال وهاضم لكلّ حلم يتفنّن في وضع الحدود لكلّ شيء وتحت أي مسمّى فالمهمّ عنده أن يخلق ولي أمر فيقدّسه ويعبده ويحنّط نفسه فيرسم خيالاً وهميّاً فيستبدل فكره بفكر موهوم هازما عقله مفشلاً حلمه وحين لا يجد من يشبهه يهرع ليحاكمه ويكفره ويلفظه فيعيش الحالم غريباً وهو في وطنه مهمّشاً ومقصياً. هذا حال شرقنا بأهله وحكّامه ورجال دينه وبأخلاقه وعاداته وتقاليده، ولا خلاص له إلاّ بالإتمام بالعقل ومعانقة الحبّ وامتطاء الحلم. فالحلم يجعل الإنسان متوازناً ونشيطاً ومبدعاً ومتناغماً مع ذاته والحلم يجمّل ما حولنا فيغرينا بالتّجدّد ويبشّرنا بالتغيير وبالعطاء.

يطرح طارق الطيّب مسألة العلاقة بين الشّرق والغرب فيحدّد الأسباب الحقيقية لتفوّقهم ولفشلنا نحن فيقول: «الشّرق يهزم عقلي يا ليلى لولا قلبي المفتون بالشّرق لكفرت به الشرق يكفر بكل خيال، ينتشلني من أجمل الأحلام ليركبّ لي حلماً على طريقته»/ (ص٢٧٥)، فيطرح الأسئلة التّالية: «مالّذي يثير في الغرب؟ ما الذي يعرقل الشّرق؟»/ (ص٢٧٥). فالشرق يحنّط الأشياء ويقدّسها والغرب يفسح المجال للحلم أن يحيا وللخيال أن ينعتق وللفرد أن يفكّر ويتحرّر والشرق لا يحلم هو منغلق وسقف أفقه المعرفي محدود «إنّ عقل الإنسان العربي عضو معطّل عند الغالبية فحكّامه جائرون يسخّرون كلّ الوسائل المتاحة وغير المتاحة لتهميش شعوبهم يقتلون أحلام شعوبهم بلاهوادة لأنهم يعرفون الحلم منطلق كل فعل وأنّ الحلم طاقة تخييلية جبّارة لا يتولّد عنها إلاّ الأبداع فيهزم الجمود ويكسر القوالب الجاهزة. لا يمكن لهذا العالم الشّرقي أن يتغيّر إلاّ إذا غيّر فكره وتمرّد على «الأجوبة السطحية المكرّرة المتخاذلة المخدّرة»، والاستمرار في طرح أسئلة تعيد ترميم ما ضاع من سنوات الحياة ولا يمكن له أن يتهيّأ لحياة سعيدة إلاّ إذا قرّر أن يتصالح مع أعماقه ويتخلّص ممّا تعفّن من موروثه وأن يتجرّأ ويحيّن تصرّفاته مستنيراً بمستجدات عصره ومتوسّلاً بعقله منفتحا على عوالم جديدة فالمعرفة لا تحدّ بمرجعية واحدة ولا تقيّد بزمن معيّن فالحياة حيوات والزّمن أزمان والمكان فضاءات شاسعة وهي كلّها لا تُحصّى ولا تعدّ فلماذا يحاصر البشر أنفسهم ويخنقون رغباتهم ويميتون طموحاتهم وقد خلقهم اللّه أحراراً؟.

ثمّن طارق الطيّب العقل واعتبره الجسر الوحيد الّذي يمكن أن يعبره الرّجل ليصل إلى قلب المرأة «أي رجل كي يصل إلى قلب امرأة يجب أن يمرّ عبر عقلها أوّلاً»/ (ص٢٣٣)، حينها فقط يتأكّد الحبّ بين زوجين ويتحقق حينها الإحساس بالأمان، فهاهي ليلى عانقت روحها واختارت نهجا وجدت فيه الحبّ الحقيقي محقّقة حلما من أحلامها الّتي تراودها باستمرار وقرّرت «أن تكون بمفردها في جلب الفرح لحياتها وتعويض المسلوب منه للحفاظ على سلامتها العاطفية وألاّ تترك نفسها مهما كان فريسة اليأس وضحيّة الأحمال المرهقة لكلّ حسّ طبيعي منها»/ (ص١٦٠). ولأنّ شرقنا لا يعرف الحبّ يفشل أمام الغرب ولأنّ شرقنا في أمسّ الحاجة للخلاص فهو في حاجة إلى الحبّ «فالحبّ هو الشيء الوحيد الّذي يسبغ قيمة كبيرة على أشياء لم ننتبه إليها أو لم تكن تمثّل شيئاً»/ (ص١٦٠).

كما يعيد الكاتب الاعتبار للحب يعيد الاعتبار للجنس فيخوض في هذه المسألة بكلّ جرأة ودون حرج ويتناولها لما لها من أهمية في خلق توازن نفسي بين المحبين. فكلّ علاقة لا بدّ أن يلعب فيها الجنس دوراً مهماً مثل الأرض الثابتة ولا بدّ للحبّ من دور فيها مثل السمّاء حتّى تكون مكتملة. «فالجنس وحده منقوص ويطفئ الشهوة إلى حين يتكرّر مثل الجوع والعطش والحبّ وحده منقوص في انتظار لحالة التّوحّد في الحبيب باللّقاء والفناء فيه من أجل ميلاد جديد يبعث الرّوح في القلب والجسم، هذا هو العشق الكامل هذه هي المرأة الّتي يتمناها، امرأة يمارس معها الحياة بالقلب والجسم والرّوح». وحين وجدت ليلى نصفها في آدم واكتشفت معنى الحبّ استلذّت ذلك الواقع فتبوح قائلة «وأنا الآن أستعذب هذا الواقع وأشتهي هذا الرّجل بلا حدود ولا قيود»/ (ص٩)، فالرّجل الّذي ترغب فيه المرأة الشرقية ولا تفصح عنه «هو الّذي يغلفها بالعشق ويذيبها بالرقّة وتحتاج في آن لرجل شهواني بدائي بمعنى البدائية المجبولة على الميل للتّوحّش»/ (ص٣٢٠).

فالمرأة الّتي يعنيها طارق الطّيّب هي تلك الشرقية بالتحديد الّتي لا تعبّر عن شهواتها وهي قادرة على ذلك وتتمنّى أن تصرّح بذلك والكاتب حقّق لها ما تريد وأخرجها من صمتها وكبتها في رسمه لشخصية ليلى وهي تبوح بمكنون نفسها بعد سنوات من القحط والمنع والحزن وحين التقت آدم فعبّرت عن سعادتها وابتهاجها به قائلة: «ما أسعد امرأة تعبّر عن شهوتها للحياة لمن تحبّه ويحبّها ويفهمها»، فالمرأة تحتاج إلى رجل يشاركها حياتها على جميع الأصعدة، في الحبّ والجنس وشؤون البيت وفي تربية الأبناء وفي تصفّح جريدة أو قراءة كتاب ومناقشته وكذلك تحتاج إلى من يشاركها سماع نشرة الأخبار... وتصرّح المرأة ذاتها فتقول: «نحتاج قليلا من المشاركة، لنكون قليلاً في الحياة، لنسطّر قليلا من التّاريخ». لا تحبّ المرأة أن يقصيها هذا الرجل ويتجاهلها ويلغي إنسانيتها متوهماً أنها ناقصة عقل وأنّ العدالة الإلهية لم تنصفها. نجحت ليلى كامرأة شرقية في التّحرّر من ذلك الإرث المعقّد من العلاقات الاجتماعية ومن هذا الرّباط الوهمي. مثلما نجحت تلك المرأة نور في تقرير مصيرها واختيار السبيل الّذي يناسبها و«قرّرت أن تتفرغ لحياة أرحب بعيدا عن الرّجال... كانت نور امرأة متحرّرة ليس بالمعنى المتعارف عليه عند ربط كلمة حرية بامرأة. إنّما هي امرأة بلا قيود ودون عقد. تتصرّف بحكمة وارتياح»/ (ص١٢٢).

لم ينفكّ السّارد ينظّر لمسألة الجنس فبعد أن يؤكّد أهميته ينتقل إلى تحديد مقوّماته الّتي تعكس حقيقة الحبّ وتساهم في استمراره ونمائه فالجنس الّذي يكون في اتّجاه واحد لا يحقّق أيّ إشباع بل هو مجرّد رغبة حيوانية عابرة يقول السّارد على لسان أحد شخصياته: «فرغبات مثل الجوع والعطش يشبعها اتّجاه لكن الجنس يحتاج إلى إشباع متبادل: أخذ وعطاء»/ (ص٣٢٠). لا يتوانى طارق الطّيّب في تعرية المسكوت عنه في العقلية الشعبية الجماعية في المجتمعات الشرقية والّتي تتّسم فيها العلاقات الجنسية في أغلبها بالوحشية والعنف جرّاء الكبت والحرمان باسم التحريم الديني أحياناً أو خدش الحياء أحياناً أخرى. عدّ طارق الطّيّب الجنس من المسائل الأساسية الّتي تساهم في اختلال أو اتزان وتوازن العلاقات بين أيّ اثنين متحابين مؤكّداً ما يطال المرأة الشرقية خاصّة من أذى في هذه العلاقة.

لقد تعدّت جرأة طارق الطيّب في هذا المتن السّردي حواجز كثيرة في المقابل باتت عديد الكتابات ممجوجة تلتحف السواد وتواري العورات وتتناول مواضيع باهتة لم تعد تستفز القارئ ولا تتحدّث عنه. يقول الروائي السوري خليل صويلح «إنّ عملية إقصاء الجنس عن قائمة القضايا الكبرى في الكتابة الإبداعية بذريعة الخدش والعيب والابتذال أدّى وسيؤدّي إلى خلل فكري فادح في التّخييل العربي وتهشيم إضافي للجسد الجريح في الأصل وتمزيق لهويّة غير مكتملة. والحال فإنّ المحاولات الشّبقية لاستعادة الجنس ماهي إلاّ مرآة شبقية للكتابة نفسها ومحاولة لحفر بئر عميقة في أرض صخرية قاسية وقاحلة وجرداء».

أكّد طارق الطّيب أنّ الحديث في الجنس حديث ضارب في القدم وقد تناولته أمّهات الكتب في الأدب العربي ولم يكن هو من الأوائل المولّدين له وخير مثال نستشهد به ما سرى بين الآذان وتناقلته الألسن وذاع صيته في بلاد الغرب قبل الشرق كتاب (ألف ليلة وليلة) ولا نعدم كذلك ما أورده الكاتب نفسه في روايته من مخطوطات أهمها المخطوط الذي كتبته امرأة وهي «كاتبة مجهولة اسمها زينة بنت النّعام وجد لها مجموعة نادرة من الكتابات الجنسية الّتي لا يعرفها أحد ولسبب ما تمّ إخفاء المخطوطات الّتي كتبتها لزمن طويل وهذه المخطوطة تحمل عنوان: إعانة النّساء في الكفاح على شهوة النّكاح»/ (ص١٠٠).

وقد كانت هذه الكتابات مبهرة وجريئة غلبت عليها الإباحية تناولت الجنس دون حرج باعتباره نعمة من نعم الحياة وقد انشغلت هذه الكتابات بالجنس ممارسة وتنظيراً وتوسّلت بعض الآثار بمقدّمات تشرح فيها دوافع الكتابة في هذه المسألة ومقاصدها وقد جاء في المقدمة التّي استهلّت بها زينة بنت النّعّام كتابها ما يلي: «الحمد للّه الّذي خلق خلقه قادراً حليماً حكيماً حاكماً لطيفاً منعماً... لم أنوي ولا أرتضي بتأليفي إثماً في العرض ولا تأييداً في معصية المهيمن ولا إحلالاً لما حرّم الباسط بل غوثاً لمن قصرت شهوتها عن بلوغ أمنيتها في الحلال وأملها في عمارة دنياها بالبنين والبنات فلا خلاعة في المرصود بل شفاعة من المقصود...». وبهذا يكون الخوض في مسالة الجنس في الإرث الأدبي العربي ضرباً من الكتابة المشروعة ولعلّ طارق الطيب تعمدّ بدوره ككاتب أن يستبق ردود أفعال حرّاس الدين المدّعين الحفاظ على الأخلاق ويؤكّد لهم أنّه لم يبتدع الحديث في

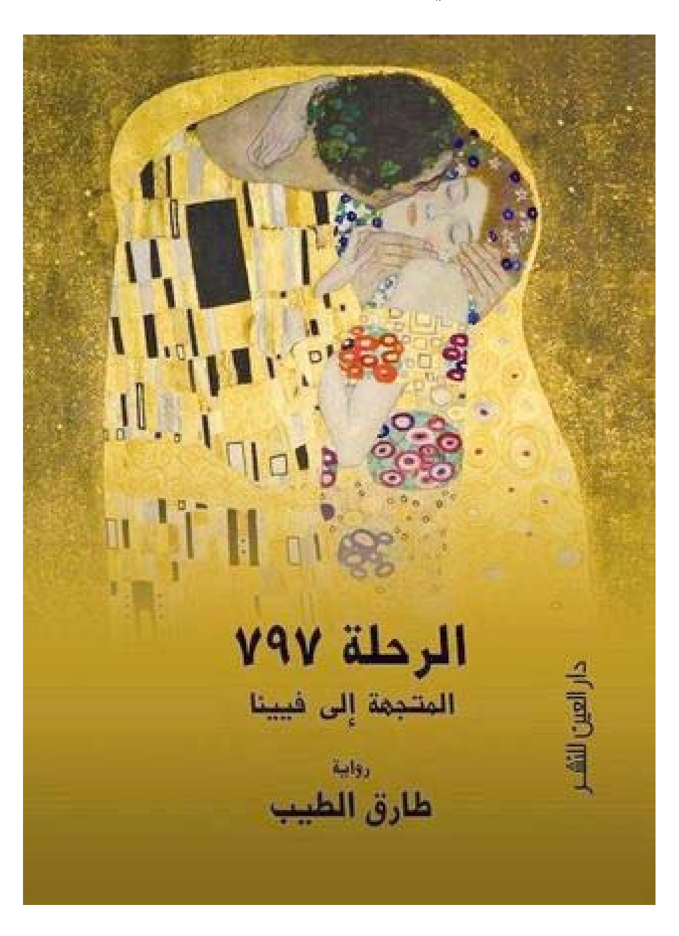
الجنس فلم يكن الأوّل الّذي تناول هذا الموضوع ولن يكون الأخير في المشهد الجنسي الرّوائي بل لعلّه كان في روايته (الرحلة ٧٩٧ المتّجهة إلى فيينا) أكثر تحفظاً وحياءً ممّا ورد في كتاب زينة بنت النّعّام مثلاً واستشهد بمقطع منه تقول فيه «افتحي له ثغرك عند القرب ببسمة قبول وفرجة غنج، مثلما يتفتّح فرجك الطالب للذّة الحكّ وهزّة الدّك وبوحي له برفثك وتحرّري...»/ (ص١٠١).

فالجنس مصدر من مصادر الحياة كالأكل والشّرب وهو نعمة من نعم الحياة والحديث فيه لا يخدش الحياء وليس مدعاة لشتم الكاتب واتّهامه بتخريب الأخلاق والدين وليس الجنس موضوعا يبتزّ به المبدع القارئ كما اعتقد البعض حتى يحقّق من ورائه ذيوع الصيت والشهرة وللفن والجمال نصيب من الكتابة الإبداعية في رواية طارق الطّيّب باعتبارهما سبيلاً لرسم ملامح مستقبل جديد للعالم الشرقي ففي أوطاننا ما زلت الشعوب لا تقبل على الفنون فبقي فيها الفن نخبوياً تحتكره طبقة بعينها في حين يتّسع مداه وينمو في أغلب البلدان الغربية ولنا أن ننطلق من غلاف الرّواية حتّى نستشعر شغف الكاتب بالفن التشكيلي أولاً وتأكيد دور الفنون في تأسيس حوار ثقافي متين بين الحضارات حيث اختار لوحة (القبلة) للفنان التشكيلي النمساوي العالمي غوستاف كليمت الّذي دعا إلى ترسيخ نظريته مؤكّداً من خلالها بأنّه لا فرق بين سكان القصور وبين عامة النّاس وليس هناك من فنّ للنّخبة وآخر للعامة وقد ثار غوستاف كليمت على المفاهيم التّقليدية وقواعد الفن الكلاسيكي وحسب ما قيل عنه هو لم يعط العاريات في لوحاته شكل الآلهة كما اعتاد الفن الكلاسيكي تصوير العري بل رسم محيطه عاريات، بهذا يتّضح بجلاء الدوافع الحقيقية في اختيار طارق الطّيّب لهذا الغلاف وكذلك اختياره لشخصية آدم المرممة للمخطوطات باعثة فيها الحياة من جديد والباحثة في آثار التّاريخ عن مجد أهمله أهله وباعوه بأبخس الأثمان والمهتمة بالفن والجمال تقنصه في المتاحف والمعارض والقصور وفي الحدائق الخضراء المزروعة بشتى أنواع الزهور والمستمتعة بالموسيقى بمختلف أنواعها، في فيينا «استمتعت ليلى وشاهدت ثلاثة من أجمل العروض في حياتها لثلاثة من عمالقة الموسيقى بدءاً بحفل كونسيرت للموسيقار يوهان سباستيان باخ في القطعة رقم ٧٩٧ ثم حفل كونسيرت هوس لعرض موسيقى للموسيقار النمساوي الأشهر فولفجانج أماديوس موتسارت في سيمفونية جوبيتر ٤١ ومقطوعة الناي السحري ومقطوعة فان جوخ وأما في المرّة الثالثة والاخيرة فقد حضرت عرضاً لموسيقى لودفيج فان بيتهوفن في ثلاث مقطوعات. كان آدم يعلّم ليلى «كيف تقتل شبح الخوف السّاكن فيها بالحرف والخطّ والفنّ والجمال»/ (ص١٧).

عانقت ليلى الموسيقى العالمية «كأنّها انتقلت للمستقبل سكينة وتأمل وإحساس بطعم الحياة». وكم أكّد السّارد شغف آدم بالموسيقى خاصة فاستعرض أسماءً كثيرة لموسيقيين عالميين استمع إلى موسيقاهم قبل أنّ يطّلع عليهم ليلى كموتسارت وتشايكوفسكي وشتراوس وبيتهوفن وباخ وغيرهم كثيرين ممن استأنست بهم ذائقته الفنيّة وعمقوا فيه حسّه المرهف وعلّموه كيف يحلم ويحقّق أحلامه ونقل كلّ ذلك إلى ليلى فنقلها «بمنتهى السهولة والبساطة بحكايات شيّقة عن حياة الموسيقيين ثمّ عرّفها على موسيقى الجاز..»، يأخذنا طارق الطّيّب إلى عالم سحري جميل عن طريق آدم فيفتح نوافذ كثيرة نطلّ عبرها على عالم ننشده مختلف عن واقعنا ولا ننكر حاجتنا إليه لنتخلص من أدران الحقد والكراهية ونستشرف فيه مستقبلاً نستمتع فيه بموسيقى الحياة ونتذوّق فيه طعم الحريّة .يأخذنا طارق الطّيب في أحيان كثيرة إلى عوالمه الخاصة فتلتحم ذاته بذات آدم ويعبّر عن أمله في النهوض بشرقه الّذي هو شرقنا أو حين يتحدث آدم عن جذوره السودانية واستقرار جدّه بمصر وزواجه بروضة أو عندما يكشف عن عشقه لفن الرّسم التشكيلي وهو الّذي أنجز محاولات عديدة في رسم لوحاته بشغف فنان يتلمس بدايات طريق غوستاف كليمت في تمرّده وبحثه عن عالم جديد إذ لم يكتف بجعل أشهر لوحاته غلافا لروايته بل كذلك فصّل الحديث عنها على لسان آدم محدّثا ليلى عنها يحقّ لنا إذن أن نستشعر هذا التقاطع بين شخصية آدم وملامح من حياة الكاتب طارق الطّيب أن نؤكّد أنّ الكاتب لم يرسم شخصياته رسماً محكماً كما كان يفعل الروائيون الكلاسيكيون بقدر ما كان حضورها ببوحها لأسرارها وكشفها لعقليتها ولطريقة تعاملها مع الأشياء بتفاعلاتها وانفعالاتها.

• الخاتمة.

حاولنا أن نتلمّس بعض الأفق الجماليّة في هذه الكتابة السرديّة في بنيتها الدّلاليّة والتّعبيريّة انطلاقاً من تّأمل جمالي بتوظيف جملة من الأدوات اللّغويّة للوصول إلى جوهر النّص لغاية تصدير هذا الزّخم من فنون الجمال إلى المتلقّين الّذين لم ينهلوا بعد من منابع هذه الرواية. ولست أزعم في ذلك أنّي استنبطت أسس السرد في هذه القراءة وما يتعلّق به من نظم تتحكّم في إنتاجه إذ لا أعتبر نفسي ناقدة وإنّما كنت قارئة تتحسّس بعض القيم الجمالية الّتي أغرتني في هذه الكتابة فأوحت لي بإيحاءاتها بدلالات استعنت بها لتفكيك مغالق هذا المتن السّردي.



# وظيفة الأدب



المهدي فاضل - المملكة المغربية

إن التحدث عن وظيفة الأدب تحدث مهم يحتل مكانة سامية في نظرية الأدب، والأدب الذي ليس له وظيفة من الوظائف النبيلة والأهداف العامة، يعد ضرباً من ضروب اللهو، وعملاً من أعمال الهزل، وعملاً يخلو من التأثير بين القراء والباحثين والدارسين والأدباء والنقاد. فالأدب الذي يخلو من الوظائف لا يستطيع أن يؤدي مسؤوليته الأساسية. وبدون دراسة وظائف الأدب المضنية ومطالعيها العميقة لا نستطيع أن نتحدث عن قيمة العمل الأدبي ومعاييره القيمة. إذن فما وظيفة الأدب؟ وما فائدته؟ وما الغرض منه؟

إن وظيفة الأدب مرتبطة بطبيعته وفائدة الأدب نابعة من ماهيته وكنهه. فرينيه وليك يعطي مثالاً مفاده أن كفاءة أي أداة تتماشى في الاستخدام مع ماهيتها، كأن تصبح آلة الغزل المستهلكة أداة زينة، أو قطعة في متحف. والبيانو الذي لم يعد صالحاً للعزف، يحول إلى مكتب صغير ينتفع به. وقد أكد وليك على الجمع بين المتعة والمنفعة لتحديد وظيفة الأدب عامة والشعر خاصة وذلك في قوله «ينبغي أن تحدد وظيفة الشعر بطريقة تأخذ المتعة والمنفعة كلتيهما في الاعتبار...>. إن كلمة مفيد ترادف ليس مضيعة للوقت وليس شكلاً من تزجية الفراغ - تعني شيئاً يستحق الاهتمام الجدي. وكلمة ممتع ترادف لا يدعو إلى الملل أو ليس من قبيل الواجب ومقصود لذاته»، والمتعة كما وصفها رينيه وليك هي متعة سامية تأتي عن طريق نشاط سام وهو التأمل المنزه عن الغرض، أما المنفعة الأدبية فهي ممتعة لأن جدية الواجب الذي لا مناص من أدائه، فهي جدية جمالية في نظر وليك.

والأدب إنشاء تخييلي تسود فيه الوظيفة الجمالية باعتباره فناً جميلاً يتخذ من اللغة أداة له، ويتبدى ذلك في هيئة إنشاء. فقد أشار وليك إلى أنه من المستحسن أن يقتصر الأدب على الأعمال التي لها وظيفة جمالية، في قوله «من المستحسن أن يقتصر الأدب على تلك الأعمال التي تهدف بصفة رئيسية إلى الوظيفة الجمالية، على أن نعتبر أن هناك مصنفات أخرى يدخل فيها العنصر الجمالي في الأسلوب والتركيب، وإن كانت لا تستهدف الغرض الجمالي كالبحوث العلمية، والدراسات الفلسفية، والنشرات السياسية، والمواعظ». كما نجد أن نيوتن يشاطره الرأي في أن للأدب وظيفة جمالية، في قوله «يمكن أن يحسب من الأدب كل نص لفظي قادر، ضمن إطار الثقافة المعنية، على تحقيق وظيفة جمالية. وما دام ممكناً من حيث المبدأ (وتاريخياً كثيراً ما يحدث هذا) أن تختلف الشروط المطلوبة لتحقيق الوظيفة الجمالية بين وقت إبداع النص ووقت دراسته، فإن النص الذي لا يدخل بالنسبة إلى المؤلف في مجال الفن يمكن في نظر الباحث أن ينتمي إليه، والعكس بالعكس». والوظيفة الجمالية في نظر الشكلانيين تتمثل في انغلاق النص على ذاته، في حين أن البحث السيميائي الحديث له رأي آخر وهو أن النص الذي يشتغل جمالياً هو النص الذي يكون وزنه الدلالي أكبر «والمدرسة الشكلانية اعتبرت أن الوظيفة الجمالية تحقق عندما ينغلق النص على نفسه وعندما يحدد عمله من خلال التوجه نحو التعبير؛ فبينما يكون السؤال (ماذا) في النص غير الأدبي أسبق في الأهمية، فإن الوظيفة الجمالية تتحقق بالتوجه نحو السؤال (كيف). هكذا يصبح مستوى التعبير نوعاً من المجال الجوهري، الذي يكتسب قيمة ثقافية مستقلة. في حين أن البحث السيميائي الحديث يؤكد على أن النص الذي يعمل جمالياً هو نص يكون وزنه الدلالي أكبر، من الوزن الدلالي للنصوص غير الأدبية، فهو يعني أكثر من الكلام العادي».

ونعود إلى رينيه وليك الذي يرى بأن للأدب وظيفة أخرى وهي «الدعاية» من أجل التأثير على القراء، معبراً عن ذلك من خلال قوله «الفن - وخاصة الأدب - إنما هو دعاية، وأن الكاتب ليس مكتشفا وإنما داعية للحق... إذا توسعنا في معنى الكلمة بحيث شملت الجهد الذي يبذل - في قصد أو دون قصد - للتأثير على القراء كي يشاركوا في موقف الإنسان من الحياة فإننا إذن نقبل القول بأن الفنانين دعاة».

كما أن للأدب وظيفة أخرى وهي الوظيفة الاجتماعية التي تحدث عنها صاحب كتاب «نظرية الأدب» رينيه وليك، في قوله «يمكن للمؤرخ أن يستخدمه كوثيقة اجتماعية»؛ أي أن الأدب يعبر عن مجتمع معين فيصفه ويحاول معالجة قضاياه، بأسلوب راق ورفيع.

كما تحدث خالد يوسف عن هذه الوظيفة في كتابه «الأدب والوظيفة» عندما قال: «إن الأدب ضرورة حتمية في الحياة الإنسانية، وظيفته خدمة المجتمع الإنساني». فالأدب له وظيفة سامية وهدف جليل هو خدمة المجتمع الإنساني بغية تطويره والرقي به.

وقد تناول نيوتن أيضاً الوظيفة الاجتماعية، في قوله: «لا تظهر الوظيفة الاجتماعية للأدب نفسها في إمكانياتها الحقيقية إلا حيث تدخل التجربة الأدبية للقارئ في أفق توقعات تطبيقه العملي، وتشكل قبلياً فهمه للعالم، وبذلك أيضاً يكون لها تأثير في سلوكه الاجتماعي». فالوظيفة الاجتماعية في نظره لا تتحقق إلا إذا اندمجت التجربة الأدبية للقارئ مع أفق توقعات تطبيقه العملي، وشكلت فهمه للعالم بشكل قبلي، بذلك يكون لها تأثير في السلوك الاجتماعي للقارئ.

وقد جاء في كتاب «مفهوم الأدب ودراسات أخرى» لتودوروف، بأن للأدب وظائف عديدة «فليس مرجعياً فقط بل هو أيضاً تعبيري ونفعي براغماتي».



أما المنظر المجري جورج لوكاتش فقد أشار إلى أن للأدب وظيفة اجتماعية - اقتصادية، قائلاً: «إن الأدب يعكس الواقع الاجتماعي - الاقتصادي... ويحاول أن يبرهن على أن أعظم الآثار الأدبية لا تعيد فحسب إنتاج الإيديولوجيات السائدة في عصرها بل تجسد في شكلها نقدا لهذه الإيديولوجيات». فهو يرى بأن الواقعية في رواية القرن التاسع عشر الواقعية، ليست محاكاتية صرفة بل تجسد التناقضات داخل المجتمع البورجوازي.

وأخيراً نجد ان خالد يوسف قد اعتبر أن وظيفة الأدب هي التعبير عن أعمق الحقائق. في قوله: «ليست وظيفة الأدب أن يتناول الحق مباشرة، وإنما وظيفته أن يتناوله من الجانب الحسي وينفحه بالجمال، ويمزجه بحياة الإنسان وعواطفه وأهوائه. والأديب الكبير هو الذي يعبر عن أعمق الحقائق ويلمس خفايا القلوب. ويطوف بنا في مشارق النفس ومغاربها. ليرشدنا إلى آفاق فكرية قيمة».

إذن فوظيفة الأدب الأساسية هي تحقيق المتعة والمنفعة، من خلال إفادة الأعمال الأدبية وجديتها. فالأدب محرك للحضارة الإنسانية، ولا يمكن للإنسان أن يرتقي بدونه. وبذلك فالأدب له عدة وظائف جمالية واجتماعية واقتصادية...تعطيه شرعية البقاء والاستمرار ببقاء الإنسان.

### • علاقة الأدب بفنون أخرى:

إن الأدب هو الفن الذي يحفظ للغة ذاكرتها، فهو يقوم بعملية إحيائية للمفردات والألفاظ، ويقوم بإعادة توزيع للسان ليمنح للغة حياة جديدة فيقع استحضار لمعاني خفية للفظ ما. فالأدب لغة وفن؛ حيث يشترك مع خطابات أخرى في اللغة، لكنه يختلف عنها لأنه يستعمل لغة فنية. كما أنه يشترك مع فنون أخرى في أن غايتهم تحقيق المتعة، ويختلف عنها في الأداة.

وقد ذهب سارتر في كتابه «ما الأدب؟» إلى أنه «ليست التفرقة بين الأدب والموسيقى أو بين الأدب والرسم تفرقة في الشكل فحسب، بل في المادة أيضا، فعمل أساسه الألوان أو الأصوات غير عمل آخر مادته الكلمات». فسارتر يعتبر بأن الأنغام والألوان والأشكال ليست بعلامات ذات مدلول، إذ لا يحال بها على شيء خارج عنها. فالفنان في نظره يعد اللون ورنين الملعقة في الصحون أشياء في ذاتها، ويتأمل في صفات اللون أو الشكل، وينقل على لوحته ذلك اللون نفسه، لا يتغير فيه إلا أنه جعل منه موضوعا خياليا. فالفنان عند سارتر بعيد كل البعد عن عد الألوان والأصوات لغة من اللغات. فالموضوعات التي يبتدعها الرسام الذي وصفه سارتر بالأبكم،لا تعبر عن سروره أو غضبه كما تعبر الكلمات وملامح الوجه، رغم أنها مغمورة بتلك المشاعر. كذلك يعتبر دلالة الألحان ليست شيئا خارجا عن الألحان ذاتها،فهي مغايرة للأفكار التي يراد الإعراب عنها؛ فالعواطف التي ظهرت في صورة ألحان تغيرت في كنهها وتحولت قيمتها. فالألحان في نظر سارتر لم تعد رمزا يحال بها على عاطفة مثل الألم، ولكنها أصبحت شيئًا من الأشياء.وعلى النقيض من ذلك يعتبر عمل الكاتب هو الإفصاح عن المعاني، كما يرى أن ميدان المعاني النثر، أما الشعر فهو من باب الرسم والنحت والموسيقى.

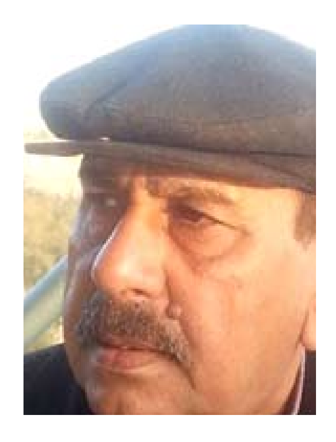
كما اعتبر سارتر أن الأدب يختلف عن غيره من الفنون في أنه ملتزم عكس الفنون التي لا تقبل الالتزام، وذلك في قوله: «الرسم والنحت والموسيقى لا يمكن أن تكون ملتزمة كالأدب، إذ لا يحال برسومها وأشكالها وأنغامها على مدلول آخر كما هي حال الأدب - المعاني لا ترسم ولا توضع في ألحان، على حين ينحصر جهد الكاتب في الإعراب عن المعاني- ميدان المعاني هو النثر، فالشعر كالرسم والنحت والموسيقى لا يقبل الالتزام».

وقد أكد سارتر على اختلاف الأدب عن الفنون الأخرى مستدلاً بوجهة نظر رينيه ويلك «الأدب يمتاز عن الفنون الأخرى في أنه ليس له وسيلة تعبير خاصة، وفي أن الأشكال الأدبية تختلط ويدق التدرج بينها». فقد يكون من السهل التمييز بين لغة العلم ولغة الأدب، لكن ليس كافياً أن تقابل بين الفكر وبين العاطفة أو الشعور، حيث إن الأدب يشتمل على الفكر، في حين أن اللغة العاطفية ليست من خواص الأدب وحده، في نظر رينيه ويلك. و قد وضح هذا الأخير في كتابه «نظرية الأدب» علاقة الأدب مع غيره من الخطابات في قوله: «يقول أرسطو في مقولته الشهيرة: «الشعر أكثر فلسفية من التاريخ»، لأن التاريخ يحكي أشياء قد وقعت، بينما الشعر يتناول ما يحتمل الوقوع، جامعاً بين صفة العمومية والاحتمال. أما الآن يبدو التاريخ - كالأدب - على أنه نظام فضفاض غير محدد المعالم، وحين ينظر إلى العلم على أنه منافس له عظيم الأثر، فهناك من يقول بأن الأدب يهدينا إلى معرفة التفاصيل التي ليست من شأن العلم أو الفلسفة. وبينما كان أحد أصحاب نظرية الكلاسيكية الجديدة في القرن الثامن عشر وهو الدكتور جونسون ينظر إلى الشعر من منطلق «جلال العمومية» إذ بأصحاب النظريات الحديثة من مدارس مختلفة (مثلاً جيلبي، ورانسوم، وستاس) يؤكدون اهتمام الشعر بالجزئيات. أي أن هناك من يرى بأن الأدب يهدي إلى معرفة التفاصيل التي ليست من عمل العلم والفلسفة، في حين هناك من ينظر إلى الأدب متصفا بسمة العمومية.كما نجد رينيه ويلك يميز الأدب عن الفنون الأخرى من خلال سمة الصدق؛ أي أن الأدب لا يتعارض مع الحقيقة «يبدو أن الأدب بالذات - دون الفنون الأخرى - يعنى <بالصدق> وذلك من خلال النظرة الكونية التي يتضمنها كل عمل فني متكامل».

المصادر:

- رينيه ويلك أوستن وارن، نظرية الأدب، مرجع سابق، ص٤٥.
- ك. م. نيوتن، نظرية الأدب في القرن العشرين، ترجمة: عيسى علي العاكوب، الطبعة الأولى، عين الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٦، ص١٨٦.
- رينيه ويلك أوستن وارن، نظرية الأدب، مرجع سابق، ص٥٢.
- خالد يوسف، الأدب والوظيفة في الوطن العربي خلال النصف الأول من القرن العشرين، مؤسسة الرحاب، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٧، ص٣٦.
- نيوتن، مرجع سابق، ص٢٣٧.
- تودوروف، مفهوم الأدب ودراسات أخرى، مرجع سابق، ص١٣-١٤.
- نيوتن، مرجع سابق، ص٨٨.
- خالد يوسف، مرجع سابق، ص٢٢.
- سارتر، ما الأدب؟، مرجع سابق، ص١٠.
- نظرية الأدب، مرجع سابق، ص٤٧.

# الاستهلال وأثره في الرواية



**داود سلمان الشويلي – العراق**
(ناقد وروائي وباحث)

للمطالع في القصائد أهمية كبيرة في فهمها، وادراكها. وقد أولى النقاد الأوائل أهمية كبيرة لها، وقالوا عن المطلع الجيد (حسن المطلع)، و(جيده). ويأتي عالم السرد ليستلم هذه المطالع من الشعر، فأنشأ عالماً قائماً بذاته، مختلف عن مطالع الشعر، ذلك ما يمكن ان نسميه (استهلالاً) سردياً.

والعنوان، وصورة الغلاف، والألوان، وأقوال شخصيات معروفة، وآيات قرآنية، وأحاديث نبوية، والاستهلال، كل هذه الامور تعدُّ عتبات في أي نص أدبي، وعلى القارئ العبور من خلالها وقراءة النص، وفك رموزه، وفهمه، بربط عناصره ربطاً ابداعياً ليس بعيداً عن مقاصد الكاتب.




وللكلمة، أو الجملة، أو العبارة الأولى، في النص السردي، أهمية كبيرة، إذ من خلالها يمكن للقاري أن يدخل في عالم النص الذي يقرأه، فتكون عند ذلك هي العتبة النصية التي اجتازها القاري في هذا العالم، هذه العتبة التي يشرع بها النص في التشكّل، والتخلّق، والخروج الى الوجود.

والكلمة هذه –أو ما شاكلها لغوياً– عند الكتابة الابداعية تقوم بوظيفة الجسر النصي الذي يبدأ القارئ بواسطته في الانتقال ذهنياً من عالم الأشياء الواقعية الى عالم الاشياء الافتراضية، عالم اللغة، الكلمة، والجملة، والعبارة، أي من عالم الحقيقة الى عالم الافتراض التخيلي.

وكذلك تقوم بوظيفة التشويق الذي يقدمه النص، ونوعية الإيقاع الذي يستلزمه ذلك النص، وفوق هذا وذاك، تكون مكون بنائي في عالم سرد النص.

هذه الكلمة، أو الجملة، أو العبارة، تسمى (استهلالاً) لهذا النص، حيث يبدأ بها السرد عمله، فإما ان يكون سرداً باهتاً لا لون له، ولا طعم، ولا رائحة، كما يقال، أو أن يكون سرداً قوي البنية، واسع الآفاق، جيد السبك.

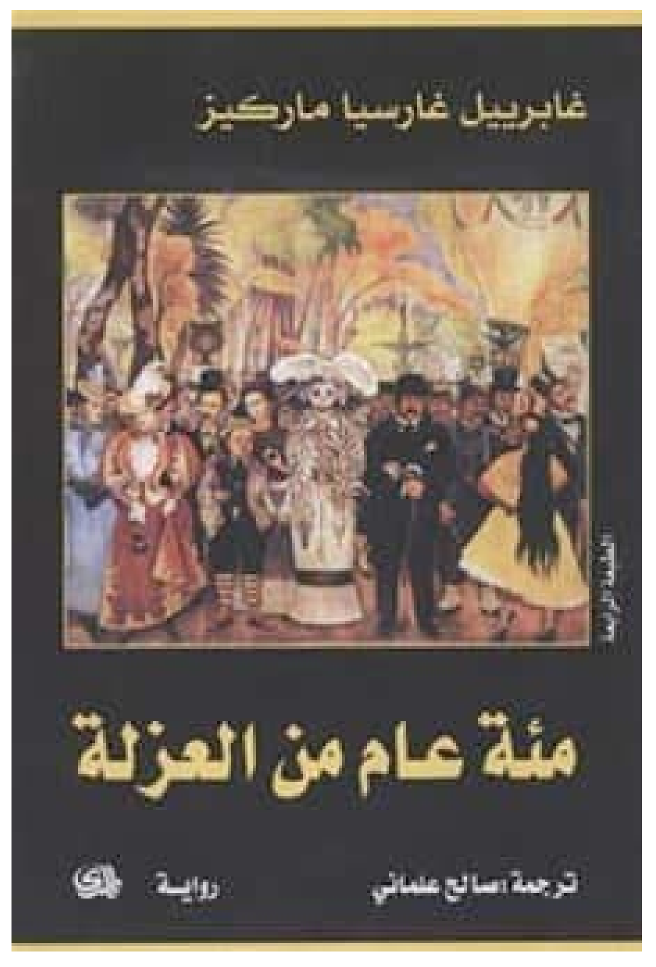
والتناص، كآلية اجرائية، يمكن من خلالها أن ندرس مجموعة من المداخل السردية (أي الاستهلال)، لمعرفة كيف انتقلت بعض مكونات استهلال روائي إلى استهلال روائي اخر بالأسس، والشروط نفسها، وبغيرها.

وقد تنوع التناص، كآلية اجرائية نفحص من خلالها النصوص، إلى نوعين، وأحد هذين النوعين الذي يكون على مستوى الانتاج، هو التناص الخارجي، الذي يقوم الكاتب بإعادة إنتاج منتج من قبل الآخرين.(١)

ويؤكد محمد مفتاح على أنه: (من المبتذل أن يقال أن الشاعر –الروائي في دراستنا– يمتصّ نصوص غيره، أو يحاورها أو يتجاوزها بحسب المقام والمقال، ولذلك فأنه يجب موضعة نصه أو نصوصه مكانياً في خريطة الثقافة التي ينتمي اليها، وزمانياً في حيز تاريخي معين).(٢)

أمامنا الآن استهلالات روائية ثلاثة تنبض بآثار الواقع الفني التي ستقدمه الرواية، ونرى فيها قوة الدخول في عالم روايتين أجنبيتين، وثالثة رواية عراقية. الأولى رواية (مائة عام من العزلة)، والثانية رواية (أوبابا كواك)، والعراقية رواية (ليل علي بابا الحزين)، سنفحص الاستهلال فيها لنرى مدى قوته، وصلابته السردية، وتأثير

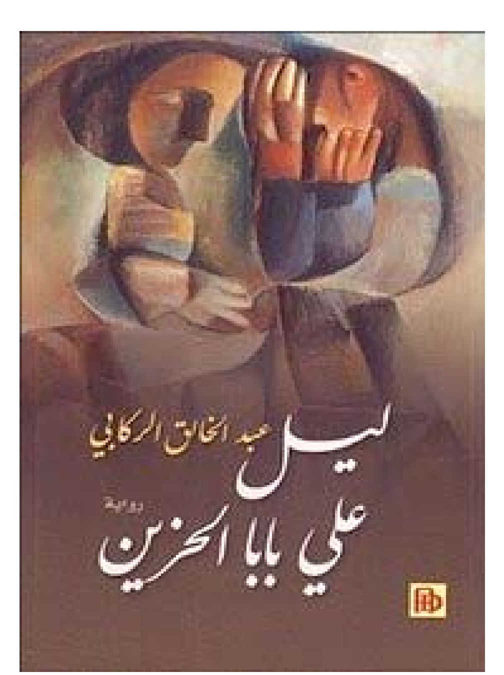
ذلك في المتن السردي للرواية تلك.
التناص الموجود في هذه الاستهلالات هو تناص ما حدث من أمر غريب لناس الرواية. فهو في (مائة عام من العزلة)(٣) يظهر على شكل المغناطيس، والمخترعات التي جلبها الغجر. وفي رواية (أوبابا كواك) هو الكاميرا، وفن التصوير، والتقاط صورة جماعية. وفي رواية (ليل علي بابا الحزين) هو تحوّل الأربعين حرامي الموجودين في النصب إلى سرّاق من لحم ودم، وهو تحوّل افتراضي، مجازي، وفي مخيال الكاتب.
هذه الاستهلالات هي التي تُبنى عليها كل رواية من تلك الروايات الثلاث. ان كان في المتن مباشرة، أو بصورة غير مباشرة.
إن الاستهلالات تلك هي جوهر نصي في طور التشكّل، تضم شيئاً غريباً، مؤثراً مثل السحر، وتحيل إلى شظايا لجواهر نصية أخرى تكون لحمة المتن الروائي، حيث تعْبر تلك الشظايا من عالم الواقع الحقيقي إلى عالم التوقع الافتراضي، أي عالم التخييل، والسارد الذي يقدم الاستهلال هذا، ومتن الحكاية، يستعمل ضمير المتكلم في الروايات الثلاث. لذا يمكن أن نقول عنه حسب اصطلاح (جنيت) سارد (داخل- حكائي)، أي ذات مشخصة في المحكي.
جاء في استهلال رواية (مائة عام من العزلة): (بعد سنوات طويلة. وأمام فصيلة الإعدام. سيتذكر الكولونيل اوريليانو بويندیا ذلك المساء البعيد الذي أخذه فيه أبوه للتعرف على الجليد. كانت ماكوندو آنذاك قرية من عشرين بيتاً من الطين والقصب، مشيدة على ضفة نهر ذي مياه صافية، تنساب فوق فرشة من حجارة مصقولة، بيضاء وكبيرة، مثل بيوض خرافية، كان العالم حديث النشوء، حتى أن أشياء كثيرة كانت لاتزال بلا أسماء، ومن أجل ذكرها، لا بد من الإشارة إليها بالإصبع. وفي شهر آذار من كل عام، كانت أسرة غجر ذوي أسمال، تنصب خيمتها قريباً من القرية وتدعو، بدوي أبواق وطبول صاخبة، إلى التعرف على الاختراعات الجديدة. جاءت أولاً بالمغناطيس. وقام غجري مربوع، له لحية كثة ويدا عصفور دوري، قدم نفسه باسم ميلكيادس، بعرض عام صاخب، لما أسماه أعجوبة علماء الخيمياء المقدونيين الثامنة. مضى من بيت إلى بيت، وهو يجر سبيكتين معدنيتين، فاستولى الذعر على الجميع حين رأوا القدور والطسوت والكماشات والمواقد تتساقط من أماكنها، والأخشاب تطقطق لأن المسامير والبراغي راحت تتململ، لتنتزع نفسها من الخشب. بل أن الأشياء المفقودة منذ زمن بعيد، بدأت تظهر حيث بحثوا عنها طويلاً من قبل، وراحت تتجرجر منقادة في حشد مضطرب، وراء حديدتي ميلكيادس السحريتين، بينما الغجري يصرخ بصوت أجش: «للأشياء أيضاً حياتها الخاصة، والمسألة هي في إيقاظ روحها». وقد فكر خوسيه اركاديو بويندیا –وكانت مخيلته الجامحة تتجاوز، على الدوام، عبقرية الطبيعة، وتمضي إلى ما وراء الإعجاز والسحر– في أنه بالإمكان استخدام ذلك الاختراع، عديم الجدوى، لاستخراج الذهب المدفون في الأرض. لكن ميلكيادس الذي كان رجلاً نزيهاً، حذره: «الاختراع لا ينفع في ذلك». إلا أن خوسيه أركاديو بويندیا، لم يكن يؤمن آنذاك بنزاهة الغجر، واستبدل بغلة وشلعة ماعز بالسبيكتين الممغنطتين. أما زوجته، أورسولا ايغواران، التي كانت تعقد الأمل على تلك الحيوانات، لتوسيع ميراث الأسرة الهزيل، فلم تتمكن من ثنيه عن عزمه. فقد رد عليها زوجها: «عما قريب سيكون




لدينا فائض من الذهب لتبليط أرضية البيت»، وانهمك طوال شهور، في إثبات صحة تكهناته. [...ك وكان الشيء الوحيد الذي استطاع استخراجه من باطن الارض، هو درع حديدية من القرن الخامس عشر [...ك وجدوا فيها هيكلاً عظمياً متكلساً ..الخ).
اما استهلال رواية «أوبابا كواك»، (٤) فقد جاء فيه: (منذ زمن بعيد عندما كنا ما نزال فتياناً وخضرا، جاء إلى المدرسة الابتدائية التي كنا ندرس فيها رجل ذو شارب وقبعة مزركشة بمربعات، وأعلن لنا بحركة جدية جداً أنه آت ليلتقط لنا أول صورة جماعية في حياتنا. استمعنا إليه ونحن نفلت الضحكات، لأن مظهره بدا لنا ظريفاً جداً، وخصوصاً قبعته، ولأننا لم نكن قد سمعنا حتى ذلك الحين أي شيء عن عبارة صورة جماعية. بعد ذلك مشينا في إثر المعلمة ونحن نخوض الماء في الشارع ونقذف حقائبنا في الهواء، حتى وصلنا إلى مدخل الكنيسة.
ولكن السعادة لا تكتمل أبداً. فما أن وصلنا حتى تعكرت حفلتنا قليلاً. فعلى المقاعد هناك، كانت تجلس جميع فتيات المدرسة الإعدادية، أشد خصومنا كراهية إلى أنفسنا في ذلك الحين: بعض الغبيات المتغطرسات اللواتي ما كن يتنازلن حتى بتحيتنا في الشارع. «من يقذفهن بحجر فليرفع يده» هكذا كان يقول لنا السيد الخوري في كل مرة تذهب إليه إحداهن شاكية. فتبقى كل الأيدي في الجيوب، وتنظر كل العيون إلى الأرض. وها نحن لسوء الحظ نجدهن أمامنا، وعلى شفاههن ابتسامات خبيثة).
واستهلال رواية (ليل علي بابا الحزين)، كان: (يوم عدت بأسرتي إلى بغداد –عقب رحلة كابوسية إلى مدينة الأسلاف انتهت باعتقالي–

فوجئت بالجيران يرددون كلاماً غريباً غير قابل للتصديق مفاده أن [كهرمانة] في نصبها القائم في منطقة [الكرادة]، توقفت، يوم التاسع من نيسان، عن سكب الزيت في جرارها، حيث شوهد أربعون لصاً يثبون تباعاً مغادرين تلك الجرار ليتوزعوا، تحت جنح الظلام، في شتى أحياء العاصمة!!).(٥)

في هذه الاستهلالات الثلاثة نجد أموراً غريبة تحدث في بيئة الرواية. ففي الرواية الأولى يوجد المغناطيس، وبعض الاختراعات التي جلبها الغجر. وفي الرواية الثانية توجد آلة التصوير الفوتوغرافي، والتقاط الصورة الجماعية. وفي الرواية الثالثة يوجد الأربعين حرامي في النصب الذين هربوا من مكانهم، فتحولوا إلى سراق.




إن الرواية الأولى تبنى على فكرة مؤداها أن كل شيء يتم بلا منطقية، وبسحرية إيهامية، وهي واقعية سحرية ميّزت الأدب الأميركي اللاتيني خلال سبعينات القرن الماضي. التي اشتهر بها ماركيز، حيث راحت كتاباته الروائية تغور بعيداً فى الخيال، وفى الغرائبية السحرية، هذه السحرية تشبه فعل السحر الذي قدمه الغجر أول دخولهم القرية. والمغناطيس الذي يسحب بقايا الحديد. والثلج الاصطناعي. والتلسكوبات.

فالرواية تروي أحداثاً غريبة، وتقدم شخصيات غريبة، مثل الطفل الذي له ذيل خنزير، والذي أكله النمل. وأخرى شخصية (ريميديوس) الجميلة وهي تطير إلى السماء، وتمشى وحولها الكثير من الفراشات وبمختلف الألوان، وتستعيد شبابها بعد أن تتجاوز سن السبعين أو الثمانين، مثل زليخة كما قدمها الموروث اليهودي وبعض الفرق الإسلامية، وتعود من العالم الآخر لتروي حكايات عن الأموات وعن عتمة العالم السفلى، مثل شخصية عشتار وزيارتها للعالم السفلي كما قدمتها الاسطورة السومرية.

وقد كانت قرية (ماكاندو) منقطعة عن العالم كافة، وعزلتها هذه المعلن عنها في العنوان هي التي جعلت السحر الغجري وعوالم الغرائبية تنتعش فيها.

ومن الطريف أن هذه المدينة بلا مقبرة خاصة بها، لأنها، كما قالت الرواية، لم تكن تعرف الموت حتى ذلك الوقت، إلّا بعد أن يأتي الغجر ومعهم يحملون حكاياتهم الغريبة. وهذا أمر غريب لا يحدث إلّا في عالم السحر.

ومن هذه العوالم تُبنى رواية (مائة عام من العزلة)، وتتوضح تأثيرات وصول الغجر إلى القرية على ناس القرية حيث تقع على رؤوسهم مثل الصاعقة.

فيما الرواية الثانية تُبنى بصورة غير معلنة على الصورة التي التقطت لتلاميذ صغار فبقت في ذاكرتهم على طول الرواية. هذه الصورة يتذكرها بطل الرواية وهو في سن متقدم، ويتذكر من خلالها أصدقاءه الذين يظهرون فيها.

(ولكن إجابات الصورة لم تكن محزنة دائماً. فقد كانت تكفي عموماً على التشديد على تلك المقولة القديمة بأن الحياة هي رحيل، وكانت تجعلنا نبتسم من التناقضات التي تنتج عن ذلك الترحال)، ص١٠.

(وسط هذه البلبلة، ومثلما كانت قد قالت لنا المعلمة، تذكرنا الصورة الجماعية الأولى في حياتنا. فكنا نخرجها بين الحين والاخر من بين الدفاتر القديمة، ونتوسل إليها أن تكشف لنا معنى الوجود. فتحدثنا الصورة عن الآلام مثلاً، وتطلب منا أن نمعن النظر إلى هاتيك الشقيقتين، آنا وماريا، المتوقفتين إلى الأبد في المنزلة رقم١٢من رقعة الأوكا العظيمة، أو أن نفكر في مصير خوسيه اريغي، ذلك الزميل الذي تحول من طفل باسم في بناء المدرسة الحجري إلى رجل معذب، انتهى إلى الموت في مركز الشرطة)، ص٩–١٠. ثم يبدأ بذكر المصير الذي وصل إليه كل من زملائه في الصورة.

وقد كان تأثير الصورة الفوتوغرافية كبيراً على شخصيات الرواية، فكانت تتراءى لهم صورهم في كل شيء: (صورة فيل وحبيبته في الفندق، ص١٦٢. وصورة الشخصية في المرآة، ص١٠٣. والصورة المشوهة التي يعكسها أحد الأعمدة المذهبة، ص١١٥).

والرواية الثالثة تنبئ على هروب اللصوص وانتشارهم في بغداد، حيث عاثوا فساداً (سرقة ونهب وقتل). إذ حولتهم الرواية مجازياً من حجر أصم في نصب معروف في بغداد، إلى بشر من لحم ودم.

الاستهلالات الثلاثة قد أسست لمتن حكائي للروايات الثلاث وذلك بزرع بذرة غريبة عن واقع الشخصيات التي تحفل بها، وقد كان بين تلك الاستهلالات أمر قد اشتركت به هذه الاستهلالات من خلال آلية التناص، أو كما يسميها بعض النقاد المغاربة (التثاقف).

إن الاستهلالات هذه لروايات ثلاث لا يعني أنه لا توجد روايات أجنبية، أو عربية، أو عراقية، قد بنيت على استهلالات فيها هذه القوة الابداعية، من حيث قوة البنية، وأوسع الآفاق، وجودة السبك. بل أننا اتخذنا منها ميداناً للفحص والتحليل.

الهوامش:

١ – مجلة الموقف الثقافي – ع/ ١٧/ ١٩٩٨ – دار الشؤون الثقافية العامة – ص٨٤.

٢ – تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص) – د. محمد مفتاح – المركز الثقافي العربي – ط١/ ١٩٨٥ – ص١٢٥.

٣ – مائة عام من العزلة – جابرييل جارسيا ماركيز – ت: صالح علماني – مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون – ٢٠٠٥.

٤ – أوبابا كواك – برنارد أوتشاغا – ترجمة صالح علماني – ط١– ١٩٩٩ – دار الطليعة الجديدة.

٥ – ليل علي بابا الحزين – دار ومكتبة عدنان – ٢٠١٣ – ص٧.




محمد الخير حامد – السودان
(مستشار التحرير)

# شكر وتقدير

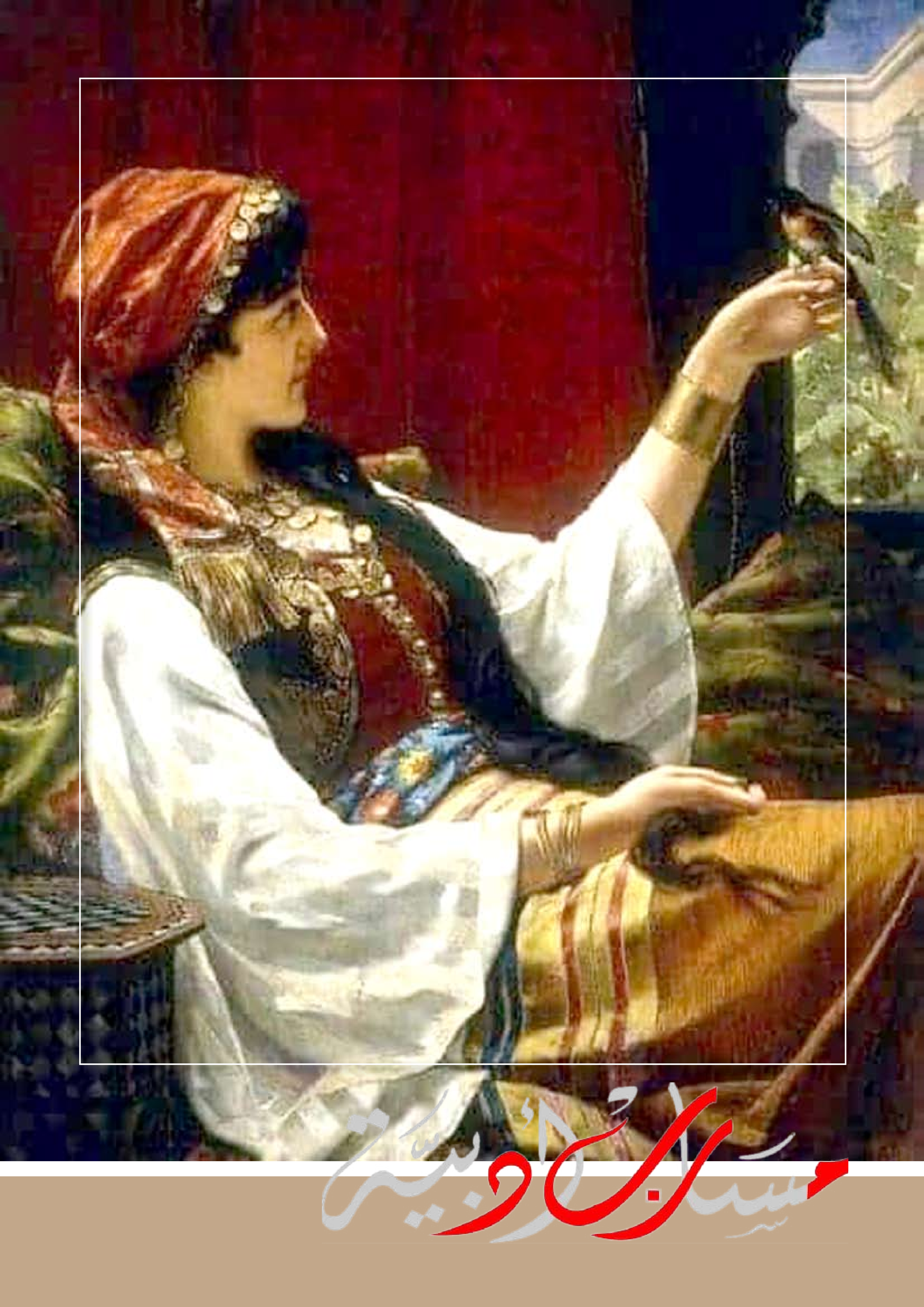
تقدم مجلة

**مسارب أدبية**

**جزيل الشكر للأديب المعطاء/**

## محمد الخير حامد

**على الدعم الكبير الذي بذله بوافر كرم لإدارة المجلة كمستشار لها منذ تأسيسها، تقديرنا الدائم لشخصه الكريم في كل آنٍ وأين.**


مسارب أدبية